

تأليف

الدكتور على محمد الحديدى

مايو سنة ١٩٦٧

أعلام العرب
٦٥

محمود سامي البارودي

تأليف
الدكتور علي محمد الحديدي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

مقدمة

شد ما جذبني البارودي اليه بقوة وأنا ادرس ادبنا فى مطلع النهضة وأبحث عن بيئته الأدبية فى تاريخنا الحديث ، فقد كنت أجد الرجل — وهو بالانفاق امام حركة التطور والبعث فى الشعر العربى الحديث — وكأن سوء الطالع الذى لازمه فى حياته لاحقه بعد وفاته ، فقد فارق الدنيا منذ أكثر من ستين عاما ولما تستكمل عناصر البحث والدراسة لأدبه ، فالمصادر الأصلية ، من ديوانه ، وكتبه ومذكراته ما زال جزء منها غير ميسور للباحثين . فما طبع من ديوانه لم يتعد قافية اللام ، وجاءت قصائده خالية من مناسباتها وتواريخها فتعرض تفسيرها وتحديد بيئتها ومناسباتها لمظان التخمين والاجتهاد ، أو لمواطن الخطأ حين اعتمد الدارسون على تاريخ الثورة العرابية الذى تدخلت فيه الأهواء والافتراءات وكتبت أصول أحداثه فى غفلة من الزمن ومن ضمائر العلماء والمحققين « أقلام التشهير » « وأقلام التبرير » .

كتبته أقلام التشهير المأجورة من القصر أو المحترفة من مؤرخى الاستعمار ، وقد استهدفت عقب هزيمة الثورة العرابية تشويه زعمائها فى أشخاصهم وفى مواقفهم منها ، لتصاب الأمة بخيبة أمل فى الزعامة المصرية فتخبو روحها المعنوية وتيأس من الكفاح ، وتستكين للاستعمار ، ولتحجب عن الأجيال المقبلة حقيقة النضال الوطنى ومواقف البطولة التى وقفها الزعماء وما قدموه من تضحيات فى سبيل تحرير وطنهم ، خشية أن تستهدى الأجيال الخطى ، وترسم الطريق ، ويظهر بينها زعماء آخرون يحملون الشعلة ويواصلون الجهاد دفاعا عن شرف الوطن المغلوب ، وحتى تضمن

الرجعية والاستعمار بقاء النكسة لصالحهما ومواصلة القهر والاستغلال ضد شعب مصر . وكتبته أقلام التبرير التى انبرى بها بعد وفاة الزعماء أصدقاؤهم وتلاميذهم – وقد أصيبوا باليأس ، واستكانوا للاستعمار ، يبررون اشتراك الزعماء فى الثورة ، ويدفعون عنهم – أمام المستعمر وأعوانه فى البلاد – جريرة وقوفهم ضدهم . ويعتذرون عنهم بأن انضمامهم للثورة لم يكن عن يقين أو طواعية ، بل حملهم عليه كرها « رجال العسكرية » . وقد برر واعتذر محمد رشيد رضا عن الشيخ محمد عبده فى كتابه « تاريخ الأستاذ الامام » ، واحمد سمير عن عبد الله النديم فى مقدمة كتاب « سلافة النديم » ، وياقوت المرسى عن محمود سامى البارودى فى مقدمة كتاب « مراثى الشعراء »(١) والذى يدعو الى الدهشة حقا أن تاريخ الثورة العرابية ما زال يكتب الى اليوم معتمدا فى مصادره على ما نفثته أقلام التشهير من سموم وما تجنت به ولفقته أقلام التبرير !!

ووجدت الذين سبقوا بالكتابة عن البارودى قد اكتفوا بما ظهر من الديوان واعتمد أكثرهم فى تحديد بيئة النص ومناسبات القصائد على التاريخ المغلوط . والقدر الذى ظهر من الديوان ناقص ومبتور تناولته يد الاعتداء بالحذف والتشويه فقد اكتشفت من مراجعة الأصل المخطوط على الجزء المطبوع أن هناك من القوافى التى طبعت قصائد برمتها حذفها الناشر وأسقطها من نشرته ، ومن ثم كان ناقصا ، وكان مبتورا لأنه حذف أيضا أجزاء من قصائد طبعت فبدت مشوهة لا تعطى الدلالة التى أرادها الشاعر لشعره ، وحذف كذلك من عنوانات بعض القصائد أجزاء توضح مناسباتها وتحدد

---

(١) جمع فيه خليل مطران مراثى الشعراء على قبر البارودى فى ذكرى الأربعين لوفاته ، انظر الجوانب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٩٠٤/١٢/١٥ ، ومحمد رشيد رضا أنظر المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ١٩٠٤/١٢/٢٣ .

تواريخها ، مع أن ذلك المحذوف من القصائد وأجزاء القصائد ومن عنوانات القصائد يمثل جزءا مهما من حياة البارودى ووطنيتـــه وعقيدته الثورية ضد الاستبداد والفساد والاستغلال ، وتدفع عنه كثيرا من تبعات التجنى التى ألقاها عليه المؤرخون والأدباء !!

ومن أجل ذلك كنت أجدنى مشدودا الى الرجـل لا استطيع صرف نفسى عن التفكير فى استكمال جوانب البحث فيه شـاعرا وسياسيا ، خاصة وقد درست تاريخ الثورة العرابية دراســة مستوفاة ، وواتتنى الفرصة للاطلاع على ما كتبه المؤلفون الأجانب عن هذه الفترة من تاريخ مصر - وما أكثرهم - وعلى الوثائق السرية لوزارة الخارجية البريطانية وعلى الصحف الأجنبية التى عاصرت الثورة العرابية وتابعت أحداثها .

والحق أن الذين سبقوا بالكتابة عن البارودى الشاعر لهم فوق فضل السبق يد على هذا البحث ، فقد مهدوا له الطريق ، وذللوا كثيرا من صعابه ، وكانت الفائدة التى جنيتها من كتاباتهم كبيرة بحيث أجد هذا البحث مدينا لهم بالكثير .

وحتى أضيف جديدا الى البحوث السابقة وجـدت لزاما أن اســتكمل النقص فى المصـــادر الأصـــلية والفـــرعية عن البارودى ، وأن أحصل على الديوان فى صورته الكاملة قبل الحذف والتشويه ، وعلى الجزء الذى ظل حتى اليوم مخطوطا منه ، وعلى مذكرات أسرة البارودى ، ومعلوماتها ، وأن استدرك ما فات الباحثين قبلى من تحقيق الصورة السياسية والتاريخية الحقيقية للرجل من آثاره ومن التاريخ الصحيح ، حتى تتوفر البيئـــة السليمة لشعره فيمكن الوقوف على ما قصد الشاعر من دلالة له ، وقد تمكنت من الاطلاع على نسختين مخطوطتين للديوان احداهما كاملة والأخرى قريبة من الكمال ، فوجدت بعد الدراسة والبحث أن البارودى لا يمكن استكمال صورته الأدبية والتاريخية دون الساقط من قصائد الجزء المطبوع أو المبتور منها ، ودون العنوانات

التى حذفت ، أو دون الجزء المخطوط من الديوان ، خاصة وقد تبينت أن أكثر ما حذف من القصائد أو أجزاء القصائد يهاجم الأسرة الحاكمة الدخيلة وعملاءها ركائز القهر والاستبداد وعوامل الفساد فى البلاد .. والعنوانات المحذوفة تحدد مناسبة بعض ما طبع من القصائد وقد قالها « يعرض بذكر المظالم على عهد الحكومة الاستبدادية » أو قالها « يذم رجال الحكومة الاستبدادية على عهد اسماعيل خديو مصر » ، وظهرت النشرة الاولى (١) للديوان حتى قافية اللام خالية من هذه المحذوفات وظهرت النشرة الثانية (٢) حتى قافية الكاف مقتفية سابقتها فى الحذف والاسقاط .

اما الجزء المخطوط من الديوان فقد وجدت فيه أكثر غزليات البارودى وخمرياته بحيث وضحت وتجلت نوازع الحب الحقيقية عند الشاعر ، وظهرت صبوات قلبه وتجارب غرامه وأحداثه ، ومعاناة الصد ولذات الوصال ، وكانت من الصدق بحيث لم تخف عنا حتى نازغ الشيطان حين راوده مرة الى الحب الأباحى فنهل منه وارتوى ، وكذلك بدت لذته من الشراب تظهر بوضوح فى معاقرته الراح وحيدا ليصرف بها همومه ، أو فى مجالس الأنس بين الرفاق والساقيات والمغنيات ينتهب اللذة فى فورة شبابه وبين دعوات الحروب انتهابا ، وما جاء فى الجزء المخطوط من صبوات البارودى وخمرياته يدفع الادعاء الذى ذهب اليه بعض الكتاب من أن البارودى فى غزله وخمرياته لم يكن الا مقلدا ينسج على غرار الأقدمين .

وفى الجزء المخطوط هجاء مشين لتوفيق وحاشيته وقد وقفوا ضد رغبة الشعب وأمانيه فى الحكم الدستورى وربطوا مصيرهم

---

(١) عام ١٩١٥ وقد تولى شرحها والاشراف على طبعها محمود الامام .

(٢) ١٩٤٠ — ١٩٤٢ وقد اخرجها وشرحها الأستاذ على الجارم والأستاذ محمد شفيق معروف .

بقوى النفوذ الأجنبى ، وهجا فيه رياضا واستبداده هجاء فاحشا بعد استقالته من وزارة الحربية (١٨٨١) وهجا فيه اسماعيل — وهو يعمل ياورا له — بعد أن ساق البلاد الى هاوية الخراب والافلاس ، وأوقعها فى براثن الديون والنفوذ الأجنبى ، وحدد البارودى موقفه من معاقل الرجعية والاستبداد وصنائع الاستعمار وثار عليهم ووقف مع الشعب فى وجه الظلم والجور .

وقد استعنت بالجزء المخطوط فى استكمال الصورة الأدبية والتاريخية للبارودى واستشهدت بأبيات كثيرة لم تنشر من شعر الشاعر وحققتها جميعها لتوضيح جوانب شخصية البارودى وشاعريته وتاريخه .

وديوان البارودى جاءت قصائده — الا ماندر — غفلا من المناسبات والتواريخ ، وكان من الضرورى تتمة للبحث ، الوقوف على هذه المناسبات والتواريخ ، وقد سلكت فى ذلك سبيلين : أولهما الاستعانة بالصحف والدوريات التى عاصرت البارودى قبل النفى وبعده ، وقد وجدتها مصدرا مهما من مصادر الدراسة للبارودى ، وقد كانت توليه وهو الوزير ورئيس الوزراء وسياسى الثورة العرابية اهتمامها البالغ وعقب الهزيمة شهرت عليه الصحف الرجعية والاستعمارية أقلام التشهير ، وبعد العودة كانت الصحف الأدبيـــة تتسابق الى نشر شعره وقد بلغ به الزعامة والامارة بين الشعراء فى البلاد العربية ، وكانت الصحيفة التى يخصـها البارودى بمقطوعات من شعره تدل على زميلاتها وتفخر ، وتضفى العنوانات الضخمة على القصائد التى تنشرها . وكانت السبيل الثانية هى الاستعانة بكريمتى الشاعر ، فاطمة ومشيرة وقد أمدتانى مشكورتين بمعلوماتهما — وما أغزرها مادة ونفعا — لمعرفة مناسبات القصائد وتواريخها وتوضيح بعض الجوانب التاريخية من حياة أبيهما ، واطلعتـانى على مذكرات الأسرة الخاصة وعلى شجرة

النسب ، وأفادتني معلوماتهما أيضا فى تفسير كثير من المعانى التى قصد اليها أبوهما رمزا وكناية (١) .

وتبينت من الدراسة أن الذين كتبوا عن حيـــاة البارودى مستدلين بشعره قــد انســاقوا وراء ما افتراه كاتب يد الناظم فى سنيه الأخيرة من شعر ونسبه الى البارودى فى « حملة التبرير »، وكان عطية حسنين شاعرا كذلك ، ومن كثرة مخالطته للبارودى وقراءة شعره وكتابته استطاع أن ينظم شعرا فيه عناصر شــعر البارودى من فخره بنفسه ومن حسن الصياغة ورنين الموسيقى وينسبه الى البارودى دون أن يلحظ أحد افتياته على البارودى وعلى التاريخ ، وقد افترى ثلاثة أبيات (٢) ــ زعم أن البارودى قالها بعد الاستقالة من وزارة الجهادية ــ فيها ريح الاعتـــذار لتوفيق ، وأبياته خمسة أخرى يعتذر بها عن البارودى فى حــرية الانجليز ، وأنه لم يدخل هذه الحرب عن يقين ولا عن طــواعية ، وقدم لها بقوله : بعد أن استعفى البارودى (من نظارة الوزارة مايو ١٨٨٢) لزم داره ، وتباعد عن الحكومة ورجالها ، وصـــار يتفقد مزارعه ومصالحه الخصوصية حتى شبت نار الحــرب بين مصر وانجلترا ، ودعى من رجالها لمساعدتهم ، فأجاب على كره منه بعد أن نصحهم بالبعد عن الدخول فى غمرتها ، والى ذلك يشير بقوله :

نصحت قومى وقلت الحــرب مفجعة
وربما تاح أمر غـــير مظنـــون
فخـــالفونى وشـــبوها مكابرة
وكان أولى بقـــومى لو أطـــاعونى

---

(١) كان اتصالى بهما ومقابلاتى معهما خلال شهر مارس ١٩٦٦ وقد ساعدنى مشكورا على عقد هذه الصلة معهما حفيد الشاعر الأستاذ حسن عصمت .

(٢) انظر مقـــدمة كتاب مراثى الشـــعراء جمع خليل مطران (١٩٠٥) ص ١٧ ــ ١٨ .

تأتى الأمــور على ما ليس فى خلد
ويخطىء الظن فى بعـــض الأحايين
حتى اذا لم يعد فى الأمــــر منزعة
وأصبح الشر أمرا غـــير مكنـــون
أجبت اذ هتفوا باسمى ومن شيمى
صـــدق الولاء وتحقيق الأظانين (١)

ولم أجد لهذه الأبيات السبعة أصـــلا فى الديوان المخطوط ولا تعرف كريمتا الشاعر من أين أتى الكاتب بهذه الأبيات ولم تسمعا بها فى شعر أبيهما .

والبارودى أول من حول تيار الكراهية عن القدماء المصريين وآثارهم فى عصرنا الحديث، بعد أن استعبدنا وهم التفسير الخاطىء للدين ، فصببنا جام الكراهية على أجدادنا الفراعين ، ولم نحترم آثارهم قرونا طويلة ، وأخذناهم جميعا بجريرة فرعون واحد طرد موسى وبنى اسرائيل من مصره ، وجاء البارودى فهتف بأمجادهم وأشاد بعلومهم على الدنيا وغنى للأهرام وأبى الهـــول ولآثارهم الخالدة وجعلهم مناط الفخر الذى لا فخر بعده للمصريين ، ودعا قومه أن يسيروا على نهجهم فى العلم والمعرفة حتى يصلوا مجدهم بأمجاد الفراعين السابقين جدودهم .

والبارودى أول شاعر فى العصر الحديث تغنى بصبوات القلوب على ضفاف النيل وصدح بأوطار القلوب فى معاهد الجزيرة والروضة وشبرا وحلوان ، وافتتن بهذه المعاهد والمغانى وقد أذكى جمالها فى قلبه قبس الحب وجذوة الغرام فكانت مسرح هواه ومغنى لهوه وهى معاهد ندر من يعرف وجوهها الصباح .

والبارودى أعاد لنا بشعره صورة الشعراء الفتيان من أغوار التاريخ ، وأقامها ماثلة فى عصرنا الحديث وقد ملأت الأريحيـــة

---

(١) المصدر السابق ص ١٨ — ١٩ .

المصرية عطفيه فمجد الفتوة المصرية بفتواته وشمائله وشيمه وفخره وفروسيته حتى غدا محسود الجلال وكانه على كل نفس فى الزمان أمير ، وكانت فتوته تأخذ وقودها من القلب والروح فهى التى أشقته بالمجد واشقته بالتضحية والفداء فى سبيل وطنه .

والبارودى أول من طرق الشعر السياسى فى العصر الحديث فنادى بالثورة المسلحة على الفساد والظلم (١٨٦٨) فى عهـــد اسماعيل ، والاستبداد فى عنفوانه والظلم قابض على صولجانه ويد الظالم من حديد والناس كلهم له عبيد وأى عبيد . وهاجم اسماعيل وحاشيته والفساد والاستبداد فى عهده وتوفيقا وخذلانه ووقوفه فى سبيل آمال الأمة ودعا الى النظام الدستورى ، ووقف مع الثورة يدافع عن دينه ووطنه وحريته ضد الاستغلال والتحكم والاستعمار .

والبارودى أول الشعراء المثقفين فى العصر الحديث ، نال حظا من الدراسة المعهدية والحربية وتعلم اللغتين التركية والفارسية واطلع على آدابهما ، ونظم بهما ، وقضى ثمانية أعوام بالآستانة ينهل من معين الثقافة التركية ويتزود بالتجـــربة ويبحث عن دواوين الفحول من الشعراء فى مكتبات الآستانة ، وينسخ ما يستطيع من مخطوطاتها ، ويعود بها الى مصر ليستكمل تكوينه الفنى على النمط الطبيعى السليم فيقرأ دواوين الفحول من الشعراء ويحفظ مئات القصائد ويستثبت معانيها ويدرسها دراسة أدبية — كما يقـول أستاذه حسين المرصفى — ناقدا شريفها من خسيسها ، واقفا على صوابها وخطئها ، مدركا ما كان ينبغى وفق مقام الكلام وما لا ينبغى وبذلك غذيت قريحته منذ نضارتها على روائع الشـــعر العـربى الكلاسيكى وعاش فى صحبة الشوامخ من شعرائها وغنيت ذخيرة خياله الفنى بكل رائق معجب من الصور والأساليب حتى أصبح كل ذلك جزءا من ثروته اللغوية والأدبية ، وحتى أصبحت القدرة على التعبير الاصيل طبيعة فيه . وطبيعى أن يسلك البارودى — وهذا تكوينه الفنى — مسلك القدامى فى الشعر فيحافظ على النســق الموروث فى القصيدة الشعرية ، وتسرى فى شعره العناصر القديمة

فى اللفظ والصورة والمعنى ، وبذلك يكون أماما « لمدرسة المحافظين » فى الشعر الحديث .

والبارودى بالاتفاق رائد حركة التطور فى الشعر العربى الحديث فقد طلع فى سماء الشعر طلوع الفجر الجديد ، وكأنما بعثته السماء ليخرجه من ظلمات الهاوية التى تردى فيها أكثر من خمسة قرون تلفه أكفان الصنعة وجدب القرائح وفساد الذوق ، الى نور الفطرة السليمة ، وبهجة الديباجة ، وصحة التركيب ، بموهبة عاتية واستعداد فنى وأدبى متين . وقد اتجهت بالبارودى موهبته وثقافته وتكوينه الفنى والأدبى الى رحاب الكلاسيكية فبدأ بها فى شعرنا الحديث طورا جديدا من جلال الصياغة ورنين الموسيقى ومجاراة القدماء فى صورهم ومحاكاتهم فى الأغراض والمعانى .

وقد تمثلت الكلاسيكية فى شعر البارودى بنوعيها أصدق تمثيل : قديمها أو ما يعبر عنها « بالكلاسيكية الضيقة » ، وهى التى تجارى القدماء فى اللفظ والمعنى دون أن تتصل من قريب أو من بعيد بالشاعر وتجاربه ، أو تنير جانبا من جوانب عصره . وذلك يظهر أكثر ما يظهر فى شعر المرحلة الأولى من حياته ، وهو يعارض القدماء ، ويروض القول على نمطهم استثباتا وامتحانا لشاعريته ، وجديدها ، وهى التى تعتمد على جلال الصياغة والاطار الأسلوبى القديم لتعبر عن عواطف الشاعر وتجاربه ، أو تتصل بأحداث عصره صراحة أو رمزا ، والبارودى فى أكثر شعره تمثل القديم ورمز به لعواطفه ، واحتفظ فيه بشخصيته ، وأنار به جوانب عصره فرد الى الشعر العربى أساليبه الناصعة التى كادت تندثر ، يعبر بها عن الحاضر فى مجالاته المختلفة فيسحر بشعره الألباب ويأخذ به مجامع القلوب . سحرنا لأنه متصل بماضينا وبالروح الموروثة المستكنة فى أعماقنا وهى الروح العربية الخالدة فبعثها فى واقعنا ، وأخذ بمجامع قلوبنا لأنه لم يتحرر ذلك التحرر الذى يقطع الصلة بين الماضى والحاضر بل أخرجه فى اطاره القديم من واقع العصر وعواطف الشاعر وذلك جمال التجديد فى شعر البارودى .

وبعد ، فقد اضطرني التقيد بعدد صفحات « أعلام العرب » الى اختصار جزء كبير من بحثي عن البـــارودي ، ولا أدعي أنني أحطت بكل شيء خبرا عن الشاعر ، فطاقة ثورية لها كل هذه الحياة العريضة . وقد نسجتها يد الزمن من الأحداث والعبر ، ونظمتها يد المقادير صفحة في تاريخ مصر الحديث ، وموهبة فنية عاتيـــة جاءتها منقادة ريادة حركة التطور في شعرنا العربي الحديث بعد انتظار طويل ، لا يمكن أن يحيط بكل مجالاتهما كتاب واحد ، ولست ادعي أن البحث مثالي خال من العيوب والمآخذ ، ولكن حسبي أنني بذلت الجهد والطاقة وتوخيت الصدق والانصاف ما وسعني ذلك مبتغيا وجه الحقيقة . . وأرجو أن أكون قريبا منها والله المستعان .

كلية البنات ـ جامعة عين شمس　　　　**علي الحديدي**

شكر وتقـــدير

أجدنى مدينا بالشكر والتقدير لكريمتى الشـــاعر الفاضلتين فاطمة ومشيرة ولحفيـــده الأستاذ حسن عصمت على معونتهم ومعروفهم ، فقد قدموا الى ما في وسعهم من معلومات ومذكرات .

وأذكر بالشكر والتقدير أيضا الأستاذ محمد شفيق معروف حائز احدى مخطوطات الديوان فقد أطلعنى عليها وقضيت معهـــا في الدراسة والبحث والمقارنة أياما عدة .

الفصل الأول

المولد والنسب والنشأة

المولد والنسبة :

شـــهد يوم الأحـــد السابع والعشرون من شـــهر رجب عام ١٢٥٥ هـ (١) (٦ أكتوبر ١٨٣٩ م) مولد امام الشعراء المحدثين، ورائد النهضة فى الشعر العربى الحديث «محمود سامى البارودى».

وسعدت « سراى البارودى » قرب « باب الخلق » بالقـــاهرة باستقبال الوليـد الذى أعـدته نفسه ليكون زعيما من زعماء الحركة الوطنية فى مراحلها الأولى ، والذى صنعته الأيام ليقدم على مذبح الوطنية فداء من عمره واغترابه ، وتضحية من ماله واهـله ونور عينيه .

والبارودى من أسرة جركسية تجرى فى عروقها دماء الأمراء من «دولة المماليك الجراكسة» الذين حكموا مصر قرابة قرن ونصف قرن (١٣٨٢ ــ ١٥١٧) . والجراكسة المماليك طبقة من المولدين الذين وفدوا الى مصر بعد أن غزا التتار بلادهم ودمروها وساقوا أهلها جماعات الى أسواق الرقيق المعروفة فى آسيا فملئت بهم

---

(١) ياقوت المرسى وعطية حسنين : مقدمة « مراثى الشعراء لمحمود سامى البارودى » جمع خليل مطران (مطبعة الجوائب المصرية سنة ١٩٠٥) ، المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ١٩٠٤/١٢/٢٣ .

وباعهم التتار بأثمان بخسة ، واستكثر سلاطين مصر وذوو النفوذ فيها من شراء المماليك . وكانوا من أول يوم ينضمون فيه الى رجالات الدولة وذوى السلطان يصبحون لهم أهلا وأتباعا ، ينسبون اليهم ، ويحملون أسماءهم ، ويرثون عنهم بالولاء مناصبهم وأموالهم ودورهم ، حتى نساءهم . وكانت رابطة الولاء للسيد والوطن الجديد أقوى من رباط الأسرة والوطن الأم . ويصبح المملوك ــ وقد جاء فتى يافعا ــ لا يعرف له أهلا غير أهله الجدد ، ولا موطنا غير مصر التى قدمت له المأوى والجاه والسلطان .

ومن ثم لم تكن لنسبتهم وألقابهم قاعدة يلتزمونها بل ينتسبون الى السيد تارة ، والى الرئيس تارة أخرى ، وكثيرا ما ينسبون الى الوظيفة أو الالتزام ، وقد يأخذ الواحد منهم لقب زوجته اذا كانت تفوقه شرفا وغنى وجاها ، ولذلك غمض منشؤهم ، واختلطت انسابهم ، وضاع التسلسل الأسرى بينهم ، ولاقى الباحثون العنت والمشقة فى سبيل ردهم الى أصولهم ومعرفة آبائهم وأجدادهم الحقيقيين .

وشاعرنا البارودى نفسه ذلك الذى تاه على الدنيا بأجداده ، وملأ سمع الزمن فخرا بهم ، واجه هذه الصعوبات عندما أراد تحقيق نسبه « وكان شديد الحرص على معرفته وتتبعه الى اصله ، فبذل الجهد وبحث ونقب فى أنحاء القطر وراجع النصوص وحجج الوقف » ، « وسأل أهل العلم والسن والمعرفة ، وانفق فى سبيل ذلك ما يقدر بنحو ثلاثة آلاف جنيه (١) » وبعد سنوات قضاها هو وفريق من العلماء (٢) فى الدراسة والتحقيق خرج لنا عام ١٨٨١ بصحيفة لنسبه « ينتهى فيها (من جهة أمه) كما فى حجة الوقف الشرعية المسطرة فى محكمة مصر المؤرخة ١٨ من ذى القعدة

---

(١) جورجى زيدان : مشاهير الشرق جـ ٢ ص ٢٩٨ .

(٢) كان على رأسهم صديقه الشيخ محمد عبده وكتب صحيفة النسب بخطه . أنظر المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ١٩٠٤/١٢/٢٣ .

عام ١٠٩٧ ، وكما فى حجة التغيير المؤرخة ١٨ من صفر عام ١١٩٥هـ الى نوروز الاتابكى الملكى الأشرفى أخى برسباى قرأ المحمدى » (١) ويتصل نسبه أيضا ـ كما تدل شجرة النسب المخطوطة (٢) ـ الى السلطان نور الدين شاهنشاه أخى السلطان يوسف صلاح الدين .

وحين نستعرض ما جاء بشجرة النسب ، وما ذكره ياقوت المرسى وعطيه حسنين كاتبا « البارودى » بعد أن كف بصره ، وملازماه فى أيامه الأخيرة (٣) ، وما أثبته محمود الامام راوية الشاعر وصديقه بعد النفى ، ومحقق جزءين من ديوانه وشارحهما وما لدى كريمتى البارودى وأحفاده من معلومات ومذكرات وأوراق خاصة ، ونطبق ذلك كله على الحقائق التاريخية نجدنا مضطرين الى أن نأخذ الأمر بالحيطة ، ذلك لأن الشجرة تحتاج الى كثير من الايضاح والتصحيح كى يوافق ما جاء فيها مفهوم التسلسل فى النسب بقواعده المعروفة ، ومع ذلك فهى عمل كبير يساعد الدارسين ويجنبهم كثيرا من المشقة والجهد ويلقى كثيرا من الضوء على نسب الشاعر الكبير .

ويبدأ نسب البارودى من جهة أمه بفاطمة هانم البارودية . وكانت هى وأخوها ابراهيم البقية الباقية من أسرة « البارودى » ذات الجاه والفخار ، وكانا الوريثين الوحيدين لضياع الأسرة الواسعة وقصورها العديدة الموقوفة (٤) ، بعد أن قتل أبوهما « على أغا البارودى » فى مذبحة المماليك بالقلعة عام ١٨١١ .

وعلى أغا البارودى جد الشاعر لأمه لم يكن من أسرة البارودى،

---

(١) مقدمة ديوان البارودى شرح الامام .

(٢) شجرة النسب المخطوطة فى حوزة كريمتى محمود سامى البارودى فاطمة ومشيرة ، وهى تفريغ لما جاء فى صحيفة النسب التى حققها البارودى فى حياته .

(٣) كتبا ترجمة حياة البارودى مقدمة لكتاب « مراثى الشعراء » جمع خليل مطران (١٩٠٥) .

(٤) انظر الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ٥١ ـ ٥٣ ، مذكرات الأسرة .

بل كان مملوكا وخازندارا لمحمد أغا البارودى وحين تزوج بفاطمة قادن البارودية بنت زليخا خاتون البارودية من أحمد أغا البارودى انتسب على اغا الى أسرة زوجته فاطمة قادن البارودية ولقب بلقبهـــــا (١) .

والأمير أحمد اغا البـــارودى (٢) والد فاطمة قادن البارودية ــ جدة الشاعر لأمه ــ لم يكن « باروديا » كذلك ، بل كان مملوكا لابراهيم كتخدا مستحفظان القازدوغلى ، وبعد أن تزوج بابنته سيده « زليخا خاتون البارودية » انتسب اليها وأصبح « باروديا » بالولاء .

والأمير ابراهيم كتخدا والد زليخا خاتون تزوج بفاطمة خاتون المعروفة « بالست البارودية » ولم ينتسب اليها لأن له من نفسه ومركزه وسلطانه وأتباعه ما يجعله أعلى مجدا وفخارا من زوجته ، وما يغنيه عن الانتساب الى أسرتها ، فقد تولى امارة الحج ومشيخة البلد وهما أرقى مناصب الولاية .

« وفاطمة خاتون » زوجة ابراهيم كتخدا مستحفظان القازدوغلى بنت مصطفى جلبى (٣) ابن الأمير قاسم ايواظ الجركسى يصعد نسبها الى الأمير مراد جلبى البارودى وهو الذى بدأت به نسبة «البارودى» الى الأسرة فقد كان ملتزما (٤) « لايتاى البارود » بمحافظة البحيرة فنسب اليها كما هو عادة المماليك فى ذلك الوقت (٥) .

---

(١) أنظر الجبرتى ج ٤ ص ١٩٣ ــ ١٩٤ ، شجرة النسب المخطوطة .

(٢) توفى عام ١٧٧٤ انظر الجبرتى ج ٣ ص ١١١ .

(٣) قتل عام ١٧٢٥ ــ ترجمته بالتفصيل انظر الجبرتى ج ١ ص ١٥٨ ــ ١٥٩ ، ١٦٣ .

(٤) الالتزام هو تضمين الضرائب لأناس يتولون جمعها ويشاركون فيما يغلونه ن الأهالى لمدة معينة أو مدى الحياة .

(٥) مقدمة « مراثى الشعراء » ، مقدمة الديوان شرح الامام ، المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ١٩٠٤/١٢/٢٣ .

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن الشجرة جعلت مرادا البارودى يتصل بتسلسل النسب الى الأمير « برسباى قرا المحمدى » نفسه عن طريق يوسف جاويش الى أصيل خاتون التى ينتهى نسبها الى السلطان نور الدولة شاهنشاه أخى السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبى ، ومن ناحية أخرى جعلت شجرة النسب شاعرنا البارودى يتصل نسبه بالأمير نوروز الأتابكى أخى برسباى وذلك عن طريق جدة الشاعر خديجة خاتون زوجة الأمير ايواظ الى الأميرة سعد الملوك خاتون بنت الأمير نوروز الاتابكى ، ولكن هذا الاتجاه فى النسب لا يمر بالأمير « مراد جلبى البارودى » أصل أسرة البارودى وحامل لقبها الأول .

أما نسب الشاعر لأبيه فالمصادر التاريخية وشجرة النسب وصحيفته ، ومذكرات الأسرة ومعلوماتها تقف بنا عند جده الأول « عبد الله الجركسى » . فقد استقدمه ـ وهو شاب حدث من بلاد الجركس ـ الى مصر الأمير الكبير محمد الألفى ، وكانا من بلد واحد، وضمهالألفى الى أتباعهوجعله كاشفا من كشافه (١) فانتسب اليه ، وصار يدعى عبد الله الجركسى الألفى (٢) . وفى عام ١٨١٠ ولد لعبد الله الجركسى ولد سماه « حسن حسنى الألفى » هو والد الشاعر محمود سامى البارودى . ولم ينعم الطفل حسن حسنى برعاية والده غير عام واحد فقد قتل مع كبار المماليك فى المذبحة التى دبرها محمدعلى للقضاء عليهم عام ١١٨١ (٣) . ونكبةالبارودى الشاعر فى مذبحة القلعة نكبة مضاعفة فقد قتل فيها جده لأمه على اغا البارودى وجده لأبيه عبد الله الجركسى الألفى ، ولكن نكبة

---

(١) الكاشف يماثل فى هذا العصر مأمور المركز أو محافظ المحافظة . وكان مركزه يختلف باختلاف الاقطاعية أو البلاد التى يكون كاشفا عليها يحصل منها الأموال لسيده الصنجق المقيم فى القاهرة .

(٢) معلومات أسرة البارودى .

(٣) مذكرات الأسرة .

الوطن من آثارها النفسية كانت أثقل وطأ وأشد خطرا ، فقد فوجىء الشعب بأسلوب الغدر والخيانة والقهر ممن كان بالأمس القريب مناط الأمل فى حكم أكثر عدلا ، وحياة يسودها الاطمئنان . واسترد محمد على أنفاسه اللاهثة وراء أطماعه عقب مذبحة المماليك ، فقد كانت المنطلق الأخير الذى وثب منه الى تحقيق مآربه فى بنـــاء امبراطورية له ولأسرته من بعده .

وما أن تسنم غارب الحكم ودانت له الأمور ، وأصبح الحاكم الفرد فى البلاد ، حتى أخذ يدفع بالمصريين دفعا لا رأى لهم فيه الى مغامرات عقيمة تستهدف مصالح الفرد فى تأسيس ملك عريض ، وساقهم الى معسكرات التجنيد ليبنى بهم جيشا قويا ، يكون قاعدة حصينة تحمى حكمه ، وأداة قوية يصل بها الى طموحه فى بناء امبراطورية يجلس على عرشها ، واستقدم الخبراء العسكريين من أوروبا ، وانشأ المدارس الحربية ، وســخر موارد الدولة المادية وامكانياتها البشرية ، وعبأ قواها العقلية لتكون جميعها فى خدمة الجيش وسيلته فى تحقيق أطماعه . وغلبت المغامر الدكتاتور سجيته التركية فبذرت بذور التمييز العنصرى فى الجيش من أول يوم فى تكوينه ، فالمدارس الحربية التى أنشئت لتخرج قادة للجيش رغم تعددها كانت محرمة على المواطنين المصريين (١) ، وأمر الحــاكم المستورد أن يختار لها طلبتها من أبناء الطبقة التى منحها امتيازات السيادة من الأتراك والارناءود والأرمن واليونان وبقايا الجراكسة .

وفى هذه المدارس الحـــربية تلقى « حسن حسنى الجركسى الألفى » فنون الحرب وخرج ليعمل ضابطا فى المدفعيـــة المصرية الحديثة التى حملت العبء الأكبر من معارك الجيش المصرى فى منطقة الشرق الأوسط قرابة ثلاثين عاما ، وقفزت به استعداداته الحربية

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث جـ ٢ ص ١٨٢ .

وشجاعته النادرة درجات الترقى حتى صار من أمراء المدفعية وتقلد رتبة اللواء (١) .

وحين بلغ من العمر ٢٦ عاما (١٨٣٧) تزوج « بفاطمة هانم البارودية » وكانت تكبره بثمانية عشر عاما (٢) ، ولم تكن أسرته تضارع أسرة البارودى العريقة فى المجد الموغلة فى الجاه والواسعة الثراء ، ومن ثم انتسب الى أسرتها على عادة المماليك وتقاليدهم ، وأصبح منذ زواجه بها يعرف « بحسن البارودى » بدلا من حسن حسنى الجركسى الألفى ، فهو « بارودى » ولاء لا نسبا . وفى ٦ أكتوبر ١٨٣٩ ولد لهما ولد سمى « محمود سامى » ومن بعده بنت سميت « فاطمة البارودية » . ولو أردنا أن نطبق قاعدة النسب حسب قانون الحياة لوجدنا أن شاعرنا محمود سامى قد اكتسب لقب البارودى من أمه وليس من أبيه .

اشترك الضابط حسن حسنى مع جيش مصر الفاتح فى المعارك التى دارت على أرض سوريا ضد الجيش العثمانى وقاد فرقته ضمن المدفعية المصرية التى ساعدت فى تحرير سوريا من الاستعمار التركى ، واشتركت فى رفع البنود والأعلام المصرية خفاقة على ربا الأناضول ، واحتلت قونية وكوتاهية على مسافة خمسين فرسخا من أسوار القسطنطينية وأفزعت طلقات مدافعها سلطان تركيا فى قصر يلدز فاستنجد بالدول الأوربية الكبرى لتوقف الزحف المصرى قبل أن يدك العاصمة التركية .

---

(١) مقدمة الديوان شرح الامام ومذكرات الأسرة .

(٢) توفيت عام ١٨٨٢ وقال البارودى فى قصيدة رثائها ان سنها بلغ ٩٠ عاما انظر من ١٣١ — ١٣٢ من الكتاب فيكون مولدها عام ١٧٩٢ ومولد حسن حسنى عام ١٨١٠ .

اليتيم الصغير :

وأجبرت الدول الكبرى محمد على أن يخضع لشروط التسوية التى أملاها مؤتمرهم فى لندن عام ١٨٤٠ (١) وصدر بذلك فرمان الباب العالى فى ١٣ فبراير ١٨٤١ واشترط البند التاسع من الفرمان أن يخفض الجيش المصرى الى ١٨ ألف جندى بعد أن وصل تعداده عام ١٨٣٩ الى ٢٧٦ر٦١٦ (٢) جنديا ، وكانت قوة الجيش المصرى الضاربة ، والروح الحربية الكامنة فى جنوده ، ومهارتهم العسكرية التى أثبتوها فى مجال الحركة وميدان القتال ، تمثل اكبر الخطر على سلطان تركيا وعلى مصالح الدول الكبرى فى الشرق كله ، ومن ثم كان اضعاف هذا الجيش هدفا من أهداف التسوية الدولية التى فرضت على محمد على .. فسرح الجنود والضباط ووزع فريقا منهم على المناصب الادارية والمدنية فى البلاد . وعين اللواء «حسن حسنى البارودى» مديرا لبربر ودنقلة بالسودان(٣) ، ولم يرتح المدير الجديد لهذا المنصب فقد أحس فيه عدم الرضى من « ولى النعم » والرغبة فى التخلص منه (٤) ولكنه لم يكن يملك الا الطاعة وشكر الوالى على منته وفضله !!

وسـافر حسن حسنى وحده على كره منه ، وترك ولده « محمود سامى » ولما يبلغ السابعة من عمره ، وودع أهله ونفسه تحدثه بأنه الوداع الأخير ، وما ان وصل الى السودان حتى صدق احساسه ، وتحقق ما كان يخشاه فقد أصيب بالحمى بعد اربعين يوما من تسلمه عمله الجديد (٥) ، ولم تجد قوته ولا شبابه

---

(١) اشترك فى المؤتمر انجلترا والروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا .
(٢) تفصيلات احصاء الجيش المصرى فى عهد محمد على أنظر الرافعى .
(٣) مقدمة الديوان شرح الامام .
(٤) معلومات الأسرة .
(٥) مذكرات الأسرة .

فى مقاومة المرض القاتل فقضى نحبه ودفن فى دنقلة (١) غريب الأهل والدار ! !

قضى حسن حسنى البارودى وخلف طفله « محمود سامى » فى السابعة من عمره تتفتح مداركه على حسرة اليتم وألم الحرمان من عطف الأبوة ، ويحفر الحادث فى قلب الصبى الصغير ذكراه بحروف من الأسى والحزن ، فقد مضى أبوه عنه وتركه أعزل دون حماية من طمع البشرية ونوب الأيام وعرضه موت أبيه لتجربة مبكرة بالحياة والناس وما فيهما من شرور ، وهى تجربة ظلت آثارها السيئة تعيش فى نفس الصبى حتى كبر ، وينفعل بها فيرددها فى شعره ، ولم تزدها الأيام وأحداثها الا تأكيدا ، ففقد الثقة فى الأصدقاء وظل يبحث عن الخل الوفى مع العنقاء . ويذكر البارودى موت أبيه ويستعيد الصورة الحزينة التى طبعها الحادث فى قلبه بعد ثلاث عشرة سنة فيجدها حية مكللة بالأسى فى ذكراه فيقول :

مات الذى ترهب الأقران صولته
ويتقى بأسه الضرغامة العادى
مضى وخلفنى فى سن سابعة
لا يرهب الخصم ابراقى وارعادى
اذا تلفت لم ألمح أخا ثقة
يأوى الى ولا يسعى لانجادى

التربية والنشأة :

قدرت الأم بعد وفاة زوجها بالسودان المسئولية التى ألقاها القدر على عاتقها ، فحملت الأمانة بشجاعة دون اشفاق أو تردد ، وكأنها ألهمت باحساس الألم المشفوع بروح التعقل وتقدم السن ،

(١) توفى وسنه ٣٦ عاما وكان قويا ضخم الجسم ممتلئا ، أنظر مقدمة مراثى الشعراء جمع خليل مطران .

ان الصبي الذى فى كفالتها تنتظره الأيام لتصنع منه زعيما يقوم بدور وطنى كبير على مسرح أمته السياسى ، وأديبا يقود نهضة فى شعرها الحديث ، فنذرت نفسها لرعايته ، ولم تشغل شأن النساء بصدمة الترمل . بل عكفت على اعداد ولدها لمستقبل ينتظره ، فخططت لتربيته وتعليمه وتنشئته فما ان بلغ الثامنة من عمره حتى استقدمت الى دارها معلمين خصوصيين يقومون على تأديبه فى سنواته الأولى وتعليمه دروس المرحلة الابتدائية (١) .

والتعليم الخاص على أيدى معلمين فى المنازل كان سبيل الأسر الكبيرة من ذوى اليسار والنعمة لتعليم أبنائهم فى المرحلة الأولى . ذلك انه لم يكن بالقاهرة وقتذاك (١٨٤٧) من مدارس هذه المرحلة غير مدرسة واحدة هى مدرسة المبتديان (٢) وكان القبول فيها شبه مقصور على مماليك الوالى ومن يختارون من أبناء الفقراء الذين يعتبرهم ديوان المدارس من يوم دخولهم المدرسة غلمانا لولى النعم (٣) . وكان قد أصاب التعليم ما أصاب مرافق الدولة ومشروعاتها الحيوية من جمود وانتكاس ، وزحف عليه المد الرجعى أثر فرمان ١٨٤١ فقوض أركانه وأغلق معاهده حتى وصل به الى حد التخلف ، ولم يدع من مظاهر النشاط التعليمى السابق غير معاهد قليلة تعد من يحتاجهم الوالى فى ادارة شئون الولاية .

أما التعليم فى المدارس الحربية فقد كان لأولاد الجراكسة والأتراك ومماليك الوالى وحدهم ، وهو التعليم الذى لا يحترمون سواه ويرونه طريقهم الطبيعى الى المناصب الكبرى فى الدولة ،

---

(١) مقدمة مراثى الشعراء جمع خليل مطران ص ٧ ، مقدمة ديوان البارودى شرح الامام .

(٢) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على (١٩٣٨) ص ١٣٢ ، ٢١٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٦ .

يهبهم مظاهر السيادة ، ويتحكمون به في مراكز القوة للبلاد ولذلك لم يصبه ما أصاب التعليم المدنى من جمود واضمحلال وبقيت المدارس الحربية فى عهد محمد على تستقبل أولاد الطبقة الحاكمة من الترك والجركس . . وكان التعليم الحربى مرحلتين : التجهيزية الحربية والخصوصية الحربية (العالية) أما المرحلة التجهيزية ـ وهي فى مستوى المرحلة الثانوية ـ فقد كانت تعـــد الطلاب للمدارس العليا (الخصوصية) وكانت تستمد تلاميذها من خريجى مدرسة المبتديان بالقاهرة ومكاتب المبتديان بالأقاليم أو ممن أتموا الدراسة الابتدائية ، ويختار العدد المطلوب ممن يجتازون امتحان القبول الذى يعقد للمتقدمين اليها .

ومن الطبيعى أن يعد التلميذ محمود سامى البارودى لهذا اللون من التعليم شأن أقرانه من أبناء الجراكسة ، وكان لزاما عليه أن يدرس على يد مدرسيه الخصوصيين مواد الدراسة الابتدائية حتى يجتاز امتحان القبول للمدرسة التجهيزية الحربية ومنهج الدراسة فى « مدارس المبتديان » وقتذاك موزع « بقانون نامة » المرتب من طرف شورى المدارس على فرقها الثلاث كما يلى :

الفرقة الثالثة (فرقة المبتدئين) الهجاء ـ حفظ ربع القرآن الكريم ـ قصص الأطفال .

الفرقة الثانية (الفرقة المتوسطة) القرآن الكريم ختم واعادة، والأجرومية (النحو والصرف) وشرحها ، والسنوسية (فى التوحيد) وشرحها ، والجغرافيا (قراءة) والأطالس وكتاب الأخلاق ، وكتاب التوحيد (علم الحال) ، والحساب والهندسة ، والتمرين على خط الرقعة .

الفرقة الأولى (النهائية) ـ الكفراوى وشرحه والترجمة للوطنيين (كذا) ، والصرف والنحو للأتراك والغلمان الترك ، والخط الثلث والرقعة ، وكتاب علم الحساب (المطبوع حديثا)

قراءة كتاب علم الأخلاق وتضاف اللغة التركية فى جميع السنوات للأتراك والجركس (١) .

درس البارودى هذا المنهج فى سنوات أربعة ١٢٦٣-١٢٦٧(٢)هـ (١٨٤٧ -١٨٥١) عالج فيها كتب النحو والصرف والتوحيد والأخلاق وحفظ القرآن الكريم وكانت دراسته على نمط الدراسة فى مكاتب المبتديان « وهى دراسة مستمدة من الأزهر ومقلدة له » مادة وطريقة ومعلمين . ولقد تأثر البارودى كما تأثر تلاميذ المدارس الحديثة فى عصر محمد على بهذه المحاكاة . ولذلك فقد كان تأثير الأزهر فى رواد النهضة قويا واضحا . لأن الحكومة حين انشأت مكاتبها لم تجد أمامها من كتب غير الكتب الأزهرية ولم تجد معلمين غير المتعلمين فى الأزهر فكان طبيعيا أن تعتمد عليهما فى مدارسها (٢) .

كان محمود سامى يتلقى دروسه على يد مدرسيه الخصوصيين بينا يتلقى فى نفس الوقت اعدادا من نوع آخر على يد مدرسته الأولى التى وهبت حياتها من أجله . أمه ، فمنذ بدأت آفاق التفكير تتفتح عنده ، وتتسع مداركه وتسفر عن تقبله للمعرفة شرعت تعده اعدادا نفسيا وروحيا ليحتل المكانة التى تؤهله لميراثه من السيادة والعزة والمجد التليد ، فأخذت تشحن عواطفه ، وتعبىء روحه بالقيم والمعايير التى تؤهله فى نظرها لمستقبل يصل به الى طريق المجد (٣) .. طريق آبائه من قبله . فتحت له صفحات من تاريخ قومه الذين تسنوا ذروة الفخار ، وحدثته عن أجداده الذين بلغوا الغاية من العلا والسيادة ، وما يكاد يفرغ التلميذ الصغير محمود سامى كل يوم من دروسه حتى يهرع الى أمه يطلب اليها المزيد من قصص الذين ساروا على دروب المجد من

(١) انظر أحمد عزت عبد الكريم تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ١٧٤ .
(٢) جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث جـ ٢ ص ١٨٢ .
(٣) مقدمة مرائى الشعراء ، مقدمة الديوان شرح الامام .

أهله فتضرب له على أوتار عواطفه أنغاما من عزة آبائه ، وتقص عليه طرفا من بطولاتهم فتملأ عطفيه طموحا وتهز قلبه اعجابا ، وتذكي في نفسه التطلع الى السؤدد ، وتربط مجده بمجدهم ، وتسجل مصورة ذاكرته اللاقطة أحاديث الأم ، وتختزن نفسه انفعالاتها لتكون رصيدا ضخما له في مستقبل حياته حين تخرج على أسلة لسانه شعرا يضعه في فم الدنيا يتيه على الناس فخارا بآبائه .

من النفر الغر الذين سيوفهم
لها في حواشي كل داجية فجر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه
تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

حدثته عن اشتراك جده على أغا البارودى فى حرب جيش الاحتلال الفرنسى مع المماليك فى الصعيد ، وكان خبيرا بصناعة البارود (١) ، وقد اهتدت استخبارات الجيش الفرنسى الى معرفته فصادرت داره واستولى الفرنسيون عليها ليتخذوها مقرا لديوان « الفردة » (٢) — الضرائب — واضطرت الاسرة الى الانتقال الى دار أخرى لها بجزيرة الروضة (٣) .

وقصت أم البارودى عليه قصة مقتل جده على أغا البارودى وقد غدر به محمد على مع من غدر بهم من أمراء المماليك فى مذبحة القلعة المشهورة بعد أن تعهد لهم بالسلام والأمان ، وتنفعل نفس الصبى بما حدثته أمه عن جده على ، فى حربه الفرنسيين ويوم مقتله ، وتظل عواطفه تموج بهذه القوة الوجدانية نحوه حتى يرتفع

---

(١) مذكرات الأسرة .

(٢) أنظر على مبارك : الخطط التوفيقية لمصر القاهرة (١٣٠٦ هـ) ج ٣ ص ٥١ .

(٣) مذكرات الأسرة .

به خياله فيصله بالثريا ، وحين استطاع التعبير فيما بعد قال فيه من قصيدة يفخر فيها بأهله :

وســـــما جـــــــدى على
يطلب النجـــــم فنـــــاله

فهـــــو لى ارث كـــــريم
ســـــوف يبقى فى الســـــلاله

ويقف محمود سامى طويلا أمام اللوحات الرخامية التى زينت بها حجرات الطابق العلوى من الدار وقد نقشت عليها بالحفر المطلى بالذهب قصائد نظمها خاله ابراهيم (١) فيقرأها ولا يمل قراءتها ، ويطلب من أمه المزيد من أخبار خاله الشاعر ، فتحدثه عن الموهوب الذى ذهب فى ريعان الشباب ، وعن حياته القصيرة التى قضى أكثرها وهو عاكف يقرأ دواوين الشعراء من العـــرب والأتراك ، وعن القصيد الذى كان ينساب على لسانه ، والندوات الأدبية التى كان يعقدها فى الدار مع الشعراء والأدباء ، ولكن القدر لم يمهله حتى يشتد عوده وتثبت قدمه فى دولة الشعر فيخلد مع الشعراء ، بل تخطفه الموت فجأة (٢) ، ولم يترك من ذكراه الا دواوين الشعراء التى كان يعيش معها وفى صحبتها ، وقصائد من نظمه قامت أمه الثكلى بنقشها على اللوحات الرخامية المذهبة، وزينت بها حجرات طابقه العلوى من الدار أثرا له وذكرى (٣) .

ويشعر محمود سامى بقوة خفية تشده الى خاله ابراهيم البارودى وتربطه به ، ويحس بأن بينهما شبها كبيرا ، فهو نفسه يحب قراءة الشعر ولا يمل إقراءته ، ويحفظ ولا يرهقه حفظه ،

(١) كانت اثنتين وثلاثين لوحة ضـــاعت كلها عقب محاولة الاستيلاء على الدار بعد نفى البارودى ولم يبق منها غير لوحتين اهدتهما الأسرة الى متحف الآثار العربية ثم اكتشف ضياعهما بعد مدة (مذكرات الأسرة الخاصة) .

(٢) مات وسنه ٢٥ عاما .

(٣) مذكرات الأسرة ومعلوماتها .

بل يجد لذلك فى نفسه طلاوة ، ويحس للشعر فى فمه حلاوة ، وهو يحاول أن يقلد قصائد خاله ابراهيم فيفلح مرة ويخفق مرات . ويعرف البارودى فيما بعد سر القوة الخفية والرباط المتين الذى شده الى خاله بعد أن اكتشف نفسه وشاعريته ، فاعترف له بفضل السبق وبالأصالة فى الشعر والشهرة فى القصيد، وجعل الشعر نسبا متصلا بينهما ، وميراثا امتد اليه منه فقال فى القصيدة التى يفخر فيها بنفسه وبأهله :

أنا فى الشعر عريق ... لم أرثه عن كلاله (١)

كان ابراهيم خالى ... فيه مشهور المقاله

ومن الطبيعى أن يسأل الفتى عن مكان أبيه بين هؤلاء وقد كان له خير الآباء وأعظمهم ، يملأ عليه دنياه ، ويشغل حياته ووجدانه ، وينشر عليه الحماية والرعاية ويحس وهو الى جواره بالاطمئنان ، فاذا به يذهب ولا يعود ، ويتركه وحيدا لأحداث الزمن ونوب الأيام ، وتقص عليه أمه قصة أبيه حسن حسنى وقد نشأ يتيما بعد أن قتل أبوه عبد الله الجركسى الألفى فى مذبحة القلعة ، ثم اختير مع خمسمائة من أترابه ليدخلوا المدرسة الحربية التجهيزية بقصر العينى أول انشائها (١٨٢٥) . وأخبرته عن أبيه القائد وشجاعته التى كانت ترهبها الأقران ، وعن المعارك التى خاضها فى سوريا والأناضول ، وينفذ الحديث الى شغاف القلب من الفتى الجركسى الناشىء ، ويختزن فى نفسه الميراث المتصل اليه من الفروسية وحب الحروب حتى يجد فيما بعد متنفسا له فى شعره فيغنى على قيثارة الفخر بأبيه وأجداده .

وترقب الأم بعين يقظة ساهرة أثر تعبئتها النفسية فى فتاها محور حياتها ، وقد خشيت أن يسلك طريق خاله ابراهيم

---

(١) الكلالة : النسب البعيد .

فيشغله حبه لدواوين الشعر عن المستقبل الذى ينتظره ، أو تلهبه القصائد المنظومة عن الجندية سبيله واقرانه من أبناء الجراكسة « لينهضوا بالمناصب الرئيسية فى الدولة » ، غير أنها تجد فى وحيدها حين تحدثه عن أبيه ، الفارس الصغير الذى يتعجل الزمن ، ويتلهف على اليوم الذى يبلغ فيه السن ليلحق بشأو البطل الذى ذهب فيصبح امتدادا لبطولته ويسير على نفس طريقه فينتظم فى الجيش ضابطا وقائدا مثله ، يخوض المعارك ويحرز الانتصارات ويحق له أن يقول :

تبعت نهج أبى فضلا ومحمية
حتى برعت وكان الفضل للبادى

وحين تحدثه عن خاله تجد فيه القارىء النهم الذى يود لو استظهر شعر العرب والترك جميعا ، ويتمنى لو أنه شدا كخاله فعلم الحمام الأغانيا ، وهدأت الأم نفسا ، واطمأنت بالا ، وعرفت أنها أدت الرسالة كاملة ، وخامرها احساس غريب حبيب كان لها فيه بعض العوض ، والعزاء ، وانتابها شعور غامر بالرضى والسعادة أزاح عن قلبها أكثر الحزن الذى يعتصرها والألم الذى تعانيه منذ فقدت أخاها الوحيد ومن بعده زوجها الحبيب . وكأن الغائبين عادا اليها وبعثا من جديد ، فقد وجدتهما معا فى ولدها محمود . ففى جانب منه ترى صورة أبيه الفارس وفى الجانب الآخر ترى صورة خاله الفنان الشاعر .

فى المدرسة الحربية (١٨٥١ ـ ١٨٥٥) :

بعد أن أتم محمود سامى دراسته الابتدائية عام ١٢٦٧ هـ (١٨٥١) وقد بلغ الثانية عشرة من عمره وأصبح مؤهلا لدخول المدارس الحربية ، كان « عباس الأول » (١) قد أمضى فى حكم

(١) ابن طوسون بن محمد على حكم من ١٨٤٨ الى ١٨٥٤ .

مصر قرابة عامين قضى فيهما بحمقه وضيق أفقه وتعصبه الأعمى لتركيته على الذبالة المضيئة الباقية من معاهد التعليم ، وهـــدم المقومات الاقتصادية للبـــلاد ، وبلغ المد الرجعي في عهده غايته ومنتهاه . وأراد أن يقضي على الروح القومية والمصرية التي أخذ يسري شعاع منها في قلوب متعلمي الرعيل الأول من أبناء البلاد ، فقصر الوظائف على الأتراك والأرناءود ومن يعرف التركية ويشبه الأتراك من المصريين ، وجعل التركية لغة التدريس والحديث بين تلاميذ المدارس .

وكان عصره امتدادا « للنكسة » الفكرية والثقافية وســار بها الى آخر طريق الظلام ، فأعلن الحرب علي معاهد التعليم وألغى ما لم يتعطل منها في عهد جده ليحرم الشعب من نور المعرفة ، ولم يبق منها الا ما يكفي لتخريج العدد الكافي من المهنـــدسين لبناء قصوره ، ومن الأطباء لرعايته وكلابه وجياده وفرقة حرسه من الأرناءود ، ولم يكن ذلك غريبا من عباس « فقد كان يكره العلم والمتعلمين ، ولم يكتف بغلق المدارس بل أنفذ الى الســودان طائفة من كبار علماء مصر في عهده (١) .

بعد أن أغلق عباس المدارس الحربية من تجهيزية وخصوصية (عالية) أقام على أنقاضها مدرسة جديدة سماها « المدرســة الحربيـــة المفروزة (٢) » ، وعهـــد عباس أول انشاء المدرسة الى علي مبارك بتعيين معلمي المفروزة ، وترتيب دروسها ، واختيار ما يلزم لها من الكتب ، لأجل الحصول على المقصود واكتساب رضا ولي النعم الآصفي (٣) . ونجد اثر علي مبارك واضحا قويا في

---

(١) من بينهم رفاعة الطهطاوي ومحمد بيومي ودقله افندي أنظر عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل ج ١ ص ١٦ .

(٢) انشئت عام ١٨٤٩ .

(٣) أحمد عزت عبـــد الكريم في تاريخ التعليم في مصر : عهـــد عباس سعيد ص ٧١ .

منهج الدراسة الذى تقرر على طلاب المدرسة رغم الصبغة العسكرية التى تميزت «بها المفروزة» والنظام الحربى الذى خضعت له فى خياتها الدراسية والمعيشية « فقد كان طلبتها الى جانب الفنون الحربية ـ يقرأون الكتب التى يقرؤها طلبة المدارس المدنية كجملة الصرف والكفراوى وانشاء العطار وكتب الهندسة والحساب والرسم واللغتين التركية والفارسية (١) .

التحق البارودى بالمرحلة التجهيزية من « المدرسة الحربية المفروزة » عام ١٢٦٧ (٢) (١٨٥١) ، وانتظم فى سلك طلابها يتعلم فنون الحرب ويقرأ معهم القرآن الكريم وكتاب جملة الصرف وشرح الكفراوى ، وانشاء العطار ، وكتب الهندسة والحساب والجبر ، ويتعلم الرسم واللغة التركية والفارسية . ولم يجد البارودى صعوبة فى قراءة الكتب المقررة ، ولم تمثل مناهج الدراسة العربية أو التركية مشكلة لديه ، فقد قرأ أكثرها من قبل فى دراسته الخاصة لمنهج المرحلة الابتدائية على عهد محمد على استعدادا لامتحان القبول بالمدارس الحربية (٣) ، ونعم البارودى بالدراسة فى « المدرسة المفروزة » وسعد بالالتحاق بها وقد حققت له آماله فى أن يسير على نهج أبيه ليخرج منها ضابطا فارسا مثله ، وأرضيت « المفروزة » رغبة ملحة فى نفس الفارس الصغير ، ذلك أن سهولة

---

(١) تاريخ التعليم فى مصر جـ ١ ص ٧٥ ، انظر الجدول الدراسى كاملا كما هو منقول من جداول الامتحانات بدفاتر ديوان الجهادية فى تاريخ التعليم فى مصر جـ ١ ص ٢٠٢ ، ٢١٨ .

(٢) مراثى الشعراء ص ٧ ، مقدمة الديوان شرح الامام .

(٣) كان الامتحان فى القرآن الكريم وفى قراءة كتب شرح الكفراوى ومتن الأجرومية (نحو) ومتن البناء والمقصود (صرف) ، وعلم الأخلاق ، والسنوسية وعلم الحال (توحيد) ، علم الحساب والخط الثلث واللغة التركية للأتراك وغلمان الاتراك .

أكثر المواد الدراسية بالنسبة له زودته بفراغ من الوقت يستجيب فيه لربة الشعر التى يضغط الهامها على عواطفه ووجدانه ، ويسمع لقيثارتها نغما دائما فى آذانه فينطلق لسانه ، ويجرب موهبته ، ويحاول الانشاد لنفسه ولا يجد من يسمع له ، فلداته وأقرانه من حوله فى المدرسة عجم أو أشبه بالأعاجم ، لا يفهمون ما يلهج به لسانه ، يتعالون بتركيتهم أو أرستقراطيتهم الجركسية وينظرون الى من يتكلم العربية من الأتراك والجركس نظرة استنكار وسخرية « لأنه يتعاطى لغة الفلاحين العرب (١) » .

وتدفع سنوات الدراسة الأربعة بالتلميذ « محمود سامى » الى السنة النهائية من المرحلة التجهيزية الحربية ، وقد وصل فيها الى رتبة « باشجاويش » (٢) وتسلمه الأيام الى أحضان الشباب وقد بلغ ستة عشر ربيعا ونفسه مفعمة بالطموح والأمل وهو على الطريق الى القسم العالى من المدرسة الحربية ليخرج ضابطا وقائدا ، ولكن رياحا تهب فتغير من اتجاه الطريق الذى رسمته الآمال ، فما أن يتخرج محمود سامى أواخر عام ١٢٧١ (٣) (يوليو ١٨٥٥) من المدرسة حتى يصدر سعيد والى مصر ـ وكان قد بدأ عهده ـ أمرا بالغائها (٤) وأطفأ برجعيته كل ضوء ينبعث منه شعاع من علم ، فقد كان يعتقد أن تعلم الناس يجعل حكمهم عسيرا ويمكنهم من نقد تصرفاته ، ويطالبونه بحقوقهم ، ولذلك فقد حل « ديوان المدارس » وألغى ما بقى من معاهد التعليم « وباع أثاثها وأبنيتها وأدواتها ومعاملها ومكاتبها

---

(١) البارودى رائد الشعر الحديث : شوقى ضيف (القاهرة ١٩٦٤) ص ٤٨ .

(٢) مراثى الشعراء ص ٧ ، مقدمة الديوان شرح الامام .

(٣) المصدر السابق .

(٤) كتاب تاريخ التعليم فى مصر جـ ١ ص ١٨٦ .

ومطابعها بأبخس الأثمان حتى يقضى على كل أمل فى عودتها (١) » .
وخرج محمود سامى من « المدرسة المفروزة » ليجد سبيل اتمام الدراسة الحربية أو الالتحاق بخدمة الجيش قد سدت منافذها دونه ، بعد أن أصبح التعليم والجيش والدولة ملهاة يتسلى بها سعيد ، « فما كان على رأى ثابت فى بقاء الجيش ولا فى المدارس العسكرية ومحلات التعليم ، بل كان كل يوم فى تغيير وتبديل وانشاء ، ونقض وابرام والغاء ، وكان على الدوام مشتغلا بلغو الجيش وانشائه (٢) » ، وتقف دراسة البارودى المعهدية بعد « مدرسة المفروزة » ، ويختم حياته المدرسية بشهادة التجهيزية الحربية وبلقب « باشجاويش » فى الجيش السلطانى . أما رصيده من الثقافة المدرسية فهو حفظ القرآن الكريم (ختم واعادة) وقراءة متن الأجرومية وشرحها ، وشرح الكفراوى ، وجملة الصرف، وانشاء العطار ، وكتاب علم الأخلاق ، وكتاب السنوسية وعلم الحال فى التوحيد الى جانب الجغرافيا والأطالس والحساب والجبر والهندسة واللغتين التركية والفارسية (٣) .

ومن هنا نتبين أن ما ذهب اليه حسين المرصفى فى كتابه « الوسيلة الأدبية » لا يمثل الواقع حين يقول : « هذا الأمير الجليل ذو الشرف الأصيل والطبع البالغ نقاؤه ، والذهن المتناهى ذكاؤه محمود سامى باشا البارودى لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا الى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسب ما تقتضيه

---

(١) محمود فهمى : البحر الزاخر فى تاريخ الأوائل والأواخر (١٣١٢ هـ) ج ١ ص ١٩٨ .

(٢) البحر الزاخر ج ١ ص ١٩٨ .

(٣) أنظر مناهج الدراسة فى المرحلة الابتدائية فى عهد محمد على والمرحلة التجهيزية الحربية فى المدرسة المفروزة ص ١٥ ، ٣٢ من الكتاب .

المعانى والتعلقات المختلفة فصار يقرأ ولا يكاد يلحن »(١) ، وقد تبع المرصفى فى هذه الدعوى جميع الذين كتبوا من بعده عن البارودى .

مرحلة الاعداد والتكوين :

يستقبل البارودى الحياة الجديدة فيجد الآمال العريضة قد أصبحت فراغا ، وميادين القتال قد أقفرت من الأبطال ، وألوية النصر وبنوده قد طويت ، ويجد البارودى نفسه - وفيها أعراق الامارة والمجد - تمور بما فيها من آلام الأمل المحطم ، وتثور لما أصابها فى عزتها الجريحة وقد أرغمت على حياة التعطل والفراغ ، وهى ترى طريقها غير هذا الطريق ، ولكن الأسباب وان قصرت عن تحقيق أمانى البارودى العراض فانها قد مدت له فى شىء آخر تستمتع به روحه وترضى به نفسه ، وجده فى مكتبة خاله ابراهيم وهو يقرأ كتب التاريخ ودواوين الشعراء . وكانت المطابع قد أخذت تعنى بنشر التراث العربى من موسوعات الأدب ودواوين الفحول من الشعراء وكتب التاريخ والأدب ، واقتنى البارودى نفائس الثقافة العربية التى ما تزال مخطوطة ، فكانت الفرصة للثقافة الذاتية والاطلاع الخاص .

شغف البارودى بقراءة التاريخ والشعر ، فقد وجد فى كتب سيرة آبائه وأجداده ، وقرأ بقية القصة التى لم تتمها له أمه وتركتها ليستكملها بنفسه . وتظهر له فى الأفق القريب صور آبائه الأقربين وقد انتهت اليهم رئاسة مصر ومشيختها ثم تتراءى له فى الأفق البعيد صور السابقين من أجداده وقد حازوا المجد فرسانا تحت ألوية النصر الحمراء ، يرمون بالصليبيين الى البحر ، ويحمون بشجاعتهم الشرق العربى من زحف التتار والمغول المدمر ، ويهزمونهم

(١) حسين المرصفى : الوسيلة الأدبية للعلوم العربية (القاهرة ١٢٩٢ - ١٢٩٦ هـ) جـ ٢ ص ٤٧٤ .

فى « عين جالوت » ، ويركزون أعلام مصر على ربوع الشام وجزر البحر المتوسط :

من كل أزهـــر كالدينـــار غرته
يجلو الكريهة منـــه كوكب ضرم (١)
ماتوا كراما وأبقـــوا للعـــلا أثرا
نالت به شرف الخـــرية الأمـــم (٢)

ويتيه الشاب فخرا وتتثنى أعطافه زهوا بأجداده ، ويحن اليهم ويود لو أنه نعم بمشاركتهم حياتهم تلك التى لا يرى غيرها حياة ، ويطير اليهم على جناح التمنى ، والمنى غصة وألم حين تقصر عنـــه السبل ، ويكون الطريق اليه مظلما عبوسا . ويجد الفارس المعطل العوض والعزاء حين يهتدى بفطرة الشاعر الفارس الى شـــعر الفرسان يقرؤه ويعيش معهم فيما يقرأ ، فيطوون الزمن ويحملونه بخيالاتهم وتصويرهم — على بعد ما بينه وبينهم — الى معاركهم فيسمع قعقعة السلاح ووقع الأسل ، ويشترك بوجدانه فى مواقعهم ، ويحتفل معهم بالنصر ويذوق ألم الهزيمة ، وتهز حماسياتهم روحه ، وتلهب عواطفه وتتملك عليه قلبه ، وتسير بخياله على دروب المجد والبطولة التى سار عليها آباؤه بما صورت من معارك وبما حققت من بطولات .

استهوى البارودى هذا اللون من الشعر ، ووجد فيه نفسه الحائرة ، وألفى معانيه تفصل من ذاته ، وتصدر من بين جنباته ، وتعبر عن الحياة التى يهواها ويريد أن يحياها ، فتوة تعيش مع الحب والجمال والطرد والشراب ، وحكمة تتسرب الى حنايا قلبه وعقله . واندفع الشاب ينهل من هذا المعين محولا الى قلبه وروحه هذا السيل الغزير من العواطف والصور ، فتختزن مخيلته المصورة

---

(١) كوكب ضرم : مشتعل متوهج .

(٢) هذان البيتان لم يسبق نشرهما .

وذاكرته اللاقطة كل ما استهواه من أشعار البطولة والحماسة ، ويتأثر مزاجه وقلبه وخياله بذلك كله وينفعل له ، ويحفظ من شعرهم ما يوافق ذوقه وميوله فيلهج لسانه بما يقرأ وبما يحفظ ، ويحاكى بعد ما يختزن ، ويغنى بعد ما يتأثر ، ويفيق تارة فيزهو بنفسه اعجابا ، وتهجره ربة الشعر أخرى فيتعثر لسانه ومن كل ذلك يتعلم ، ولكن زهوه بنفسه وكبرياءه يمنعانه من أن يتحدث عن الفشل أو عن التجربة فى أول مراحلها ، فيستبقيها لنفسه حتى تنضج القريحة وترشد ، ويسلس له قياد الشعر وتنقاد له القوافى، وحتى يجد نفسه فى مستوى هؤلاء الذين يقرأ لهم . ويقبل على القراءة والحفظ فتزداد ملكة الشعر منه قربا ، وتظل به حتى تتملك عليه نفسه ، وتملأ عليه وجدانه ، وتأخذ عليه كل طريق فيستجيب لها وينشد ما توحى به اليه ، ويتغنى بما تلهمه ، ويفيض النبع ويسيل النور ، ويتجاوب الشاعر الناشىء ويدرك من غير وعى أن هذا بابه وفنه ، وفى طبعه رصيد ضخم من هذا الفن وموهبة شعرية أصيلة وملكة شاعرة نابغة .

ومن حسن حظ الأدب والشعر أن البارودى قد استهواه شعر الأقدمين ، واتخذ منه المثل الذى يسير على نهجه ، ولم يلتفت — فى فترة تكوينه — الى شعر المحدثين من الشعراء ذلك الذى يمثل فترة الركود والتدهور فى تاريخ الأدب العربى كله . سواء فى الأغراض أو المعانى والأساليب ، أما الأغراض فقد كانت ضيقة تافهة لا تخرج فى جملتها عن المدح أو القول فى المناسبات ، وكانت المعانى معادة مطروقة أو مبتذلة ساقطة ، وأما الأساليب فكانت ثالثة الأثافى متكلفة مثقلة بأغلال من البديع فيها جناس وطباق وازدواج وفيها اشارات ورمز وتورية ومطابقة وحساب الجمل ، وما الى ذلك من محسنات النظم التى كانت أشبه بالزينة الفاضحة والملابس المزركشة لعروس قل حظها من الجمال . ولم تعد للشعراء فى ذلك العصر قدرة على خلق المعانى وابتكار الصور فجنحوا الى التقليد واجتروا معانى

السابقين بالتشطير والتخميس والتضمين وهو تقليد يشهد بالعجز والقصور عن استيعاب المحسوسات والمعانى وقدرة التعبير عنها فى قالب جميل .

لكن البارودى الناشىء كان من طراز غير هؤلاء جميعا ، كان غيرهم بنظرته الى الشعر نفسه ، فهو يقوله سموا بأغراضه عن أن تصاغ الا فى أجمل لفظ وأروع عبارة ، كان غيرهم بتفكيره وبمثله الأعلى فى الشعر وفى الحياة . لم يقله التماسا لعطف حاكم أو عطاء أمير ، وانما تغنى به كما تغنى من سبقه من الأمراء الشعراء الذين خلد الدهر شعرهم وأثبت التاريخ فى أمجد صفحاته أسماءهم ، وقد كان ابن المعتز والشريف الرضى وأبو فراس وامرؤ القيس من قبله شعراء . قرأ شعرهم جميعا فطرب واهتز وتمثل ثم احتذى وغنى كما غنوا ، ليخلق من خيال الشعر ميادين لمجد يعوضه ما فات سيفه فى ميادين القتال بعد أن ردت الأقدار سيوف مصر الى أغمادها، كان غيرهم لأنه لم يتعلم العروض والقوافى ليقول الشعر وانما تغنى لأن موهبته الشعرية فرضت عليه التعبير عن العواطف والأحاسيس التى تموج فى نفسه ولأن الشعر فى سليقته ، ولابد لابن الأيك أن يترنم ، فجاء بأنغام فى الشعر لم يألفها أهل زمانه ، وسما به الى مكان الفحول من الشعراء الأولين فى الجاهلية والعصور الأولى من الاسلام . وكان الرسول الذى بعثته العناية الالهية لينفخ فى الشعر العربى روحا تنشره من الضعف الذى انطوى عليه القرون الطوال ، وتبعثه من جديد .

وفيض آخر يغمره من اقراءاته فتتسرب ينابيع « العروبة » الى خلايا روحه ووجدانه ، وتتعمق « المصرية » فى حنايا ضلوعه وجنانه، ويتأمل فلا يجد له بلدا سواها ، ويفكر فلا يرى موطنا يستأهله غيرها ، استقبلت أجداده حين جاءوها مهاجرين فرفعتهم الى مكان السيادة ، فمنحوها حياتهم وقدموها فداء فى الدفاع عنها ، ولف جدثهم ثراها ، ومن بعدهم جاء فرأى نور الحياة بين أهلها ، وعرف

الدنيا فى جنباتها ، وهو اليوم يرفل فى الثراء والغنى الذى تقدمه اليه ، ويجد نفسه لصيقا بها يرتبط بأرضها وبأهلها ارتباط مصير ويختلط حبها بلحمه ودمه ، وعواطفه وشعوره ، ويلهج بهذا الحب ما عاش فى شعره ويهتف به طوال حياته من مثل قوله :

سل مصر عنى ان جهلت مكانتى
تخبرك عن شرف وعز أقدم
بلد نشأت مع النبات بأرضها
ولثمت ثغر غديرها المتبسم
فنسيمها روحى ومعدن تربها
جسمى وكوثر نيلها محيا دمى
فاذا نطقت فبالثناء على الذى
أولته من فضل على وأنعم
أهلى بها وأحبتى وكفى بهم
فخرا ملكت به عنان الأنجم
هى جنة الحسن التى زهراتها
حور المها وهزار أيكتها فمى (١)

ويتلفت البارودى الشاب حوله فيجد مصره الحبيبة وهى راكعة فى حمأة الرجعية ، مرغمة على التخلف بأرادة واليها سعيد ، واذا كان المد الرجعى قد بلغ غايته فى عهد عباس ، فان التخلف والظلام قد ضربا بجرانهما على الوطن فى عهد سعيد ، ينشىء الدواوين والمصالح الحكومية ، وقبل أن ينتظم العمل فيها يصدر أوامره بالفائها ، ويتخذ من الجيش تسلية لأهوائه المتقلبة وهدفا لظنونه وأوهامه المضطربة ، وتسيطر عليه بلاهته وضعف رأيه فيصرف معظمه ويسرح أكثره لكى تجد شركة قناة السويس فى المجندين المسرحين ما تريده من المسخرين لحفر القناة (٢) .

---

(١) الهزار : طائر غرد ، هذه الأبيات لم يسبق نشرها أنظر لورد كرومر : مصر الحديثة ص ٢٠ — ٢١ .

(٢) ينج : تاريخ مصر ص ١٩٥ .

وسعيد هو أول من فتح أبواب مصر لطلاب الثروة والمرتزقة المغامرين من الأجانب ، فدخلها « أسوأ عناصر أوروبا والبحر المتوسط »(١) ، ومن ثم كان عهده يمثل « النكسة التى فتحت الباب للتدخل الأجنبى على مصراعيه » .

آفاق جديدة فى الآستانة (١٨٥٧ - ١٨٦٣) :

رأى البارودى حكم سعيد وقد أسلم الوطن الى نكسة أخرى هى نكسة التخلف ، ولم يجد فى جوها الآسن المظلم شعاعا من أمل يصل به الى تحقيق ما تطمح اليه نفسه من خدمة وطنه ، وقد سرح الجيش ، وتغلغل المرتزقة من الأجانب فى اقتصاديات البلاد ، وتملكوا الأراضى ، وتحكموا فى مستقبل الفلاح والأمة بأسرها ، واستولوا على مقاليد الأمور فى البلاد بعد أن كبلها الوالى بالديون ، ولم يعد لابن الوطن منفذ لمستقبل كريم . وضاق البارودى بكل ذلك وهو صاحب النفس المتأججة الثائرة ، والهمة التى لا تعيش فى الركود ولا تطيق التخلف ، ومن ثم فكر فى أمر نفسه وهداه تفكيره الى أن يرحل عن الوطن الى حين حتى تنكشف الغمة التى يعيش فيها الوطن ، ويزول كابوس التخلف الذى يجثم عليه . وشد الرحال الى الآستانة عام ١٨٥٧ (٢) ، وأعانته اجادته للتركية ومعرفته للفارسية على الالتحاق « بقلم كتابة السر بنظارة الخارجية التركية (٣) » .

كان بين عمل البارودى بالخارجية فى الباب العالى وبين اللغات علاقة وثيقة منحته الفرصة ليدعم صلته باللغة التركية - وهى يومئذ ابان نهضتها - فتبحر فيها ، وكان من الطبيعى وهو الشاعر

---

(١) دافيدس لاندز : بنوك وباشوات : ترجمة عبد العظيم انيس (القاهرة ١٩٦٦) ص ٧٧ .

(٢) مذكرات الأسرة الخاصة .

(٣) مرائى الشعراء ص ٨ .

المبتدىء والأديب الناشىء أن تستهويه آدبها وتجتذبه أندية أدبائها فتقوم وشائج العلاقات بينه وبينهم ، يسمع منهم ويختزن ثم تغلب عليه طبيعة الشاعر فيحاكى وينطلق لسانه بشعرهم ونثرهم ، ويجد فى معرفة اللغات متعة لنفسه ، ودفعة فى عمله ، ويرى آفاق ثقافاتها ثروة لفكره وغنى لخياله ، ويحس فى اجادتها انطلاقا من الاقليمية الى عالم أوسع يزيد من خبراته وثقافته ، فيمد آفاقه الى اللغة الفارسية وكان قد تعلم مبادئها فى المدرسة التجهيزية فيأخذ فى اتقانها والاطلاع على آدابها وقراءة شعرها ، « وينظم بها من القصائد ما يستدل شعراء الفرس بأمثاله (١) » . وأغلب الظن أن ما صنعه البارودى من شعر ونثر باللغتين التركية والفارسية لم يكن صادرا عن طبيعته الشاعرة ، بل كان محاكاة دعاه اليها التقليد واثبات المقدرة فى النظم بين الشعراء ، أو لعله تجارب لم ترق الى المستوى الذى ينشده لنفسه فأغفلها من حسابه مع ما أغفل من تجارب الشعر العربى أول عهد الصبا ولم يسجلها ، ومن ثم سقطت من يد الزمن .

وكانت رغبة البارودى الملحة فى القراءة تدفع به دفعا الى مكتبات الأستانة وقد حوت كنوز الثقافة العربية التى اغتصبها الأتراك من مصر والبلاد العربية ابان الفتح العثمانى ، ليجعلوا من عاصمتهم حاضرة الاسلام الثقافية والسياسية معا (٢) . وعاد البارودى الى مصاحبة الفحول من الشعراء العرب يقرأ دواوينهم الجاهلية والأموية والعباسية ، ويستظهر ما يطيب له من روائعها ، ويحاكى ما يوافق ذوقه من قصائدها .

والملاحظة الجديرة بالاهتمام أن البارودى يقيم على ضفاف البسفور نحو سبع سنوات (١٨٥٧ - ١٨٦٣) ولا تترك هذه الاقامة بصماتها على فنه أو تخط فى شعره أثرا قويا نلمسه .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث (١٩٤٨) جـ ١ ص ١١ .

وعلى الطرف الآخر البعيد أمه وأخته وأهله وصحبه ووطنه لا نجد للحنين اليهم ذكرا بين أشعاره في هذه السفرة ، وكأنه لم يعان الاغتراب والنوى عن الأهل والوطن ، وذلك غير مألوف من طبع البارودى أو شاعريته الحسية المصورة ، فهو لم ينأ عن وطنه بعد هذه السفرة الا وشكا وتوجع واستعبر لفراق الأهل والصحب والوطن ، لم يشغل عنهم بحرب ، ولم يوقف عبراته وانينه يأس من العودة اليهم . والبارودى « المصور البارع » الذى رسم لنا بشعره لوحات من كل مكان حل به من كريد وروسيا وكولومبو وكندى بسرنديب ومواطن الصبا فى مصر لم تسجل عدسة الهامه صورة واحدة من سحر الآستانة أو سحر الحياة فيها .

والديوان لا يهدينا — على سبيل القطع — الى شيء قاله الشاعر وهو بالآستانة الا قصيدة واحدة عنون لها بقوله « وقال يمدح اسماعيل خديو مصر » دون أن يعين المناسبة أو المكان ، ومن سياق القصيدة وحده نستدل على أنه نظمها ليستقبل بها الخديو اسماعيل وقد جاء الى الآستانة عقب توليته عرش مصر (فبراير ١٨٦٣) ليقدم للسلطان عبد العزيز فروض الولاء والطاعة . وفى القصيدة يقول بعد أن شبب ومدح اسماعيل :

فلو مصر تدرى أرسلت لك نيلها
ليلقاك فى جنح من الليل قاتم
وجاءت لك الأهرام تسعى تشوقا
الى دار قسطنطين سعى النسائم (١)

وهذان البيتان هما القرينة الوحيدة التى تدل على ان القصيدة قد قيلت فى الآستانة ، وهى قرينة لفظية ، وليس فى بيئة النص

(١) هذان البيتان لم يسبق نشرهما .

ولا جوه العام دلالة أخـــرى تنم عن مكان القصيـــدة وهو الآســـتانة .

ونهتدى على سبيل الظن من ترجمته لحياته التى أعـدها معه الشيخ محمد عبده الى أنه قال قصيدة اخرى بالآســـتانة تلك التى رثى بهـــا أباه ، فقد ذكر أنه « رثاه بها لما ناهـــز العشرين (١) » ، وقـد كان بالآســـتانة فيمـا بين الثامنـة عشرة والرابعة والعشرين من عمره . ومع أن القصيدتين لا تمتان بصلة فنية أو بيئية أو تصويرية الى الآستانة الا أنهما ـ وهما من أول ما سجل من انشـاده ـ تدلان على نضج الشاعر واستواء شاعريته ، وعلى أنه تخطى مرحلة المحاولة والتجربة وأصبح على جادة الطريق مع كبار الشعراء . ومن ثم فهما ليستا أول شعر قاله بل سبقهما غيرهما لم يسجل .

ويمكن تعلل سكوت البارودى فى الآســـتانة بواحـــد من أمـــرين :

أولهما : أنه غنى بالضرورة ، وما كان يستطيع السكوت ولو أراد ، ولكنه غنى لنفسه ، ولم يصدح بشعره على الملأ أو يظهره للناس لأنه فى نظره لم يكن قد جاوز مرحلة التجربة ، أو وصـــل الى ما ينشده من المستوى الذى يريد أن يطاول به الذين يريد أن يتمثل بهم من الشعراء ، ويساند هذا الزعم اعتراف الشاعر نفسه فى قصيدة استقبال اسماعيل بما يدل على التوجس والتردد وعدم الثقة بالنفس حين يقول :

وما الشـــعر من دأبى وما أنا شاعر

ولا عادتى نعت الصوى والمعالم (٢)

---

(١) الديوان شرح الجـــارم جـ ١ ص ٢٠٤ ، والمنـــار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ١٩٠٤/١٢/٢٣ مراثى الشعراء ص ٦ .

(٢) الصوى : جمع صوة الحجر يكون دليـــلا فى الطريق : هذا البيت لم يسبق نشره .

وهو الاعتراف الأول والأخير فى حياة البارودى الشعرية :

وثانى الأمرين : أنه سكت عن الانشاء مضطرا اتقاء الحرج والمعايرة ، وقد كانت الطبقة الحاكمة من الأتراك والجراكسة يعيرون من يكتب بالعربية أو يتكلمها منهم فما بالك بانشاد الشعر والتغنى به !! وحين تحرر فيما بعد من هذا الحرج « كانت الجملة المأثورة التى يشير بها هؤلاء اليه فى معرض التعبير قولهم باللغة التركية ، هم كاتب هم ابن بلد » (١) وقد رد عليهم بقوله :

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت
به عادة الأنسان أن يتكلما

فلا يعتمدنى بالأساءة غافل
فلابد لابن الأيك أن يترنما

وقد غنى بالشعر ملوك وأمراء وفرسان من قبله .

اختارت نظارة الخارجية التركية محمود سامى البارودى ليكون ضمن بعثة الشرف التى ترافق اسماعيل عزيز مصر أثناءمقامه بدار الخلافة (٢) ، وتوسم فيه اسماعيل سداد الرأى ، وأعجب الخديو ببراعته فى الخط والانشاء التركى(٣) فقربه اليه ، مما جعل البارودى يلهج بالثناء عليه ، فقدم نفسه اليه شاعرا مصريا من رعاياه ، وأهدىاليه قصيدة جعلته خيرالملوك وهو فىدار الخلافة . ولعبت القصيدة على أوتار الغرور فى اسماعيل ، وازداد بصاحبها اعجابا ، ووجد فيه كسبا لديوانه فألحقه بحاشيته لينتفع بخبرته وثقافته التركية وعاد به الى القاهرة فى فبراير ١٨٦٣ (٤) . « وعينه معينا لأحمد خيرى (باشا) على ادارة المكاتبات بين مصر والآستانة العلية (٥) » .

---

(١) عمر الدسوقى : محمود سامى البارودى (١٩٥٨) ص ٢٣ .

(٢) مذكرات الأسرة الخاصة .

(٣) الجوائب المصرية . عدد ٥٧٢ فى ١٩٠٤/١٢/١٥ .

(٤) مقدمة الديوان شرح الامام .

(٥) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٩٠٤/١٢/١٥ .

بين الحاشية وطريق الأمل :

عاد البارودى الى الأهل والوطن شخصا آخر غيره منذ سبعة أعوام ، عاد وفى أعطافه آمال كبار بعد أن هدته المقادير الى أقصر الطرق لتحقيقها ، عاد وقد بلغ الرابعة والعشرين حيث « ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار الفتوة » ، وقد أكسبته التجارب والعمل والاطلاع والتعامل مع الناس الثقافة من بابها الأوسع ، عاد وقد أخذت قصائده تتناقل فى الأوساط الأدبية فتعقد ألسنة الشعراء من الدهشة . لذلك لأنهم رأوا فيها شيئا غير ما ألفوه فى عصرهم ، ووجدوها بعثا جديدا للماضى المجيد الذى ظنوه ذهب ولن يعود ، وعرفوا فيها الاصالة التى عجزوا عن الوصول اليها ، وأصبحت حديث الأدباء فى مجالسهم ، ورواية الشعراء فى مجامعهم ، وأثارت المناقشة والجدل ، وأخذ الشعراء فى تقليدها والسير على منوالها ولكنهم قصروا وما بلغوا شأوها ، واطمأن البارودى الى أن فترة التجربة قد آذنت بالانتهاء وأنه قد بلغ مرتبة الفحول من الشعراء ، وقد ألقت ربة الشعر أزمتها بين يديه ، وأسلست له القريض ، وملكته ناصية الشعر ، وقدمت قيثارتها اليه ، فصار « يلهج به لهج الحمام بهديله ويأنس به أنس العديل بعديله » وأخذ يسجل ما يقول « ولا بدع فللأنسان فتون بشعره وولوع ببنات فكره ، ولولا ذلك مادون الناس أشعارهم ، ولا اتخذوا حلية الأدب شعارهم ، كيف لا ؟ وبقاء الذكر حياة الأبد ، وحب الخلود أطمع لقمان فى لبد (١) .

ولا يستريح البارودى الى العمل الديوانى وروتينه لأنه لم يخلق له ، وتنزع نفسه الطموح الى الأمل الذى يصبو اليه طوال حياته والحلم الذى يراوده منذ شب عن الطوق ، ذلك هو سبيل الجيش والحرب ، ويسعى البارودى حتى ينقل الى الجيش

---

(١) محمود سامى البارودى : مقدمة الديوان .

فى يوليو ١٨٦٣ ، ويمنح رتبة البكباشى العسكرية ويلحق بآلاى الحرس الخديوى ، ويعين قائدا لكتيبتين من فرسانه (١) ، وتستشعر نفس البارودى الهدوء وقد أصبح على جادة الطريق الذى يريد أن يسلكه ، وتفتحت آفاق الأمل رحيبة فى وجهه بعد أن أسعفته المنى فبدلت وهمه حقيقة وتصوره واقعا ، وأزالت المعوقات التى منعته من تحقيق ذاته الفارسة ، وقيدت فروسيته بالأغلال وأحالتها الى ضرب من الخيال .. وأصبح البارودى قائدا .

وأعلنت مواهب القائد الشاب عن طبيعته الحربية الأصيلة ، ودلت عليه روح الفروسية المختزنة فى طوايا نفسه ، فتقدم سريعا الى الصدارة ، وأرسل مع خمسة عشر ضابطا من خيرة الجيش ليقضوا فترة فى مشاهدة نظام الجيش الفرنسى والانجليزى واقتباس خبرة قوادهما (٢) ، والذى لا شك فيه أن زيارة البارودى لفرنسا وانجلترا ــ وهما الحضارة الغربية فى ذلك الحين ــ قد أغنت خياله كشاعر ، وأثرت ثقافته الحربية كقائد ، فقد رأى حياة تختلف فى صورها وتقاليدها عما ألفه فى مصر وتركيا ، وشاهد مظاهر حضارة قطعت شوطا فى التقدم ، واستجلت « زجاجة عينيه » طبيعة خلابة ساحرة تذكى الهام الشاعر ، وأكنت مشاعره ذكريات ترهف احساسه وتشحن عواطفه بصور وانفعالات جديدة، واستوعب عقله خبرات عسكرية ، ومعلومات عن الفنون الحربية فى الجيوش الحديثة تعمق استعداداته كقائد . ويرقى البارودى بعد العودة الى رتبة عقيد (قائمقام) فى نوفمبر ١٨٦٤ ، ثم الى رتبة عميد (أميرالاى) ووكلت اليه قيادة الفيلق الرابع من الحرس

---

(١) مراثى الشعراء ص ٨ ، مقدمة الديوان شرح الامام .

(٢) مراثى الشعراء ص ٨ ، مقدمة الديوان شرح الامام ، انظر أيضا عصر اسماعيل ج ١ ص ١٧٧ ــ ١٧٨ .

الخديوى فى ابريل ١٨٦٥ . الا انه المجد الذى سعى اليه البارودى صبيا ، جاءه اليوم يسعى بين يديه حفيا ، وعرف له الدهر مكانته ، وأمد له فى أسباب العظمة طائعا مختارا .

فى حرب كريد : (١٨٦٥ – ١٨٦٧)

حقق البارودى شطر المنى بعد أن أصبح فارسا شاكى السلاح ، وقائدا ترهب الأقران صولته ، وظل الشطر الآخر يضغط على عواطفه وأحلامه ، وألحت عليه فروسيته العارمة فى أطواء نفسه تريد أن تثبت ذاتها فى ميادين الحرب فيلهج بذلك فى عالم خياله راجيا أن يستكمل مناه ويقول :

فمن لى والأمانى كاذبات
بيوم فى الكريهة أو دنان
ألاعب فيه أطراف العوالى
وأطلق بين هبوته حصانى (١)
ترانى فيه أول كل داع
ويرتفع الغبار فلا ترانى (٢)

وكأن الأقدار كانت تسمع لندائه فاستجابت له ، وقد شبت « بجزيرة كريد » فى البحر المتوسط ثورة عامة على الحكم التركى أواخر عام ١٨٦٥ ، وعجز الجنود الأتراك عن اخمادها فاستنجد السلطان بمصر . وخرجت اليها حملة مصرية بينها « آلاى » من فرسان الحرس يقوده محمود سامى البارودى بوظيفة رئيس ياور حرب (٣). « وكان خيالة ذلك الآلاى أبسل المصريين جنودا ، وأطولهم بنودا اختارهم على ما أحب من كافة ألوية الجيش ليكون قائدهم يوم الكريهة والطعان (٤) » . وأقلعت الحملة من الاسكندرية

(١) الهبوة : الغبار يرتفع فى الجو .
(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٣) مراثى الشعراء ص ٩ .
(٤) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٩٠٤/١٢/١٥ .

والبارودى أسعد رجالها يتوق شوقا الى يوم يحرك فيه سيفه وقد طال سكونه فى غمده ، ويلاعب فيه أطراف العوالى ويلقى أولئك الذين خرجوا على السلطان .

وتظهر كفاية البارودى العسكرية أيام اللقاء ، وتسفر المعارك عن القائد البطل « وأجل ما يذكر له فى تلك الوقائع واقعة احتال بها على الثائرين حتى أدخل منهم نحو الثلاثين ألفا فى مضيق بين جبلين وقطع عليهم الرجعة بقسم من عساكره وسلط القسم الآخر نيرانه على العدو من قلعة الجبل فألقوا السلاح وطلبوا الأمان وساقهم أسرى (١) » وجنى لمصر الفخار .

وأحرز الجيش المصرى النصر للأتراك ، واستسلم الثوار ، وانتهت مهمة البارودى الفارس ، وفرغ منه الشاعر لخياله وخواطره يستجمع الذكريات ، ويستعيد المشاهد والصور وتموج عواطف الفنان فيه بشحنات مختلفة من الانفعالات سرت اليه من المعركة ، والتقطها من الطبيعة الجميلة ، وسعت اليه من الوطن البعيد ، وتحرك ربة الشعر أوتار قيثارتها تستثير الشاعر ليغنى فيصور احساسه وسلوكه فى مأزق تعرض له هو وجيشه ، ثم يرسم بالألفاظ والعبارات لوحة المعركة الكبرى بأبعادها وألوانها وظلالها ، وبانفعالاتها والحركة فيها ، فتكون الخلق الفنى وقد وهبه المبدع الحياة فبعثه صورة مجسمة للعيان ، فيها لمسات النوم تداعب جفون الفرسان وقد أجهدهم المسير ولفتهم الظلمة تحجب عنهم الرؤية ، فلا ينظرون على امتداد البصر غير أسنة الرماح مشتعلة ، وتأتيهم من بعيد أصوات السمار والعازفين وصهيل الخيل وصياح الحراس مختلطة من معسكر الأعداء ، ويقرب المصور منهم حتى يشرف عليهم فيراهم على مشاعل النيران :

---

(١) المصدر السابق .

ملئوا الفضـــاء فما يبين لنـــاظر
غير التماع البيض والخرصان (١)
فالبدر أكدر والســـماء مريضـــة
والبحـــر أشكل والرماح دوان (٢)
والخيـــل واقفـــة على أرسانها
لطـــراد يوم كريهة ورهـــان (٣)
وضعوا السلاح الى الصباح وأقبلوا
يتكلمـــون بألسـن النـــيران

ثم تزدوج الصورة حين يسفر الصبح ، وتتضح الرؤية ويردد النظر بين الربا والمجانى :

فاذا الجبـــال أســنة واذا الوهـا
د أعنـــة والمـــاء أحمـــر قان

ويهيج بالبارودى شوقه الى الوطن ، وتتداعى الذكريات ، وما أسرع ما تأخذ الذكريات بعضها برقاب بعض والمرء ناء عن الوطن بعيد عنه ، فيخرجها البارودى صورا من شعره ومزيجا من عواطفه.

وتستغرق حرب « كريد » قرابة عامين يتأجج فيهما قلب البارودى حنينا الى الوطن ، ولأول مرة يشدو بحبـــه له ويتغنى بشوقه اليه ، فتشهد جزيرة كريد مولد التغنى بمشاعر البارودى الوطنية ، وترى أول قطرات الفيض الذى تفجر فى عواطفه نحـو بلاده وظل يملأها بالنور والحب والفداء طوال حياته ، يذكر النيل ومغانى الهوى على ضفافه ويحس بأنه أغرق فى وصف بلاد الرومان وجمالها فيلتفت ليعلن أن بلاده أجمل بلاد العالم وأين من ماء بمصر منازل الرومان ؟ ويدعو لمصر بالسقيا فيقول :

---

(١) الخرصان : جمع خرص : وهو الرمح القصير السنان .
(٢) أكدر : مغبر من الغبار المثار : أشكل يقرب لونه الى الحمرة .
(٣) الأرسان : جمع رسن : اللجام ، الطراد : المطاردة فى الحرب .

فسقى السماك محلة ومقامة
في مصر كل روية مرنان (١)
حتى تعود الأرض بعد ذبولها
شتى النماء كثيرة الألوان
بلد خلعت بها عذار شبيبتي
وطرحت في يمنى الغرام عناني

ويعود البارودي الى الوطن مع الجيش المكلل بالغار وقد أحرز النصرين معا : احرز النصر الحربي فيمنحه السلطان في أول أكتوبر ١٨٦٧ الوسام العثماني من الدرجة الرابعة (٢) ، وأحرز النصر الأدبي فيتقلد زعامة الشعر ويصبح المثل الأعلى للشعراء .

الفجر الجديد في الشعر العربي الحديث :

كان الشعر العربي يعاني أزمة الضعف والانحلال منذ احتل العثمانيون البلاد العربية ، فقد زحفت مع جيوشهم على البلاد اجناد الجهل ، وظلمة الفقر الذهني والمادي ، واعتصروا ما فيها من طيبات الرزق ، ونزحوا ما فيها من تراث وعلماء ، وأرادوا أن يتحول مركز الاشعاع الفكري ، والسياسي والديني الى الآستانة ، وحتى تظل البلاد العربية ومصر خاضعة راكدة ضرب الأتراك بسور من العزلة عليها ، وكانت تركيا بهذه العزلة الفكرية تريد للشعب العربي الجهالة ، وعماية الفكر حتى يسلس قياده وتلين عريكته ، وتظل بلاده المزرعة التي تنتج المحصول لمالكها ليعيش عليه في بحبوحة الحياة ونعيمها ، ويدفعهم الى ذلك أيضا « مركب النقص » الذي يحس به الأتراك ازاء العرب فعلى الرغم من أنهم سادة العرب ويتحكمون في مصائرهم وبلادهم الا انهم يحسون نحوهم وفي قرارة

---

(١) السماك هنا : السماء : الروية : السحابة الكثيرة المطر ومرنان جمع مرنة وهي السحابة التي يحدث مطرها صوتا ورنينا أثناء وقوعه على الأرض .
(٢) المنار ، مجلد ٧ الجزء ٢٠ في ١٩٠٤/١٢/٢٣ ، مراثي الشعراء ص ١١ .

نفوسهم برهبة خفية ، ونقص فى الدرجة الدينية فالعرب أهل الدين الذى يعتنقه السادة الأتراك وأهل اللغة التى لابد وأن يتعلمها الأتراك ليصلوا بها ويقرأوا بها القرآن ، ثم هم بعد كل ذلك خير منهم ، لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ويزيد هذا الشعور من حنق التركى وحقده فيزداد فى اذلال العرب ، وسومهم سوء العذاب ، وسلبهم باسم الدين حقهم فى الحرية السياسية والمعرفة والحياة .

وتتحالف الجهالة والعزلة وخمود الروح القومية على الأمة العربية . والصلة أقوى ما تكون بين الحياة العقلية والقومية ، وبين الأدب والفن ، ومن ثم فقد أصيب الأدب بالضعف والركود ، واذا كانت الحملة الفرنسية قد هزت المصريين الى الأعماق ، وأيقظتهم من التخدير الذى أصاب عقولهم وأرواحهم من طول ما رزحوا تحت الظلم والاستبداد ، واذا كانت قد جاءتهم بزاد جديد لطاقاتهم الثورية الكامنة فيهم من لمحات عن العلوم الحديثة التى طورتها أوروبا ، واذا كان هذا الزاد قد حمل فى طياته ثقة بالنفس ، وآفاقا جديدة تشد خيال الحركة المتحفزة للشعب المصرى ، فان المأساة الكبرى جاءت على يد محمد على حين وجه اليقظة الى تنفيذ مخطط يحقق له أطماعا فردية ، فجعلها فى اتجاه يؤثر فى عقول الناس ولا يؤثر فى عواطفهم ، وحصرهم فى سجن الاستبداد والقهر ، وحرمهم من الحرية الفردية والحرية القومية ، ومن ثم بقى الشعر والفن على صورته السالفة فى العصور العثمانية ينبع من التكلف ويسير فى أخاديد الصنعة ، ويعيش فى سراديب الضعف والتهالك ، وظل الشعراء يسلكون نفس الدروب الملتوية الضيقة التى سلكها أسلافهم ومعاصروهم فى البلاد العربية من أمثال الشيخ اسماعيل الخشاب والشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين محمد بن اسماعيل والسيد على الدرويش ، ينشدون شعرا فقد روحه العربى الخالص ، وغدا جسما يخلو من الحياة ، فقد أحالته الصنعة والتكلف حيلا بديعية ، اضطرابا والتواء أشبه بالأحاجى والألغاز ، وظلا مطموسا لصاحبه على أوزان البحور الشعرية ، وأصبح المثل الأعلى للشاعر

قدرته على تكبيل شعره بأكبر عدد من أغلال الصـــنعة التى تكتم انفاس الخصائص الفنية وتذهب بروح الشعر ومعناه . .

ثم خلف من بعدهم جيل تولى زعامتـــه « محمود صـــــفوت الساعاتى » وكان صاحب الوقت بزعم أهله وقد أخذ لواء الشعر من السيد على الدويش وانضوى اليه معاصروه من أمثال على الليثى وعلى أبو النصر وعبد الله النديم وصالح مجدى ومحمد النجارى وعبد الهادى الابيارى وغيرهم « وقصارى ما يكون من أبرعهم شعرا ، وأبدعهم صنعة اذا نفض رأسه وزاد فى حركة قلبه وضرب على جبهته بكلتا يديه أن يعطس ببيت فيه نكتة من البديع أكثر ما تكون من نحو حسن الأخذ والتضمين والاقتباس (١) » . فالشاعر كما كانوا يفهمونه لم يزد عن انه نديم فى المحـــافل يلقى ســامعيه ، ويعاشرهم ، ويضحكهم بالملح والأحاديث ومن ثم فكل من كان يفهم النكتة فى المجلس ويحسن ردها ، ويحفظ النادرة يتأنق فى سردها ، ويروى الأخبار ، وينشد الأشعار فهو شاعر مجيد ، ذلك لأن ذوق العصر الذى عاش فى الظلمة الفكرية والسياسية قيم الشاعرية على انها اللباقة وذرابة اللسان وهى قبل كل شيء صناعة كلام وتنميق ألفاظ ، وبراعة فى المساجلة والافحام .

لم يكن الشاعر منهم يتصور الشعر الا أنه نظم لمعان معـــادة معروفة ، وكل ما له من فضل هو حشد ألوان البديع وأغلاله ، أو السير بأوائل الأبيات على نسق الأبجدية ، أو نظم القصيدة من حروف معجمة أو مهملة ، أو يستخرج من آخر شطر فيها تاريخا بحساب الجمل الى غير ذلك من أنواع البـــديع التى لا تحصى . ولو أننا أردنا أن نرجع المسببات الى أسبابها لوجدنا أنهم يمثلون عصرهم الذى ناخت عليه الجهالة وفساد الذوق ، فكانت العقول التى تعيش فى ذلك العصر ترضيهم مثل هذه الأشعار ويطمئنون الى هذا النحو من الأدب تقبل عليه الخاصة تفك رموزه دون القاء بال

---

(١) مصطفى صادق الرافعى : المقتطف مجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ .

إلى معنى أو فكرة ، فهو أدب لفظى أولى أن تقاس أطوال جمله وزواياه ، وتنصرف عنه العامة الى أزجالهم ومواويلهم والىأحاديثهم وقصصهم الشعبى .

ويطلع البارودى على أدباء عصره طلوع الفجر الجديد ، ويظهر فى الستينات من القرن التاسع عشر فى بيئة الشعر العربى ظهور المعجزة التى لم يسبقها ارهاص ينبىء عنها . ولم تكن الدلالات السابقة أو المعاصرة تشير الى مجىء هذه القمة التى انبثقت شامخة وكأنها خرجت من أعماق خمسة قرون من التاريخ فريدة ليس معها قمة واحدة تدانيها أو تساميها . ووقع شعره من النفوس موقع الماء من ذى الغلة الصادى ، شريف المعنى ، مشرق الديباجة قوى الأسر رصين العبارة جزل التراكيب .

أو كما يقول البارودى نفسه :

فألق اليه السمع ينبئك أنه
هو الشعر لا ما يدعى الملأ الغمر
يزيد على الانشاد حسنا كأننى
نفثت به سحرا ، وليس به سحر

وظهرت فى شعر البارودى ميزات واضحة دفعت به الى الصدارة بين الشعراء حتى ألقى الشعر والشعراء أزمتهم بين يديه ، ذلك أنه وثب بالعبارة الشعرية وثبة قوية عبر خمسة قرون من الركاكة والضعف الى مصادرها الأولى من صحة التركيب وجزالة اللفظ ومتانة العبارة ، وارتفع بها من حمأة الابتذال والاسفاف ورجع بها الى أساليبها الرصينة القديمة ، وخلصها من كلف البديع وأثقاله ، وأعاد اليها ديباجتها القوية ، وردها الى مجدها التليد ، « وخلع عن شعره كل العقد التى كان يحجل فيها الشعراء من قبله ... ونفخ فيه روحا جديدة من الاصالة ، وأزال عنه كل ما يعوقه من أعشاب البديع (١) » .

---

(١) شوقى ضيف : شوقى شاعر العصر الحديث ، ص ٤٦ .

وانفجر النبع الطبيعى من نفسه وتدفق من عواطفه شعره وفنه ، وقد أخرجه من حيز المعانى المحفوظة المعروفة الى فسحة واسعة من التعبير عن العواطف ، وعن العصر وأحداثه ، ملتزما ما وضعه حدودا للشعر الجيد فقد جعل « خير الكلام ما ائتلفت ألفـــاظه ، وائتلفت معانيه ، وكان قريب المأخذ ، بعيد المرمى ، سليما من وصمة التكلف ، بريئا من عثرة التعسف ، غنيا عن مراجعة الفكرة ، فهذه صفة الشعر الجيد ، فمن آتاه الله منه حظا ، وكان كريم الشمائل ، طاهر النفس ، فقد ملك أعنة القلوب ، ونال مودة النفوس ، وصار بين قومه كالغرة فى الجواد الأدهم ، والبدر فى الظلام الأيهم (١) » . وقد أوتى البارودى من كل ذلك النصيب الأوفى والحظ الموفور .

واهتدى البارودى بفطرته السليمة الى الطريق الطبيعية التى سلكها من قبله من فحول الشعراء ، وقد كانوا يقرءون ويستظهرون شعر النابهين ممن سبقوهم أو عاصروهم من الشعراء حتى تتكون سليقتهم ، ثم يحاولون فهم مقاصده ، وتبين مواقع الجمال فيه ، ويأخذون أنفسهم بروايته حتى تتمثل ذاكرتهم الألفاظ والتراكيب ، ومن ثم وحين يأتيهم الدفق الشعرى يسيل على ألسنتهم القول دون عناء ودون حاجة الى جهد واعداد وترتيب ، ففى الذاكرة رصيد ضخم من الألحان والأنغام والد ـ والتراكيب . والبارودى شاعر استظهر الكثير من شعر الأقدمين « وقرأ المئات من قصائد الجاهليين والمخضرمين ، وفحول المحدثين .. ولا نعرف أحدا بين أبناء جيل البارودى أو أبناء الجيل الذى تلاه قرأ أكثر مما قرأ من دواوين العرب واستفادت صياغته من هذه القراءة أكثر مما استفاد (٢) » . وتسربت العروبة مما قرأ وحفظ الى ينابيع نفسه ، وتمثلها تمثلا عميقا أعادت فيه للعربية سليقتها القديمة بكل خصائصها اللفظية

---

(١) محمود سامى البارودى من مقدمته لديوانه .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٢٦ .

ومميزات التركيب فيها ، والى ذلك يشير حسين المرصفى (١) أستاذالبارودى وقارىء دواوين الشعراء معه (٢) بقوله : « انه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا الى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسب ما تقتضيه المعانى والتعلقات المختلفة فصار يقرأ ولا يكاد يلحن .. ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفها من خسيسها ، واقفا على صوابها وخطئها ، مدركا ما كان ينبغى وما لا ينبغى وفق مقام الكلام » . ولعل قراءة البارودى بحضرة المرصفى على هذا النسق من الدراسة الأدبية دون التعرض لدراسة قواعد النحو والصرف والعروض من كتاب ، هى التى دعت المرصفى أن يقول : « محمود سامى البارودى لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية (٣) » ، لأن الواقع غير ذلك فقد قرأ البارودى فى دراسته الخاصة لعلوم المرحلة الابتدائية ، وفى « المدرسة المفروزة » ــ كما سبق أن أشرنا ــ بعض كتب النحو والصرف ، ولكنها قراءة تهدف الى استظهار لا ينمى السليقة أو يفيد فى تقويم اللسان . أما العروض فلم يعرفه البارودى الا بعد أن بلغ الغاية من شعره ، ومن شعر البارودى نفسه نستدل على أنه درس العروض وعرفه ليتقى مآخذ الشعر ويتجنب الوقوع فى الزلل ، لكنه لم يعرف العروض أولا ثم قال الشعر شأن العروضيين بل قال الشعر ثم التمس العروض ليتقن صنعته . ويدل على دراسته للعروض معرفته بمصطلحاته فى قوله :

---

(١) الوسيلة الأدبية جـ ٢ ص ٤٧٤ .

(٢) المقتطف مارس ١٩٠٥ .

(٣) الوسيلة الأدبية جـ ٢ ص ٤٧٤ .

لم تبن قافيـــة فيه على خـــلل
كلا ولم تختلف فى رصــفها الجمل
فلا ســناد ولا حشـــو ولا قلق
ولا ســـقوط ولا سهو ولا علل

ولا يعرف هذه المصطلحات العروضية الا دارس لعلم العروض. ونأى البـــارودى بنفسه عن أن يبدأ بداءة معاصريه ، فقد كانوا يأخذون من الطبقات الدنيا فينشأ الشاعر مثلها اذا كان موفقا ، أو يكون أدنى بحكم الطبع ، ولكن البارودى كان من صفاء الفطرة ونقاء الذهن وكمال الاستعداد ونصيحة أهل البصر بحيث وجـد السبيل فابتدر الغاية ، وصوب سهمه الى النجم ، واتخذ مثله من الشعراء الفحول . وفى ذلك يقول (١) :

مضى حسن فى حلبة الشـعر سابقا
وأدرك لم يسبق ولم يأل مسلم (٢)
وباراهما الطـــائى فاعترفت لـــه
شهود المعـــانى بالتى هى أحكم (٣)
وأبدع فى القول الوليـــد فشـــعره
على ما تـــراه العين وشى منمنم (٤)
وأدرك فى الأمثـــال أحمـــــد غاية
تبز الخطى ما بعـــدها متقـــدم (٥)
وسرت على آثارهـــم ولربمـــــا
سبقت الى أشـــياء والله أعلم (٦)

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٢) حسن : ابو الحسن بن هانىء ، مسلم : مسلم بن الوليد الانصارى .
(٣) الطائى : أبو تمام حبيب بن أوس الطائى .
(٤) الوليد : أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى .
(٥) أحمد : ابو الطيب أحمد بن الحسن المتنبى .
(٦) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

ولم يكن سيره على آثارهم تقليدا لهم بالمعنى السيء ، بل أراد أن يجاريهم فى ميادينهم ليرد الى الشعر جزالته ونصاعته ورصانته ، أما بعد ذلك فشخصيته فى شعره قوية بارزة شخصية تستكمل حريتها ، ولا تظهر باهتة فى ظل الأقدمين .

ولم تتكون قريحته الشعرية على الطريقة التى كانت سائدة فى عصره بين الشعراء العروضيين الذين « كانوا ينظمون القصائد ويخوضون فى الشعر لأنهم كانوا يعتبرون النظم حقا أو واجبا على كل من تعلم العروض ودرس البيان والبديع وما اليهما من أصول الصناعة ، وهم كانوا يتعلمون هذه الأصول ويطبقون ما تعلموه فيما نظموه ، فكانت دواوينهم أشبه شيء بكراسات التطبيق فى معاهد التعليم (١) ؛ بل كانوا يعتبرون الناظم على غير علم بالعروض داخلا فيما لا يعنيه متطفلا على غير فنه . وانما الشعر عند البارودى فيض تتفجر به مشاعره ، وينساب طبيعيا من عواطفه الى أسلة لسانه فيترجمه تراكيب وصورا ، ويتدفق تدفق ضوء الصباح المشرق يفصل عن ذاته فيدل عليها ويشير الى ملامحها وتنعكس فى مرآته صورة من حياته يتجلى فيها طابعه الخاص ، وتمتزج المرآة بالصورة امتزاج الروح بالجسد ، ويصبح طابع الشخصية ممثلا للشاعر فى شعره كما يقول البارودى :

فانظر لقولى تجـــد نفسى مصورة
فى صفحتيه فقولى خــط تمثـــالى

وشعر البارودى لم يكن من جهد الصناعة أو من معاناة البديع وحيله وضروبه والوانه بل كان صادرا عن طبع فنى أصيل وكانت فى قرارة نفسه عين كامنة ما لبثت أن وجدت منفذا حتى تفجرت بالنور والجمال ، وظلت تفيض ولا تنضب وكلما استثارها أسعفته وأقبلت عليه كما يقول :

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٨ — ٩ .

ويا طالما رمت القـوافى فأقبلت
سراعا فلا أروى ذكرت ولا حزوى (١)

فلا يحـذون النـاس حـذو بلاغتى
فأقرب ما فى شأوها الغاية القصوى

فطبيعة البارودى الأصيلة هى التى حركته لقول الشعر والى ذلك يشير :

اقول بطبع لست أحتـاج بعـده
الى المنهل المطـروق والمنهج الوعر

اذا جاش طبعى فاض بالدر منطقى
ولا عجب فالـدر ينشـأ فى البحر

وهو بذلك يعبر عن جوهر شعره وأساس مجده فشعره ينزع من قلبه وعواطفه ، وتجرى فيه نبضاته وخفقاته ، ويفصل من دمه وشعوره وأعصابه وأفكاره . وتجد طبيعته الشاعرة فى الحياة وفى الحرب وفى العواطف وفى المتعة والألم ما يساعد نموها ويغذيهـا فى أطوارها المختلفة فيخرج شعره متين اللفظ رقيق الحاشـية يتحدث الى القلوب والروح . وقد أحسّ البارودى بكل ذلك وعبر عنه تعبيرا واضحا فى قوله : « ان الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها فى سماوة الفكر ، فتنبعث أشعتها الى صحيفة القلب ، فيفيض بلألائها نورا يتصل خيطه بأسلة اللسان ، فينفث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ، ويهتدى بها السالك (٢) » .

وينأى البارودى بشعره عن أن يتخذه سببا لمرضاة حـاكم أو سبيلا الى غاية عند أمير فلم يمدح به أحدا طلبـا لمعروفه ، أو يقف به مع شعراء البلاط ينتظر الأذن للانشاد ، بل كان يرتفع

---

(١) لم يسبق نشر هذين البيتين وأروى وحزوى مكانان من المغانى التى تحدث عنهما الشعراء .

(٢) البارودى : مقدمة الديوان .

بنفسه وشعره عن مقام الأمارة نفسه ، وفيه وراثة من مجد يبلغ السماكين ، وقد كان معاصروه يسخرون أشعارهم لمديح الحكام والأغنياء ، بل لم يكونوا يفهمون الشعر الا أنه وسـيلة للارتزاق فنادموا به ذوى اليسار والجاه ، وتهالكوا على الأبواب برقعهم وقصائدهم وانحطت مرتبة الشاعر حتى احتسب مع المرتزقة الذين يطعمون لوجه الله ، والذين عيروا البارودى من أبناء طبقته لقوله الشعر ، انما عيروه لأنه نزل فى نظرهم الى هذه الطبقة المتكسبة من الندماء الذين يعيشون على الفتات يطرون أصحابها ضارعين مستمطرين بهرضاهم وعطفهم . وقدكان البارودى واضحا فى ذلك يقرر أنه يقول الشعر « لا تذرعا الى وجه أنتويه ، ولا تطلعا الى غنم أحتويه ، وانما هى أغراض حركتنى ، واباء جمح بى وغرام سال على قلبى ، فلم أتمـالك أن أهبت ، فحركت به جرسى ، أو هتفت فسريت به عن نفسى » .

لم تكن جزالة العبارة وبهجة الديباجة ورصانة التراكيب هى كل الجديد الذى جاء به البارودى ، بل من الجديد الذى شـد الأسماع لشعره ، ودعا الى الاعجاب به هو استخدامه « زجاجة عينيه » اللاقطة تصور الواقع فى بساطة وسلاسة وقوة تحس معها بارسال النفس على سجيتها لأنه لا يتعمق ولا يتكلف ولا يعمد الى التعقيد أو الغوص وتكلف الاستعارات أو السير فى أخاديد البديع ودروب الصناعة ، وانما يرسل نفسه على سجيتها ارسالا فيصور ما هو أمامه ، ويعبر عن عواطفـه كما يريد أن يعبر النـاس فلا يستطيعون . واعتماد البارودى على حواسه فى شعره صفة بارزة فيه ــ وخاصة المنظور الذى ظل يزداد وضوحا مع الأيام ، وتزداد فيه الحركة والحياة بنوع خاص ، وهو حين يسجل الصور بألفاظه الموسيقية ، لم يكن يسجلها فى صحتها وسكونها على عادة عشاق الطبيعة الصامتة ، بل فى نشاطها وتحركها حتى يخيل لقارىء شعره

وسامعه أن الحياة تنبض فى كل جزء تقع عليه العين وتحيط به الباصرة .

وعلى عهد البارودى كان بالقاهرة منتديات للأدباء ، ومجالس للفقهاء ، ومجتمعات للظرفاء أو المفتنين ، وندوات خاصة يجتمع فيها رجال الفكر وشيوخ العلم وعشاق الأدب ، وكانت ندوة البارودى الأدبية تعتبر فى القمة من هذه المجالس يعقدها فى داره بباب الخلق ، ويؤمها صفوة القوم من أعيان المنشئين والشعراء والعلماء وعشاق الأدب والعلم (١) ومن هؤلاء : الشيخ حسين المرصفى والسيد على أبو النصر وعلى الليثى ومحمود صفوت الساعاتى والشيخ أحمد الزرقانى الكاتب الأديب ، ومحمد سعيد بن جعفر مظهر الشاعر الثائر ، وشيخ الأدباء عبد الله فكرى وأحمد وهبى الشاعر « الطرابيشى » (٢) وطالب العلم محمد عبده ، وفيها أمهات الكتب الأدبية تقرأ ودواوين الفحول من شعراء العربية تنشد ، وفيها معارضات لها تنشأ ، ثم يأتى دور الملهم فيرين الصمت، ويتحول المجلس الى آذان متلهفة لسماع المعجز من نبى الشعر الجديد ، ويعود بهم البارودى ـ حين ينشد ـ قرونا الى الوراء عبر التاريخ ، وكأنهم فى حضرة الشريف الرضى تارة ، أو مجلس المتنبى أخرى ، أو على الركب مع النابغة الذبيانى ثالثة ، أو يشاركون أبا نواس دنه ، أو يحملون السيوف الى الفارة مع أبى فراس ، أو ينعمون بالطبيعة مع البحترى (٣) وفى كل مرة تهزهم شخصية البارودى فتوقظهم من الحلم وتردهم من الرؤى والتصور الى

---

(١) عبد الله النديم : سلافة النديم جـ ١ ص ٢٤ .

(٢) كان يبيع الطرابيش فى دكان بالغورية : أحمد تيمور : تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ص ١٤٤ .

(٣) عارض البارودى هؤلاء الشعراء فى بعض قصائد لهم وقد نشرت المعارضات فى كتاب الوسيلة الأدبية وقد بدىء فى طبعه عام ١٨٧٥ وذلك يدل على انه قالها فى شبابه منذ عاد من تركيا حتى وقت الطبع .

الحقيقة ، وهم لا يكادون يصدقون أن هذا شعر ينشده شاعر يعيش بينهم ، ويرونه القمة التى تثبت ذاتها دون أن تكون ظلا لشاعر سبقه ، والرائد الذى نفخ فى الصور فبعث الشعر العربى ، ويجدونه كما يقول هو عن نفسه :

أحييت أنفاس القريض بمنطقى
وصرعت فرسان العجاج بلهذمى
وفجرت ينبوع البيان بمنطق
عذب رويت به غليل الحوم (١)
نشأت بطبعى للقريض بدائع
ليست بنحلة شاعر متقدم (٢)
يصبو بها الحكمى صبوة عاشق
وتخف من طرب عريكة مسلم (٣)
قومته بعد اعوجاج قناته
والرمح ليس يروق غير مقوم
شعر جمعت به ضروب محاسن
لم تجتمع قبلى لحى ملهم

غزل البارودى وخمرياته :

نقل البارودى بعد عودته من حرب « كريد » من آلاى فرسان الحرس الى المعية الخديوية ياورا خاصا ضمن ياوران الخديو (٤) ، وكان اسماعيل قد قضى فى الحكم ما يقرب من خمس سنوات استطاع فيها بأسلوب الرشوة والمساومة مع الباب العالى أن يكسب

(١) الحوم : العطشى .
(٢) النحلة : الدعوى .
(٣) الحكمى : أبو نواس ، الحسن بن هانىء بن عبد الله بن صباح (١٤٥ ــ ١٩٩ هـ) ومسلم : مسلم بن الوليد الانصارى (صريع الغوانى) شاعر عباسى (٧٤٧ ــ ٨٢٣ م) ، هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٤) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٩٠٤/١٢/١٥ .

لنفسه من الامتيازات ما يجعله الحاكم المطلق فى البلاد ، وكان خياله المحموم بأطماعه يفزع سامعيه ، وكان يرى المال وسيلة الى تحقيق آماله فأهاب به استعداده التجارى أن يستخدم سلطته المطلقة فى جمع المال بوسائل النهب والسلب والاذلال من المواطنين ، وبالدهاء والمراوغة والتحايل والذلة من المرابين الأجانب (١) . وحتى عام ١٨٦٧ كان قد جمع لنفسه من الأهالى واستدان من بيوت الأموال الأجنبية الملايين العديدة ، بددها ذات اليمين وذات الشمال على ملاذه الشخصية ، وطيشه مع النساء الأوربيات ، وسفهه فى اقامة الحفلات الملكية (٢) .

وأصيب اسماعيل فيما أصيب بهوس بناء القصور فبنى نحو ثلاثين قصرا من القصور الفاخرة منها قصر الجزيرة (٣) وقد شيده على مثال قصر الحمراء بالأندلس ، وقصر الجيزة (٤) وقد استورد لبنائه وتخطيط حدائقه مهندسين وعمالا من الآستانة ، وعلى مثال هذين القصرين بنى اسماعيل القصور العديدة فى القاهرة والاسكندرية والأقاليم . ويصف شاهد عيان (٥) الحياة فى هذه القصور فينقلنا الى خيالات تتوارى الأساطير الشرقية والغربية خجلا أمامها ، فألوف الجوارى الحسناوات ، والوصيفات الجميلات «والقلفاوات» المثقفات ، « والشاويشات » المهذبات ، ثم فريق الراقصات والمغنيات ، والممثلات والعازفات على الآلات الموسيقية النحاسية

---

(١) الفريد سكاون بلنت : التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى (تعريب جريدة البلاغ ١٩٠٨) ص ١٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨ .

(٣) استورد له المهندسين من النمسا لبنائه ومقره الآن فندق عمر الخيام .

(٤) مقره الآن حدائق الحيوان : أنظر تفصيلات وصف هذين القصرين فى الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٨٤ ــ ٨٥ .

(٥) أحمد شفيق ، مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ٥٠ ــ ٨٦ .

أو الوترية ، يستوردهن من أوروبا وتركيا وبلاد الجركس عمـلاء « يسرجية » ، ويدربونهن على العمل فى هذه القصور . وكانت زوجات الخديو الأربع يتنافسن فى اقتناء أجمل الجوارى وأرشق الوصيفات حتى ينلن الحظوة لدى اسماعيل ؟! .

فى هذه البيئة البذخة اللاهية ، وبين ردهات القصور الفاخرة ، وفى حدائقها الغناء المزهرة ، وعلى مرأى من طيورها الفـــردة ، وحيواناتها النادرة ، عاش البارودى ثمانية أعوام من شبابه وصباه ، ضابطا بالحرس الخديوى وياورا خاصا لاسماعيل . وأتته الأسباب كلها لتشد الغيد الحسان الى مداره ، ويصبح لدى كل رداح هيفاء مناط الأمل ومهوى القلب ، وتجمعت له السبل لينعم بمجالس اللهو والشراب والغناء : شباب يتفجر صبا وفتوة ، وثراء يسلكه فى علية القوم ، ومجد يعلو به الى الهام ، وفخار يكلل جبينه ببطولة فى الحرب يتيه بها على أقرانه ، وتحببه الى قلوب العذارى ، وشعر يخلب اللب ويسلب القلب من الضلوع ، ألا انها حياة ألهو ألقت بكأسها بين يدى البارودى فى شبابه فكرعها حتى الثمالة ، يتصيد قلوب الغانيات ، فيشقى بحبهن تارة ويسعد أخرى ، ويعب من الصهباء حتى تظل به الأرض الفضاء تدور (١) ، ويعيش ما يشاء من ليالى الأنس ومجالس اللهو والغناء .

ويستثير هذا اللون من الحياة شاعرية البـــارودى فيغنى ، ويصوغ تجاربه صورا يصف فيها الجمـــال الذى يستمتع به والأحاسيس التى تخامره ، ويفرد لكل متعة صورة ، فهو عاشق سعيد مرة ، ومعذب أضناه الجفاء أخرى ، وشارب تارة ومستمتع بالطبيعة رابعة ، أو يمزجها فى صورة واحدة تجمعهـا حين تلتقى معانيها فى عواطفه وتختلط أحاسيسها فى نفسه فيجسد كل ذلك ، ويشدو به على قيثارة شعره ، ويخرجه الى الحياة ليبقى ، ونقرأه

---

(١) الديوان (الجارم) جـ ٢ ص ٢٢ .

فنحس بأن البارودى كان فى شبابه « ابن كأس ولذة » (١) يستأثر لنفسه بملذات الحياة ويهتبل المتعة ويعتصرها لينعم بآخر قطرة فيها .

والواقع ان البارودى بفتوته العارمة ، وصبوة الشباب فيه عاش هذه السنوات من عمره بشرا وشاعرا ، يستمتع بلهو الصبا ومفاتن الحياة ويجرى على طبيعته مع الغواية والصبا فى سباق (٢) ، لا يسأم اللهو ولا يسأم اللهو منه (٣) ، ويعلن ذلك كله فيقول :

عصيت نذير الحلم فى طاعة الجهل
وأغضبت فى مرضاة حب المها عقلى
ونازعت أرسان البطالة والصبا
الى غاية لم يأتها أحد قبلى

وكأن البارودى يرى الاستمتاع بالشباب هو البشرية السوية فيجهر بذلك فى قوله :

اذا المرء لم يطرب الى اللهو والصبا
فما هو الا من عداد البهائم (٤)

ويتنقل قلبه فى هوى العذارى ، يتعرضن له فتصور حسنهن بلورتا عينيه فى صفحة القلب ، ويصوبن اليه سهامهن المريضة فيصمين قلبه « ويروح قريسة الأهداب » . ويخلع البارودى فى حب الغيد رسنه ، ويبيع بالسهد فى ليل الهوى وسنه كما يقول :

خلعت فى حب غزلان الحمى رسنى
وبعت بالسهد فى ليل الهوى وسنى (٥)

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٤ .
(٢) انظر ديوان البارودى ج ٢ ص ٢٩٤ (الجارم) .
(٣) المصدر السابق ص ٢٩٥ .
(٤) هذا البيت لم يسبق نشره .
(٥) الرسن : المقود ، الوسن : النوم .

وأعجبتنى على ذم العذول لهـــا
صــــــــبابة نقلت سرى الى العلن
فليبلغ العــذل منى ما أراد فقــد
أسلمت للشوق روحى والضنى بدنى(١)

ولكأنى بالبارودى وقد أحب فتيمته الصبابة ، ثم رحلت عنه حبيبته فيحيل رحيلها حلاوة الحب التياعا وعذابا ، لكنه يرضى بما يلقاه في سبيلها من العذاب ، ويتمنى نظرة منها على البعد يقنع بها فيقـــول :

يا راحلا غاب صبرى بعـــد فرقته
وأصبحت أسهم الأشواق تصـمينى
ان كان يرضيك ما ألقاه من كمـــد
فى الحب مذ غبت عنى فهو يرضينى
لم ألق بعـــدك يوما أســـتبين به
وجـــــه المسرة الا ظــــل يبكينى
قد كنت لا أكتفى بالشمل مجتمعا
فاليوم نظرة عين منك تكفينى (٢)

وتمرض فاتنة قلبه فيهلع ، ويريد زيارتها فيمنع ، ولا يملك من أمرها وأمره الا الشكوى من العذاب والدعاء لها بالشفاء فيقول :

دع حبيب القلب ياســـقم ... فبنفسى لا بـــــه الألـــم
كيف حـــل السـقم فى بدن ... خلقت من حسنه النعـــــم
منعـــــونى من زيــــارته ... وحمى قلبى له حــــــرم
تهمــــــونى فى مــــــودته ... والهـــوى من شأنه التهم (٣)

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٣) هذه القصيدة لم يسبق نشرها .

ويأتى دوره فيمرض من الحب ويصيبه العشق بالعلة ، ويسرى فى جسمه الضنى ، وينحل حتى تبين أعظمه ، فيضرع الى حبيبه لتمن عليه بالوصل حتى لا يتحكم فيه المرض وينشد لحنا مرقصا يقول فيه :

عليل أنت مسقمه ... فما لك لا تكلمه
سرى فيه الضنى حتى ... بدت للعين أعظمه
فلا ان باح تعذره ... ولا ان ناح ترحمه
اذا كان الهوى ذنبى ... فقل لى كيف أكتمه
ودمعى أنت مرسله ... وقلبى أنت مؤلمه
ولا والله مالى فى الـ ... ـهوى ذنب فأعلمه (١)

وغزليات البارودى فى ديوانه المطبوع والمخطوط تدل على أنه نقل فؤاده حيث شاء من الهوى ، وكابد الغرام الحقيقى مع أكثر من حبيبة فى سنوات شبابه « فظيبة المقياس » كانت آثرهن عنده ، ومن ثم كانت أكثرهن ذكرا فى شعره ، ولعلها أول من تفتحت لها عواطفه فتمكنت من فؤاده وظل يذكرها طوال حياته وقد كان لأسرته قصر بمصر القديمة يطل على روضة المقياس ، وكان للخديو اسماعيل قصر فى روضة الجزيرة نفسها ، والبارودى فارس من فرسان حرسه وياور من ياورانه . ثم « مهاة شبره » (٢) ، و « غزالة الجزيرة » (٣) ثم « ليلى حلوان » ويسجل البارودى ليلة أنس قضاها معها فى قصيدة يقول فيها :

فى نشوة الخمر سر من مراشفها
وفى الأراكة شكل من تهاديها (٤)

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٢) أنظر الديوان (الجارم) جـ ٢ ص ١٠٨ .
(٣) أنظر الديوان (الجارم) جـ ٢ ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .
(٤) الأراكة : شجرة طويلة الساق كثيرة الورق والأغصان خوارة العو ديتخذ منها السواك .

يا ليلة بت أسقى من بنانتها
ومن لواحظها خمرا ومن فيها
حتى اذا رف خيط الفجر وابتدرت
حمائم الأيك تشدو فى أغانيها
قامت تمايل سكرى فى مآذرها
والروع يبغتها طورا ويثنيها
فعدت والعين غرقى فى مدامعها
والقلب فى لوعة تنزو نوازيها (١)

وروعة الغزل عند البارودى أنه صادر عن قلب لا يتكلف الحب بل يفيض به ويزخر ، فاذا نعم بحلاوته ولذته سال نغما يتدفق سلاسة وجمالا ، واذا عذبه الصد والشوق والهجران صاغ الألم فى عواطف لاذعة يمازجها حس دقيق ، يصور ذلك كله فى سهولة ويسر ، لأنه يصور واقعا تنبض به أحاسيسه فلا نلبث حين نقرؤها أن تنفذ الى أعماقنا ، وتتجاوب معه مشاعرنا . ويحب البارودى ويغرق فى الحب ، ويجهر بذلك ويعلنه على الملأ دون تحفظ أو خشية من لوم ، فهو يؤمن بأن الحب ضرورة لازمة لأنه فطرى فى المرأة والرجل ، وألم الصبابة هو الألم العبقرى الذى تحيا به نفسه (٢) ، وان الفتى الكريم لا يعيبه اللهو والتصابى ، فكل مسوق لما أريد له (٣) ، ويتصدى للائمين ويطلب اليهم أن يدفعوا عنه الصبابة ان استطاعوا ، أو فليدعوه وشأنه فليس له على الهوى أمر ولا نهى (٤) . ولم يوجه اليه اللوم ؟ ولو أنصفوا لكانت الغيد الحسان أولى باللوم منه كما يقول :

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

(٢) أنظر الديوان (الجارم) جـ ١ ص ١٢ .

(٣) الديوان (الجارم) جـ ١ ص ٢٤٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

يلومون أشـواقى كأنى ابتـــدعتها
ولو علموا لاموا الظباء الجـــواريا
ومالى ذنب عنـــدهم غـــير أننى
شدوت فعلمت الحمـــام الأغانيـا
وهل يكتم المرء الهـوى وهو شاعر
ويثنى على أعقابهن القوافيـا ؟ (١)

والبارودى فى أكثر حبه كان عفيفا لا يزيد مطلبه فى معشوقته عن اللمسة أو الهمسة ، والمناجاة أو البسمة ، وأكثر ما يكون مناه قبلة تطفىء لهب الشوق وحرارة الجوى . وكان البارودى يتيـه بعفته فى حبه ، ويراها موضعا لفخره ، ففى قصـيدته « ربة العود (٢) » يصرح بأنه « أبا للعين فيها ما تقر به » ، لكنه « زاد كف الصبا عن معقد الأزر » وفى قصيدة « أبى الشــــوق الا أن يحن ضمير (٣) ، بعد أن قضى الليل يشرب مع حبيبته خرج حين أقبل الصباح « يجر الذيل تيها وانما ، يتيه الفتى أن عف وهو قدير » ثم يعلن مذهبه فى اللهو والخلاعة والحب صريحا فى قوله :

وماذا على من خامر الحب قلبـــه
اذا مال معها للخـــلاعة والصـــبو
وهل فى الصبا واللهو عار على الفتى
اذا العرض لم يدنس بأثم ولا بغو (٤)

والواقع أننا نجد البارودى المحب فى أكثر تجارب حبه فاتك الصبوات فى قدسية وجلال ، عرف الحب شريعة وجدانية فلم

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٢) الديوان (الجارم) ج ٢ ص ٨٨ .
(٣) المصدر السابق ص ١٨ .
(٤) هذان البيتان لم يسبق نشرهما .

يتردد فى اعتناقها ولو كان رئيس وزراء ، فالحب عنده جذوةروحية تصل صاحبها بسرائر الوجود وترفعه الى أوج المجد والخلود كما يقـــول :

والعشـــــــق مكرمة اذا عف الفتى
عما يهيم به الغــوى الأصـــور (١)
يقوى به قلب الجبـــــان ويرعوى
طمع الحريص ، ويخضـــع المتكبر

ولكن دعواه العفة المطلقة وعدم مقارفته زلة فى الحب وانه لم يدنس غرامه بأثم أو اعتداء ينقضها اعتراف صريح منه بأن الشباب قد نزى به فانزلق وخرج عن خط العفة الذى رسمه لنفسه مرة ، وصراحة البارودى فى الاعتراف تدل على الصدق الفنى فى شعره فقد كان أمينا مع عواطفه وصادقا فى التعبير عنها حين قال :

وملمس عفـــة قد نلت منـــــــه
بأيدى اللهــــو ما شـــاء التمنى
ملكت به عنـــان الشـــوق حتى
قضيت لبـــانتى وأرحت ظنى (٢)

وقد بدا لبعض الكتاب (٣) أن يؤكدوا أن البارودى لم يكن صادقا فى غرامياته ، وقد جزموا بأن قصائده فى هذا الفن لم تكن الا محاكاة لأساليب القدماء ، ولا ندرى كيف جاز أن تقوم هـــذه الدعوى رغم صدق العاطفة التى تفيض بها غزليات البارودى ، فتصل الى قلوبنا وتشركنا معه فى آلام نفسه ومشاعره ، وملذاته ووساوسه ، وتجعلنا نحس الدموع التى يعبر بها عن يأسه تارة ولهيب الشوق فى حناياه تارة أخرى ، ورغم ما تذكرنا آيات شعره

---

(١) الأصور : المنحرف عن الرشاد .
(٢) هذان البيتان لم يسبق نشرهما .
(٣) محمد حسين هيكل فى مقدمته للديوان فرح الجارم ومعروف .

فى الغزل بغراميات « الشريف الرضى » فى كثير من الأحيان ، ورغم ما يصرح به البارودى نفسه فى شعره بأنه أحب وتنقل وتعذب وهجر وبكى وتألف فتقول له الدعوى : لا ، انك لم تفعل ولكنك تقلد الأقدمين !! وفى مقدمة ديوانه يقول البارودى نفسه عن دوافع قول الشعر عنده : « انما هى أغراض حركتنى ، واباء جمح بى ، وغرام سال على قلبى » فيأتى أصحاب الدعوى ويتهمونه بالكذب ، ويقررون ان الغرام سال على قلب غيره ، وما هو الا ناقل ومقلد له . ورائد هؤلاء محمد حسين هيكل السياسى الوزير ، ولعله بعقلية السياسى الوزير فى عصره أراد تنزيه البارودى عن مآثم الفتيان فكتب عنه وقد نسى أن البارودى مر بفترة الشباب ، وبقى فى مخيلته أنه وصل الى رئاسة الوزارة ، ويجب على الوزراء ورؤسائهم — فى تصوره — أن يعيشوا بلا قلوب ! !

وكذلك ذهبت الدعوى فى خمريات البارودى ، فقد اتهمت هذا الفيض القوى من حب الحياة والبهجة . وتعشق متعة الشراب وظلال أنسه الوارفة بالزيف ، وجعلته تقليدا لا ينبع من حس ، ولا يصدر عن عاطفة صادقة ، وذلك لأن محمد حسين هيكل ، مرة أخرى ، لم يتصور بعقلية عصره أن يجهر رئيس الوزراء بشربه الخمر أو أن يعرف الناس عنه أنه يشرب ، ومن ثم ذهب فى دعواه أن خمريات البارودى كانت تقليدا ، مع أن البارودى تغنى بالخمر وآثارها فى العقول والأحاسيس وأوصافها فى ألوانها وجدتها وعتقها، غناء خبير مارس الشراب حتى عرف أسرار التجربة . كل ذلك فى عاطفة تفيض قوة وحيوية ، بل تفيض فرحا وبهجة ولذة ، وكأنما يريد أن يمنحنا محبة الحياة . وديوانه ملىء بمجالس الشراب فى ليالى الأنس ، تارة فى ثنايا قصائده وطورا فى مقطوعات وقصائد مفردة ، يصف دنانها وحتى « صوت عطاسها حين تفتح للشراب » (١) ، وندمانها وكئوسها وسقاتها وصفا رائعا فى أكثره

---

(١) الديوان (الجارم) ج-٢ ص ١٥٢ .

يعبر بنا القرون الى الوراء لنستعيد ما نظمـه فيهـا ابو نواس وابن المعتز .

وأكثر ما يكون البارودى مبدعا حين تقترن نشوة الشباب فيه بفرحة الحياة وتستوعب أحاسيسه ذلك كله ثم تمزجه بجمـال الطبيعة وفتنة الحسان الجميلات ، ويغنيه العاشق المفتون بالجمال والمنتشي بابنة الكرم نغما يدفع قلوب السامعين الى مشاركته حياته ومتعته ، وحين نستعرض قصائده « غاد الندى بالجيزة الفيحاء »، أو «الا عاطتيها بنت كرم تزوجت» ، أو «وليلة أنس قصر اللهو طولها»، أو « أدر الكأس يا نديم وهات » أو « زمزمى الكأس وهاتى » ، أو « املأ القدح » ، أو « تغنى الحمام ونم الشذا » ، أو « نم الصبا وانتبه الطائر » (٢) وغيرها من « حبذا الراح فى أوان البهار » (١) نجد أن البارودى كان يحيا حياته فى شبابه كما يهوى يستأثر لنفسه بكل نعيم فى دنياه ، ويجمع جمعا بديعا بين الطبيعة والحب والخمر وكأنما تلتقى معانيها فى نفسه لقاء واحدا (٣) ومن جميل ما وصف لنا فيه ليلة من ليالى شرابه وأنسه قوله :

لاعب السـكر قـده فتثنى	ودعاه فـرط السرور فغنى
لم يزل يرضع السلافة حتى	غاب عنا كأنه ليس منـا
فأنمناه فـوق مهـد وثير	برهة ، كى يفيق ثم انصرفنـا
فلبثنا هنيهـة ثم لمـا	خف من سكره وأقبل قمنـا
وأدرنا الكؤوس حتى تولت	أنجم الليـل من أحاد ومثنى
يا لها ليـلة أبحنا بها اللهـ	ـو الى وردة الغداة وتبنا (٤)

---

(١) أنظر الديوان (الجارم) بالترتيب جـ ١ ص ١٩ ، ٢٢ ، ٦٩ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١٢١ ، ٢٦٠ ، جـ ٢ ص ١١٦ .

(٢) الديوان جـ ٢ ص ١٤٢ .

(٣) شوقى ضيف : البارودى ص ١١٣ .

(٤) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

وكذلك شأن الفرسان من رجال الحروب يستخفون بالحياة حين تورى الحرب زندها ، ويغرقون فى حبها ومتعها حين تغيب السيوف فى أغمادها ، وكأنما يعوضون أيام الشدة بالرخاء ، وأيام الخطر بالمتعة والنعيم ، أو لعلهم ينتهبون اللذة واللهو قبل أن تناديهم الخطوب مرة أخرى ، فلا يدرون ماذا يكون مصيرهم فيها ، كذلك كان البارودى كما يدل على نفسه بشعره وكما يخبر عنه عارفوه ومعاشروه وأبناء عصره (١) ، ويجسد لنا البارودى فارس القرن التاسع عشر المثال الرفيع للفارس العربى منذ ردت عنه الأساطير حين دخل التاريخ من بابه العريض فى القرن السابع مع امبراطوريته الواسعة الى حروب الصليبيين والتتار ، يعيد الى واقعنا صورته بجميع خطوطها وألوانها النفسية بعثا ونشورا ، حتى الظلال التى قد تعلق بالصورة من طريقة تناوله الحياة العامة والخاصة ، فتعكس السمو فى شخصيته والنور الذى يضىء جوانبها من عشقه وخمره وحبه لجمال الطبيعة وفخره وابائه وكرمه .

وعلى هذه الصورة ظلت قيثارة البارودى أثناء عمله بالقصر ضابطا وياورا للخديو تعزف أنغام الحياة التى يعيشها مستمتعا بحبه وصبواته ، متنقلا بين مجالس اللهو يجنى اللذة ويكرع الصهباء ، فخورا على الأقران بغار النصر الذى أحرزته فروسيته، وبما حشد فى نفسه من شيمة نبيلة تأبى الدنايا ، وعزمة ترد لهام الجيش وهو يمور ، وخلق كريم يزينه الوقار ، ويقرن ذلك كله بمجد آبائه السابقين فيفخر بنفسه ويتيه بأجداده على الدنيا . وديوان البارودى مفعم بالفخر الذى تسوقه أحيانا ريح التيه حتى تصل به الى حد الغرور ومن فخره بنفسه وجدوده قوله :

تأبى لى الضيم نفس حرة ويد
أطاعها المرهفان السيف والقلم

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٣٤ .

وعزمة بعثتها همـــة شـــهرت
بها على الدهر عضـــبا ليس ينثلم
وفتية كأسود الغـــاب ليس لهـم
الا الرماح اذا احمر الوغى أجـــم
مرفهون حســـان فى مجالســـهم
وفى الحـــروب اذا لاقيتهم بهم (١)

ويظل البارودى منطلقا فى لهوه يغنى ويفخر ، حتى أواخر عام ١٨٦٧ فتفتقد حمام الأيك أنغام الهوى من صديقها الشاعر ، ولا تعود تسمعه ينتقل من حبيب الى حبيب يشدو نغمات الحب، ويبكى ألم الصد ، ويذرف الدمع من لوعة الأسى ونار الهجران . ثم يأتيها صوته من بعيد يعزف لحن الاستقرار والعيش الهنىء فى قفصه الذهبى الجديد فقد وجد البارودى ألفه ، واهتدى الى القرين وتزوج (٢) بعديلة يكن .

---

(١) جمع بهمة : الشجاع الذى يستبهم مأتاه على أقرانه . هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

(٢) ذكرت بعض المصادر ، أن هذا الزواج هو الزواج الثانى للبارودى ، ولكن الأسرة تنفى أنه تزوج بأحد قبل زوجته عديلة .

الفصل الثانى

بين السياسة والثورة

مولد الثائر :

ويقبل عام ١٨٦٨ فاذا به من الأعوام الحاسمة فى حياة البارودى، فقد أعلن فى قصيدتين (١) أن السنة التاسعة والعشرين من عمره سنة فاصلة بين عهدين من حياته ، عهد الصبا واللهو والغواية ، وعهد الجد والمسئولية والهداية كما يقول :

نزعت عن الصبا وعصيت نفسى
ودافعت الغواية بالتأسى
ومن يك جاوز العشرين تترى
وأردفها بأربعة وخمس
فقد سفرت لعينيه الليالى
وبان له الهدى من بعد لبس

وكان من الممكن أن نصدق البارودى وهو يذكر لنا البواعث الظاهرة لهذا التحول حين يقول :

نظرت الى المرآة فكشفت لى
قناعا لاح فيه قتير رأسى

ولكنا نحس بريح ملتهبة بالعاطفة الوطنية الصادقة تطالعنا به

(١) الديوان (الجارم) ج ٢ ص ١٦٠ ، ٢٠٢ .

قصيدته الثانية ـ العينية (١) ـ وتفوح منها ثورة تجتاحه ونفسه ودنياه ، وتنقله من عالم الفردية الذاتية التى يعيش فيها الى محيط العمل من أجل الجميع ، ومن محور الحياة الخاصة الذى يدور فيه الى مجال النضال الوطنى الكبير ، ثورة يريدها أن تمتد من نفسه الى مواطنيه فتوقظهم ليستأصلوا أسباب ذلهم وعلة ظلمهم ، ويشعلوها نارا تذهب بأسباب العذاب والظلم . ومثل هذا التحول الكبير لا يمكن أن يحدث للبارودى فجأة ودون بواعث ومقدمات ، أو أن يسببه بلوغه سنا معينة عاشها البارودى فانفعلت بها نفسه وشحنت بها عواطفه حتى وصلت الى درجة التشبع فأفاق . والبارودى منذ عاد من حرب « كريد » أصبح بحكم عمله قريبا من مركز السلطة ومحور السياسة والحكم فى البلاد ، يلازم صانعها « ياورا » ، ويعيش مع مستشاريه من رجال المعية قرنا وزميلا ، ويرى البارودى الأحداث تسرع من حوله منذرة بالخطر حتى لتكاد تسلم الوطن الى نهاية مفزعة من الافلاس والخراب والوقوع فى أغلال النفوذ الأجنبى ، فتشده اليها فزعا مشفقا .

رأى البارودى « اسماعيل » وقد قرب اليه طغمة من المتمصرين والأجانب ـ يقودهم العميل الأرمنى نوبار ـ وجعلهم رسلا يجلبون له الملايين من البيوتات المالية الأجنبية قروضا تسوق البلاد الى الهاوية ، وتجرها الى مهاوى الاحتلال ، لينفقها على ملاذه ومباذله ، وشهد البارودى قبضة اسماعيل وهى تقطر بدم الضحايا من الفلاحين الذين اعتصرهم جباته وجلادوه حتى آخر درهم يملكون ، فى صورة ضرائب لم تسنها الا شهوة الطاغية الى المال . وزين له مستشاره طريق الفساد ، واخترعوا له الأساليب التى ترضى أهواءه ، وتمد بالمال معدة أطماعه ، وذكروه بما فعل جده محمد على من مصادرة الأراضى لتكون ملكا خاصا للوالى فهو نائب السلطان فى البلاد وخليفة الله فى أرضه والعباد .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٢ .

يرى البارودى كل هذه الأحداث ويرقبها ، ويشهد خفايا الأمور ويسمعها وهو صاحب النفس الأبية الحرة فيمضه الظلم ، ويخزه الفساد وخز الأبر ويفيق من سكرة الصبا ، ويجفو النوم عينيه كما يقول :

فسمع أنين الجور قد شاك مسمعى

ورؤية وجه الغدر حل عرى جفنى (١)

وتشده الأحداث بقوة الى دائرتها ، وما كان ليستطيع ولو أراد ان يكون بمنأى عنها ومعزل ، فهى أحداث يتعلق بها مستقبل أمته ، يراها ولا يستطيع أن يدفعها فتموج فى نفسه ثورة مكبوتة ، وتضيق عليه الأرض بما رحبت كما يقول :

وغدوت حـــران الفـــؤاد كأنما

ضـــاقت عـــلى برحبهـــا الآفاق

وتزداد الأحوال سوءا خلال عام ١٨٦٨ « فقد أسندت وزارة المالية الى اسماعيل صديق المفتش (٢) .. وكان هذا الرجل فى ذاته من الكوارث التى حلت بمصر (٣) » . ويرى البارودى البلاد تهوى الى الكارثة وقد انتهت مقاليدها الى ثالوث الطغيان : يجثم فى قاعدته اسماعيل المفتش ونوبار ويقبض على قمته الخديو اسماعيل، ويكشف البارودى حجب الغيب ببصيرة الشاعر ، فيرى سفينة البلاد تسرع بقيادة الثالوث الى صخور الهاوية لتتحطم ، وتهزه الأحداث فيفيق من سكرة الصبا ويقلقه الفزع والخوف على وطنه فيتغير كما يقول :

وهل يستفيق المرء من سكرة الصبا

اذا لـــم تهـــذب جانبيه الوقائع ؟

---

(١) هذا البيت لم يسبق نشره .
(٢) أخو اسماعيل من الرضاع مجهول الأصل ويقال أنه جزائرى المولد .
(٣) الرافعى : عصر اسماعيل جـ ٢ ص ٣٢ .

وتشهد سنته التاسعة والعشرون من عمره هذه الأفاقة وذلك التغيير ، فتحظى بمولد البارودى الثائر .

ويفكر البارودى ويطيل التفكير فى عمل يقف به تيار الفساد الاقتصادى والاجتماعى والسياسى الذى يجر البلاد الى الهاوية ، ولكن عجز الوسيلة يشل تفكيره ويكبت ثورته ويعود البارودى الى نفسه فيجدها وحيدة عاجزة عن أن تفعل شيئا ينقذ الوطن من الذئاب التى تكاثرت عليه فيتألم ، وتضطرب جوانحه « بثورة مكبوتة » ، ثورة على الحاكم الظالم وثورة على الحاشية الفاسدة ، وثورة على المواطنين الذين أذلهم الطغيان حتى عدموا الأحساس بأنسانيتهم ووجودهم وتسعفه ربة الشعر بقيثارتها لينشد عليها نشيد « الثورة المكبوتة »(١) ، يذكر فيه اسماعيل وجشعه فى جمع الأراضى والمال ويتنبأ له بالنهاية المحتومة لكل جشع ظالم فيقول :

يود الفتى أن يجمع الأرض كلها
اليه ولما يدر ما الله صانع
فقد يستحيل المال حتفا لربه
وتأتى على أعقابهن المطامع
فذرهم يخوضوا انما هى فتنة
لهم بينها عما قليل مصارع

ثم يبلغ به الشعور الوطنى ذروته فيدعو قومه الى الثورة على الأوضاع الفاسدة ، دعوة تثير فيهم الحمية ، وتهزهم من مضاجع الغفلة ، فيمس مواطن الخزى التى يعيشون فيها من هوان وذل وظلم ، ويحاول أن يدفع عنهم الخوف الذى ملأ قلوبهم ، ويدعوهم الى حمل السلاح لتكون ثورة مسلحة تقضى على رءوس الفساد فيقول :

---

(١) الديوان : الجارم : ج ٢ ص ٢٠٢ ـ ٢١٣ .

فيا قوم هبوا انما العمر فرصـــة
وفى الدهـــر طرق جمـــة ومنافع
أصبرا على مس الهـــوان وأنتـم
عديد الحصى ؟ انى الى الله راجـــع
وكيف ترون الـــذل دار اقامـــة
وذلك فضـــل الله فى الأرض واسـع
أرى أرؤسا قد أينعت لحصـــادها
فأين ولا أين الســـيوف القـواطع
فكونوا حصيدا خامدين أو افزعوا
الى الحـرب حتى يدفع الضيم دافع

ولكنها صرخة تذهب قبض الريح ، ويعود صـــداها يتعثر فى أذيال الخيبة ، وحيدا كأنه مر بصحراء بلقع ، ويتلفت البارودى حوله فلا يجد سميعا لندائه ولا مجيبا له ، وكأن مواطنيه قد وضعوا أصابعهم فى آذانهم كيلا يسمعوا ، وآثروا أن يكونوا حصيدا خامدين فيثور البارودى عليهم ويقول :

اهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة
الى ، ولبانى الصدى وهو طـــائع
فلـــم أدر أن الله صـــور قبلكم
تمـــاثيل لم يخلق لهن مســـامع

وثورة البارودى على الأوضاع الفاسدة عام ١٨٦٨ ودعوته قومه الى الثورة واستعمال القوة حدث وطني يستحق الدراسة والاهتمام. فالبارودى لم يكن من الطبقات المظلومة التى تعانى ارهاق الضرائب أو محنة السخرة ، ولم يمس عرضه بأذى من فجور الخديو وبطانته، ولم يهضم حق من حقوقه فى الرتب العسكرية أو المراكز المدنية ، بل كان على النقيض من ذلك ، كان الجراكسة وهم الطبقة التى حظيت بالامتيازات فى الدولة والتى يختار منها أنصار الخـــديو ومعاونوه وضباط جيشه ، يرفل فى الثراء والنعيم ، ويعمل حارسا

للخديو ثم ياورا ، ويصاهر الأسرة الخديوية بزواجه من بنت أحمد يكن ابن أخت محمد على ، ولو أننا تعمقنا دراسة «القصيدة العينية» التى خرجت منها صيحته الأولى للثورة ، وما احاط بها من ظروف نفسية للشاعر لوجدناها صرخة صادرة عن وطنية صادقة ، أطلقها البارودى الشاعر ذو الاحساس المرهف ، والنفس الحرة الكبيرة ، انبعثت من شعور الفنان المتألم للحرية المذبوحة فى وطنه ، وللظلم الذى يجثم على صدر مواطنيه ، وللارهاب الذى يفــرى كرامة المصريين وقلوبهم ، فيهيب بهم أن يهبوا للثورة ، وهنا يظهـــر البارودى الفارس فيمد الفنان بالوسيلة والأداة وهو لا يعرف فى هذه المرحلة من حياته الا السيف والنطع حلا للمشكلات السياسية، ومن ثم دعا قومه الى الحرب ، والى معركة تطيح برءوس الأرهاب وتخلصهم من الفساد .

والذين كتبوا عن البارودى من المؤرخين السابقين ساروا على النهج الذى رسمته « حملة التشـــهير » المدبرة التى قامت عقب الاحتلال البريطانى وسلطت على زعماء الحركة الوطنية العرابية سموم أقلامها ، ووجهت اليهم أكاذيبها ومفترياتها ، حتى تنال من سمعتهم ، وتشوه وطنيتهم فتقتل فيهم المثل العليا للأجيال التى تجىء بعدهم حتى يفقدوا الثقة فى الزعامة الوطنية ، فتخمد فى نفوسهم روح الكفاح ويموت فى قلوبهم نبض الحمـــاس للوطنية الذبيحة على يد الاستعمار وأعوانه . زعمت حملة التشويه وتبعها ــ بحسن نية ــ من كتب بعدها من المؤرخين ، أن صرخة البارودى لانقاذ وطنه ورفع شعار الحرية فيه لم تكن من أولها صرخة بريئة لوجه الوطنية والحرية ، بل دفعته اليها أغراض شخصية من اطماع ذاتية وآمال تراوده فى تولى الملك !! والحقائق تجعلنا نختلف مع أولئك الذين ذهبوا هذا المذهب فى القاء التهمة جملة دون تفصيل أو توقيت ، فالبارودى حين صرخ صرخته الوطنية الأولى عام ١٨٦٨ وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، ودعا الى ثورة مسلحة لم يكن يهدف الا الى صالح وطنه وانقاذ مواطنيه فأطلقها نفثة مصدور آلم

قلبه الظام وشاك سمعه أنينهم . وظروف البارودى وقتذاك من صغر سنه ومركزه الوظيفى ، وعدم توافر أمكانيات الثورة الحربية ووسائلها من قوة عسكرية ، أو قوة شعبية تؤيده ، أو أنصـــار وأعوان يقفون الى جواره وهو يقود انقلابا يزيل به النظام القـــائم ويتولى على أثره الملك تجعل الأمل المزعوم ضربا من الوهم ، ونوعا من الخبال . ولم يعرف عن البارودى أنه كان موهوما أو مخبولا !!

وحقيق بالبارودى أن يجد الأنصاف من وطنه فيعترف له بأن صوته كان أسبق الأصوات فى الدعوة الى الثورة المسلحة على الفساد والظلم فى مصر الحديثة . وجدير بالتاريخ أن يسجل له هــــذا السبق ويذكر له بالتقدير شجاعته الوطنية « فى وقت بلغ فيــه الاستبداد أشده ، والظلم جاوز حده ، والطغيان فى عنفوانه ، والقهر قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد والناس كلهم عبيد له أى عبيد !! (١) حقيقة أن صيحته الأولى لم تجد لها صدى فى نفوس الشعب ، ولم يشفع البارودى قوله بعمل ايجابى سريع لقلة العون والأنصار ، ولكن صيحته ظلت تدور فى سماء الوطن تطن فى أذن المواطنين حتى تبعتها صيحات آخر منه ومن غيره ، فارتفعت الصيحات حتى اخترقت الآذان ومست القــــلوب ، وأزالت عن الأفئدة خوفها واستردت شجاعتها فقامت بالثورة .

وكان البارودى ذا بصيرة ورأى ، فعايش الاستبداد والرجعية وأهلهما وهادنهم رغما عنه كما يقول :

أعاشرهم رغمــا ، وودى لو أن لى
بهـــم نعما أدعو به فيســـــــارع

ولعله عايشهم ليجد فرصة ينشر فيها رأيه ويجمع الأنصار من حوله ، أو لعله خشى أن يقابل رضا اسماعيل وعطفه بالتخلى عن

---

(١) محمد عبده : تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ١٢ .

خدمته فيستجلب نقمته أو يثير من حوله الشكوك وما أكثرها فى عهد اسماعيل ، ذلك الذى يجعل النفى والتشريد لمن لا يجوزون رضاه ويأخذ الناس بالظنة ويقتلهم بالشبهة ، آثر البارودى سياسة الانتظار والصبر والملاينة ، ومع ذلك فلم يكن — وهو الشاعر — بمستطيع أن يكتم الثورة التى تجتاح نفسه ، فكانت تخرج سما فى شعره ، وشواظا من نار سخريته وهجائه ، يطلقها على ثالوث الفساد والطغيان وأعوانهم ، ويصليهم بذمه ومكائه ، يصمهم بالعار ويسجل مثالبهم للتاريخ . يهجو نوبار فينشد فيه قصيدته التى يقول فيها (١) :

وصالك لى هجر وهجرك لى وصل
فزدنى صدودا ما استطعت ولا تألو
وكيف أود القرب من متلون
كثير خبايا الصدر شيمته الختل
بك اسودت الأيام بعد ضيائها
وأصبح نادى الفضل ليس به أهل
فما نكبة الا أنت رسولها
ولا خيبة الا وأنت لها أصل

وفى اسماعيل صديق المفتش وزير مالية اسماعيل يقول (٢) من قصيده فى هجائه :

يا سابق الشيطان فى فعله
أمنا كفى أنك من حزبه ؟

(١) دلتنى كريمتا الشاعر الفاضلتان فاطمة ومشيرة على أن هذه القصيدة قيلت فى نوبار والقصيدة كاملة — الديوان (الامام) ج ٢ ص ٥٩٦ — ٦٠٥ .

(٢) ذكرت لى كريمتا الشاعر أن هذه القصيدة قيلت فى إسماعيل صديق المفتش .

لو لم تكن فى الدهـــر مســـتوزرا
ما ســـارع النـــاس الى ســبه
أنت الذى لولا خمـــول الورى
ما نام من أمن على جنبـــــه
يفعـــل بالنـــاس أفاعيـــله
ولا يخـــاف الله من ذنبـــه (١)

ويمتد هجاؤه الى الذين يعاونون فى الحكم جميعا ويذم سيرة رجال الحكومة الاستبدادية على عهد اسماعيل فيقول :

وأناس صـــحبت منهـــم ذئابا
تحت أثـــواب ألفـــــة ووداد
أظهروا زخرف الخـــداع ، وأخفوا
ذات نفس كالجمـــر تحت الرمـــاد
فترى المرء منهم ضـــاحك الســـ
ـــن وفى ثوبه دمـــاء العبـــاد
حكمـــوا مصـــر وهى حاضرة الدنـــ
ـــيا وقد ســـما حسنها فى البوادى
أصبحت بعـــدهم جحيما وكانت
جنـــة ليس مثلها فى البـــــلاد
وقمـــوا بين معدنهـــا وقـــراها
بضروب الفســـاد وقع الجـــراد
فى زمان قـــد كان للظلم فيـــه
أثر النـــار فى هشيم القتـــاد (٢)

وفى ٨ يونيو ١٨٧٣ صدر الفرمان الجامع وفيه تغير أســـلوب وراثة العرش فى مصر فانحصر فى الابن الأكبر ، وتحددت به ولاية

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٢) الأبيات الأربعة الأخيرة لم يسبق نشرها .

العهد فى محمد توفيق بن اسماعيل ، وعين محمود سامى البارودى كبيرا لياوران ولى العهد (١) الجديد ، وتهيأت بذلك فرصة للبارودى عرف فيها توفيق عن قرب ، ووضع يده على مفاتيح شخصيته التى تحكمت فيها عوامل كثيرة سببتها نشأة توفيق وعلاقته بأبيه فأخرجت منه انسانا ضعيف الرأى مترددا قليل الشجاعة والحزم (٢) ، وكان قد ولدته احدى جوارى اسماعيل ، فلم يعامله المعاملة الخليقة بولى عهده ، وكانت نشأته بين سيدات الحريم أكثر مما هى بين الرجال ومن ثم نشأ ضعيفا لا يسعه الا الاذعان لكل ارادة أقوى من ارادته ، ولكنه يسعى بعد ذلك لتنفيذ ما يريد بالطرق الملتوية الخفية (٣) . عرف البارودى عنه كل ذلك خلال الشهور الثلاثين (٤) التى قضاها كبيرا لياورانه ـ فلم يحمل له احتراما طوال حياته . وفى أكتوبر ١٨٧٥ نقل البارودى كاتب السر الخاص (سكرتيرا) لاسماعيل (٥) .

عاد البارودى الى معية اسماعيل فوجده وكأن الشيطان يتخبطه من المس بعد أن بلغت ديونه ٩٦ مليونا من الجنيهات رهن فيها كل موارد الدولة ، وأحاط به الدائنون من كل مكان وشددوا عليه قبضة السداد ، وهددته الدول التى ترعى مصالح الدائنين باشهار افلاسه فارتكب الجريمة الوطنية الكبرى ، وباع أسهم مصر فى قناة السويس (نوفمبر ١٨٧٥) لانجلترا فمهد الطريق أمامها للاحتلال الذى أصبح بعد ذلك أمرا لا مفر منه .

---

(١) مراثى الشعراء ص ١١ ، مقدمة الديوان شرح الامام .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى (١٩٤٩) ص ٢٢ .

(٣) التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر ص ٩٥ ـ ٩٦ ، الرافعى الثورة العرابية ص ٢٢ .

(٤) مراثى الشعراء ص ١١ .

(٥) المصدر السابق .

وتتحالف القوى المبتنزفة للمالية المصرية لتدفع بها الى الافلاس فبينا ترزح البلاد تحت ديون اسماعيل ، وينتهك التدخل الأجنبى استقلالها ــ تطلب تركيا نجدة من الجيش المصرى لتعينها على ثورة الهرسك وبلاد الصرب ، ولا يجد اسماعيل فى خزائن الدولة الخاوية ما يعد به الحملة ، فيوفد البارودى الى الاستانة برسالة خاصة عل السلطان يقبل اعتذار مصر ويعفيها من العبء الجديد ، ويقيم البارودى فى الاستانة ثلاثة اشهر (١) ثم يعود الى مصر يحمل تهديد السلطان ووعيده ، ويفرض اسماعيل على الشعب المرهق « ضريبة الجهاد » وتسافر الحملة لتقدم الشبيبة المصرية ضحايا لحرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، « ويوفد البارودى الى الاستانة برسالة أخرى تختص بالفتنة البلغارية وخروج الجبل الأسود على تركيا (٢) ، ويتعرض البارودى فى هذه الرحلة للموت (٣) ولكنه ينجو ليعود الى الوطن فيجد ما هو أشد على نفسه من حمام يؤده ، وجده وقد زحف عليه أخطبوط الاستعمار الأوروبى سافرا فى صورة الرقابة الثنائية من فرنسا وانجلترا (نوفمبر ١٨٧٦) وفى القصر وجد نيرون مصر ينقض على صحبه وأوليائه ، ليتخلص منهم فى جنون الخائف ، وفزع المستبد الذى ضعف أمره ، وضيق عليه الخناق فانكشفت جرائمه ، ولا يجد له مهربا الا فى القضاء على شركائه ثم القاء التبعة عليهم فلا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم (٤). ويعاف البارودى القصر ومن فيه ، ويكره العمل الذى يربطه به فيطلب العودة الى الجيش .

---

(١) مراثى الشعراء ص ١١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الجوائب المصرية : ١٩٠٤/١٢/١٥ عدد ٥٧٢ .

(٤) اغتال صديقه اسماعيل المفتش فى نوفمبر ١٨٧٦ .

فيض المعـــركة :

وتواتى البارودى الفرصة ليعود الى الجيش فى اعلان الروسيا الحرب على تركيا (ابريل ١٨٧٧) وتستنجد تركيا بمصر فتنجدها بحملة من اثنى عشر ألف مقاتل (١) ، وينضم البارودى الى الحملة قائدا من قوادها لعل الحرب تفسل آلام نفسه أو تنسيه ما حـل بوطنه من الذل والهوان ، وما ينزل به من عذاب على يد جلاديه « رجال الحكومة الاستبدادية » .

أقلعت الحملة فى مايو ١٨٧٧ الى الاستانة ثم الى « وارنة » على البحر الأسود (٢) ولا يلبث الفارس حتى يجد نفسه على أرض المعركة قاب قوسين من اللقاء الذى يتوق اليه ، يصحبه فيـــه « حسام وطرف أعوجى ولهذم » ويأخذ البارودى فى الاستعداد للمعركة فلا يترك لعنصر المفاجأة منفذا ، ولا يهدأ حتى يعد لكل أمر عدته ، ثم يأوى الى خيمة القائد فيسمع نشيجا يحـــاول المرافق أن يكتمه حتى لا يسمعه قائده ، وتهتز عواطف الفنان فيه ، وتستثار شاعريته ، وتسرع اليه ربة الشعر بقيثارتها ليغنى ، فيبدأ بصلاة وابتهال قربانا للوطن البعيد ، ولمغانى حبه وصباه فى « روضـة المقياس » تلك التى ما ان فارقها حتى أخذ يحن لها شوقا ودون مزارها مسالك يأويها الردى ومنادح ، ويكشف عما يتنازعه من شرف الواجب والحنين الى الوطن ، فيبعث للوطن بالدعاء ويؤثر البقاء ليعدو على جمع العدا فيكافح ، ويرسم لوحة لأرض المعركة بعد أن عسكر فيها بجيشه ثم يحدد ملامح الصورة فيضع فيهـــا تنظيم الجيش للمعركة المقبلة بتفاصيلها فيقول :

---

(١) قدر محمود فهمى الحملة بخمسة وعشرين ألفا فى كتابه البحر الزاخر جـ ١ ص ٢٠١ .

(٢) ذكرت الجوانب المصرية فى عددها ٥٧٢ فى ١٩٠٤/١٢/١٥ أن مركزه كان فى « وارنة » ثم فى « رسجق » وآخر فى « فيليبيه » .

مدافعنا نصب العـــدا ومشـــاتنا
اقيام تليها الصـــافنات القوادح (١)
ثلاثة أصـــناف تقيهن ســـاقة
صيال العدا ان صاح بالشر صائح (٢)

وينثني الى بكاء الرفيق ، ذلك الذى يخشى عليه من الردى وهو يعرف أن البارودى القائد يتقدم جيشه فى المعركة ، والعدو يستهدف القائد بالاصابة فيسدى اليه النصح ، ويحكى البارودى ما دار بينه وبين الرفيق فيقول :

ولم يك مبكاه لخـــوف وانمـــا
توهـــم أنى فى الكريهـــة طـــائح
فقال اتئـــد قبل الصيال ولا تكن
لنفسك حـــربا ، اننى لك ناصـــح
ولا رأى الا أن تكـــون بنجـــــوة
فانك مقصـــود المكانة واضـــح
فقلت تعـــلم انمـــا هى خطـــة
يطول بهـــا مجـــد ، وتخشى فضائح
فان عشت صافحت الثريا وأن أمت
فان كريما من تضـــم الصـــفائح

وبعـــد أربعـــة أشهر (٣) يصل الجيش المصرى الى مقاطعة « سرنسوف » بأوكرانيا ، ويقبل « عيد الفطر » وكان البارودى قد فقد الشعور بحساب الزمن بعد أن استحوذت الحرب على قلبه وعقله ، وأعطاها كل نفسه ، ولم تعد الحياة عنده الا صبحا يغير فيه على الأبطال وليلا يأوى فيه الى الأدغال (٤) ، وتستغرقه المعارك فلا يدرى من أمر « العيد » شيئا حتى يخبره به مرافقوه ، وفجأة

---

(١) الصافنات القوادح : الخيول ، الأصيلة التى بلغت الخامسة من عمرها .
(٢) ساقة الجيش : مؤخرته .
(٣) اكتوبر ١٨٧٧ شوال ١٢٩٤ .
(٤) الديوان (الجارم) جـ ١ ص ١١٣ .

ينحسر عنه لثام الفارس ، ويظهر من تحت السرد الأب الحنون والحبيب المشوق والصديق والمواطن ، وتترى الذكريات اليه من كل جانب : ذكريات الحمى والأهل والصحاب ، وتهجمه الغربة والوحدة بآلامهما وعذاباتهما فى بلاد لا صلة تقرب بينه وبين أهلها . يمور كل ذلك فى عواطفه ، وتضغط الآلام على نفسه ثم تجد المتنفس فى لسانه فيحكى ، وينشد ما فعلت به ذكريات العيد وهو غريب فيقول :

ألا أيها اليوم الذى لم أكن له
ذكورا ، سوى أن قيل لى هو عيد
أتسألنا لبس الجديد سفاهة
وأثوابنا ما قد علمت حديد

ثم يصف البلاد الذى يقضى بها العيد مقاتلا ومحاربا وصفا تخالها ماثلة لك فيه ، ويصور الحركة والصورة بحيث تتوهم أنك ترى وتسمع فيقول :

بلاد بها ما بالجحيم ، وأنما
مكان اللظى ثلج بها وجليد
تجمعت البلغار والروم بينها
وزاحمها التاتار ، فهى حشود
اذا راطنوا بعضا سمعت لصوتهم
هديرا تكاد الأرض منه تميد

وبين الذكريات الحلوة والواقع الموحش تظهر اللهفة الى العودة وأمنية اللقاء فيقول :

فمن لى بأيام مضت قبل هذه
بمصر ؟ وعيشى لو يدوم حميد
عسى الله يقضى قربة بعد عودة
فيفرح باللقيا أب ووليد

ويكتب البارودى الى الصحب والرفاق فى الوطن عل حديث الشوق منهم يطفىء لوعة الوجد عنده ، غير أن البريد يتأخر ،

ويمضى زمن لا يأتيه فيه قادم ببشرى ، ولا يعطف عليه بريد ، فيؤرقه القلق ، ويبرحه الشوق ، فيغنى آلامه ومواجده ، ويكتب الى صديقه واستاذه « حسين المرصفى » . ولكن كتبه تثوى شهرا وليس لها رد ، فيهرع البارودى الى قيثارته ، ينشد عليها عاتبا ومغاضبا ، ويفيض فى وصف احساسه وشوقه الى الوطن حتى ليكاد المرء يسمع فيها صوت « الوابور » ينعب بالبين والفراق ، ويلمس من ألفاظها لوعة النأى وحرقة الاغتراب ، ويحس فيها القلق والترقب للبريد المتأخر ، ويرى صورة متحركة للمعركة مع أمة الروس والبلقان فى قوله :

أدور بعينى لا أرى غير أمة
من الروس والبلقان يخطئها العد

جواث على هام الجبال لغارة
يطير بها صوت الصباح اذا يبدو

اذا نحن سرنا صرح الشر باسمه
وصاح القنا بالموت ، واستقتل الجند

فأنت ترى بين الفريقين كبة
يحدث فيها نفسه البطل الجعد (١)

اذا اشتبكوا أو راجعوا الزحف خلتهم
بحورا توالى بينها الجزر والمد

وبين كل ذلك يظهر البارودى الفارس وسط المعركة :

صئول وللأبطال همس من الونى
ضروب وقلب القرن فى صدره يعدو(٢)

فما مهجة الا ورمحى ضميرها
ولا لبة الا وسيفى لها عقد

---

(١) الكبة : الحملة يحملها الجيش ويندفع بها على عدوه .

(٢) الونى : الضعف والاعياء . القرن : من يقاوم وهو نظير فى الشجاعة .

وظلت الحملة المصرية تحارب نحو عام فى بلغاريا وأكرانيا بشجاعة وجـــرأة وأبلى الجنـــود المصريون بلاء حســـنا ، حتى وضعت الحرب أوزارها ، واضطر الترك الى عقد معاهدة « سان اســـتفانو » المشهورة فى مارس ١٨٧٨ ، وأنعم على البارودى برتبة اللواء والوســـام المجيـــدى من الدرجة الثالثة ونيشان الشرف (١) لقاء ما قدمه من ضروب الشجاعة وألوان البطولة .

واستيقظ المـارد :

ترك البارودى تركيا وهى تجر أثواب الهزيمة فى حـــربها مع الروسيا ، وعاد ليجد فى مصر نصرا مؤزرا .. نصرا حققتــه الصحافة والأدب فى ايقاظ الرأى العام وتجميعه وتحريكه ، ويسمع فى ندوته الأدبية أخبار ذلك النصر ، ويحكى له صديقه « محمد عبده » قصة التطور فيقول : « منذ نشبت الحرب بين تركيا والروسيا وجد الناس من نفسهم لذة فى الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة الروسيا، فتطلعوا الى ما يرد من أخبار الحرب وسهلت كثرة الأجانب فى البلاد ورود الجرائد الأوروبية الى طلابها من الأوروبيين ومهـدت مخالطتهم للعامة والخاصة الطريق الى العلم بما فيها ، فزاد تشوق الناس الى الوقوف على حوادث تلك الحرب ، وسرى هذا الشعور الى بعض الجرائد العربية التى كانت لا تزال الى هذا العهد قاصرة على ما لا يهم ، فانطلقت فى ايراد الحـــوادث ونشرها .. وأخذ الشيخ جمال الدين فى حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وانشاء الفصـــول الأدبية والعلمية فى مواضيع مختلفة لا تخرج جامعتها عن اصلاح الأفكار ، وتهذيب الأخلاق ، فتسابق الى ذلك الكتاب ، وتبارت الأقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد الى درجة يظن

---

(١) مراثى الشعراء ص ١٢ .

الناظر فيها أنه فى عالم خيال ، أو أرض غير أرض الخيال (١) »

ثم يسمع البارودى تلك المناقشات تدور جهارا فى المجالس والمنتديات ، ولكنها تتحاشى ذكر اسماعيل بنقد أو التعرض له بذم على الملأ ، فالخوف منه مازال يعقد الألسنة « الطاغية فى كل مكان ، وهو لا يرحم مصريا يرفع راية العصيان » وينصت البارودى الى الهمس يسرى فى المجالس الخاصة حول الدكتاتور الذى أذل المصريين بظلمه بينا يركع اليوم هوانا وضعفا أمام « لجنة التحقيق الأوروبية » ، وقد تغلغل نفوذها فى البلاد ، واصبح سلطانها فوق كل سلطان . ويتوقع البارودى بلحاظ رأيه نهاية اسماعيل ، وترى بصيرته ــ ولها من وراء الغيب اذن سميعة وعين ترى مالا يراه بصير ــ قرب الخلاص من حكمه ، ويذكر يوم نادى الأحرار ليتعجلوا هذه النهاية بالثورة المسلحة فلم يستمعوا النداء ، واضطر وقد خذله قومه أن يغمض عينه على القذى ، فيشكو لقيثارته ويقول :

لعمرى لقد ناديت لو أن سامعا
ونوهت بالأحرار ، لو أن منقذا
وطوفت بالآفاق ، حتى كأننى
أحاول من هذى البسيطة منفذا
اذا ما رأيت الشيء فى غير أهله
ولم أستطع ردا ، طرفت على قذى

ونجد البارودى فى هذه الفترة يمزج دعوته الى الثورة للاصلاح بآماله العراض ، ويكشف عن مكان المجد الذى تنازعه اليه نفسه حتى يخرج أمته من المحنة التى تطحنها ويقودها الى المجد السياسى ويخلصها من ظلمة الجور فى قوله :

فحتى متى يا دهر أكتم لوعة
تكلف قلبى كلفة الريح بالشذا ؟

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٣٧ ــ ٣٨ .

ألم يأن للأيام أن تبصر الهـــــدى
فتخفض مأفونا ، وترفع جهبـــذا
اذا لم يكن بالدهر خبـــل لما غـدا
يســير بنا فى ظلمة الجـــور هكذا

وفى ابريل عام ١٨٧٨ يعين البارودى « مديرا » للشرقية (١) فيمكث بها أربعة أشهر ، يرى فيها رأى العين صنوف العـذاب وألوان الأرهاق التى يعانيها الفلاح من أعوان الخديو تارة ومن مندوبى التحصيل للرقابة الثنائية تارة أخرى ، ثم يعود البارودى الى القـــاهرة فى سبتمبر ١٨٧٨ بعد أن عين رئيسا لضبطيتها (محافظا) (٢) ، ليجدها تتأجج برد الفعل الذى أحدثه تأليف وزارة مختلطة (أغسطس ١٨٧٨) ، ويمور الرأى العام فيها بثورة تكسر آخر قيد يمنع المارد من الانطلاق . واسماعيل سفاح الشعب بالأمس يجأر اليه ويستنجد به اليوم ليقف معه فى محنته ، وليشد أزره أمام النفوذ الأجنبى الذى يحفر له قبره ويدفعه الى نهايته المحتومة . « فيشعر الشعب بقوته وحاجة الحاكم اليه ، ويتنبه الرأى العام فيه الى أنه يستطيع أن يقف الظلم ويطالب بحقوقه ، وأن من حقه مراقبة الولاة والحكام ، ورفـع صوته بنقدهم (٣) » .

عبأت الوزارة المختلطة بتكوينها المهين للكرامة القومية وبأعمالها المثيرة للخواطر شعور الشعب بالكراهية نحوها من أول يوم لها ، وزادت الكراهية حين ظلت تمعن فى اذلال الأمة وتحابى المصالح الأجنبية حتى لم يبق للصبر منزع فتفجرت الثورة عليها فى صفوف الجيش ، وخرج الضباط يستردون كرامة الأمة ويطيحون بنوبار ووزارته الأوروبيـــة . ظهرت بوادر الخطر واضـــحة فى الانبعاثة

(١) مراثى الشعراء ص ١٥ .
(٢) مراثى الشعراء ص ١٥ .
(٣) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ص ٢١٩ .

الوطنية الجديدة بين الأمة على أصحاب المصالح المشتركة من الرجعيين والاستعمار فأسرعوا الى الاتفـاق حتى يكونوا جبهـة يقفون بها تيار الشعور الوطنى قبل أن يجرفهم جميعا ، وامتصوا دفعة الكراهية وفورة الثورة بتغيير الواجهة والمظهر الخارجى فعين محمد توفيق ولى العهد رئيسا لمجلس النظار (مارس ١٨٧٩) ولكن توفيقا لم يكن بأكثر وطنية من نوبار ، ولم تكن وزارته بأحسن حالا من الوزارة السابقة ، بل كانت أسوأ منها ، ذلك أنه فوق تعيين الوزيرين الأوربيين مثار الشكوى ومناط الاهانة الوطنية تقرر أن يكون لهما فى مجلس النظار الحق فى وقف كل عمـل لا يوافقان عليه ، وعادا أقوى مما كانا عليه وصارا صاحبى الكلمة النافذة فى شئون الحكومة جمعاء ففقدت الوزارة صبغتها القومية ، وفضت مجلس شورى النواب بعد خمسة أيام من تشكيلها فدل مسلكها على أنها تبغى حكم البلاد بارادة المستعمرين !! .

نداء الثورة :

رأى الشعب فى توفيق دكتاتورا تحت التمرين لن يلبث حتى يتمثل فوق خضوعه للنفوذ الأجنبى طغيان أبيه وسيرته الأولى ، فاضطربت الأفكار وثارت الخواطر وقويت فى النفوس فكرة « الكرامة القومية » ، واتجه الرأى العام الى مناقشة السبل التى تخلصه من التدخل الأجنبى كله واسقاط الوزارة الأوروبية الثانية ، وأخذت مراكز القوى الوطنية كلها تموج بالغضب والثورة ، وتتحرك فى اتجاه متشابه ، ولكنها كانت يعوزها الربط والتجميع حتى تتكتل فى حركة واحدة توجه بها رأس الحربة الى قلب الرجعية والاستعمار ، ذلك لأنها افتقدت الزعيم الذى يمكن أن يقودها فى ثورة تستأصل الفساد وتطهر الوطن من أعدائه الرجعيين وطلائع الاستعمار .. الزعيم الذى ترضى عنه صفوف القوى الوطنية لغيرته القومية وحميتـه الوطنية ومكانته وسمعته بين مواطنيه .

وكان البارودى قد أحس بالآمال قد نيطت به ، وبالأنظار قد

تطلعت اليه فخرج على الأمة « بنداء الثورة » يبدؤه فيقدم نفسه الى مواطنيه ليعرفوا فيه الأمير الحق والقائد المرجو ، وليقارنوا بينه وبين من فى دست الحكم ، فهو الذى وهب نفسه للمجد وطلابه حتى بلغ منه قممه الشماء ، وأعد للحياة سيفه ورأيه وهمته التى لا يشغلها الصغير من الأمور ، وهو الشجاع الذى لا يقهر ، والحذر الذى لا يخدع ، وقد علمته التجربة ، وكفه حلمه عن التهور ، فما كشف قناع الحلم عن سفه ، ولا مسح جبين العز من خجل ، ثم يشرح الأسباب التى يدعوهم من أجلها الى الثورة ، وكيف استهدفهم بالأذلال والقهر حكام بلغ بهم الفساد والذلة لطلائع الاستعمار درجة عافتهم بسببها كراسى الحكم وكادت أن تلفظهم :

من كل وغد يكاد الدست يدفعه
بغضا ويلفظه الديوان من ملل (١)
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت
قواعد الملك حتى ظل فى خلل
واصبحت دولة الفسطاط خاضعة
بعد الأباء وكانت زهرة الدول

ويضرب على أوتار العزة والكبرياء فى مواطنيه فيصور ما أصاب بلادهم حين تسلط الطغاة ، وتحكموا فيها بظلمهم ففسدت الأخلاق وتخبط الناس فى ظلمات اليأس ، ثم يستثيرهم ويشعل لهيب الكرامة فيهم ليصبوا جام غضبهم على ظالميهم ويندفعوا الى الثورة فيقول :

لم أدر ما حل بالأبطال من خور
بعد المراسى وبالأسياف من فلل
لا يدفعون يدا عنهم ولو بلغت
مسّ العفافة من جبن ومن خزل

---

(١) الدست : فارسية تستعمل للمجلس والديوان .

خافوا المنية فاحتـــالوا وما علموا
ان المنيـــــة لا ترتد بالحيـــــــل

هيهات يلقى الفتى أمنـــا يلـوذ به
ما لم يخض نحوه بحرا من الوهل (١)

ثم يصرخ فيهم داعيا الى الثورة حيث يقودهم فيها الى الحرية والاستقلال ويرد لهم حقوقهم الضائعة وكرامة الوطن المســـلوبة فيهتف :

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا
شكالة الريث فالدنيا مع العجل (٢)

وقلدوا أمركم شـــهما أخا ثقـــة
يكون ردا لـكم في الحـادث الجلل

ولا تلجـــوا اذا ما الرأى لاح لكـم
أن اللجاجة مدعاة الى الفشــــل

وطالبوا بحقوق أصبحت غرضــا
لكل منتزع ســـــهما ومختتـــل

لا تتركوا الجد أو يبدو اليقين لكم
فالجد مفتاح باب المطلب العضل (٣)

حتى تعود ســـماء الأمن ضــاحية
ويرفل العـــدل فى ضاف من الحلل

ولكن نداء البارودى الى الثورة يذهب كما ذهب أخ له من قبل لا يرتد اليه صداه وان اختلف السبب وتغيرت الظروف ، ذلك أن الرجعية قد أحست بمواقعها تتزلزل من تحتها أمام هدير الأمة ، فهادنت لتستعد ثم تنقض ، وعمدت الى الخديعة والمراوغة لتمييع

---

(١) الوهل : الفزع .

(٢) الشكالة : الوثاق بين يدى الدابة ورجلها : وشكالة الريث قيد البطء والتأخر .

(٣) المطلب العضل : المستغلق .

الدفع الثورى ، وتفتيت قواه ، وتغيير اتجاه الحركة الوطنية . نفذت الى موقع الثوار والمطالبين بالدستور حين قبل اسماعيل « ولى النعم » اللائحة الوطنية وكالف « محمد شريف » بتشكيل الوزارة فرضوا وشكروا ، وتسللت كذلك الى « الحزب الوطنى الحر » بأن هرع توفيق ــ دكتاتور الأمس والمعتدى على مجلس النواب بفضه ــ الى الحزب يتقرب الى زعمائه ويعلن انضمامه تحت لوائه ، ويتصل بجمال الدين وينضم الى محفله الماسونى ، ويحبذ آراءه فى الاصلاح (١) ، « وصار جمال الدين صلة قوية بينه وبين المصلحين الذين وعدهم توفيق مرة بعد أخرى بأنه متى وصل الى العرش فسوف لا يحيد قيد شعرة عن جادة الحكم الدستورى (٢) » .

أسلوب الرجعية :

كان أسلوب توفيق فى خداع القوى الوطنية ومجاهرته بالأصلاح حين يتولى العرش ، ووعوده بأقامة حياة دستورية ، أسلوبا يدل على دهاء شديد ، فقد استطاع أن يحول تيار الكراهية عنه ، ويستبدله بالتقدير والمودة ، وتطلعت اليه القوى الوطنية على أنه الأمل المرتقب فسعت الى عزل أبيه (٢٦ يونيو ١٨٧٩) وأقامته على عرش مصر ليأتى الاصلاح على يديه (٣) . « ورحب المصلحون جميعا بارتقاء توفيق منصة العرش ، واعتبروه دليلا على حسن الطالع ، وتطلعوا إلى العصر الجديد بثقة الرجال الذين خطوا خطوة فى سبيل تحقيق أمانيهم » (٤) . واستطاع توفيق أن ينفذ الى البارودى أيضا ، وقد أدرك أن فى اكتسابه الى صفه كسبا لأرض

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام : جـ ١ ص ٤١ .

(٢) بلنت : التاريخ السرى ص ٩٥ ، تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ١٣٦ .

(٣) جريدة مصر : عدد ٤ فى ٢٥ يوليو ، ٧ أغسطس ١٨٧٩ .

(٤) بلنت : التاريخ السرى : ص ٩٥ .

جديدة يدعم بها موقعه ، وينال تأييدا شعبيا من القوى الوطنية التى تثق فيه فعينه وزيرا للمعارف والأوقاف (١) . وحسب البارودى كما حسب غيره من القادة الوطنيين أن توفيقا مخلص فى دعواه الأصلاح ، وفى اقامته حياة دستورية سليمة ، وقد خيل للمصريين الوهم الذى أحالته الخديعة يقينا أن عهد الاستبداد الفردى قد زال الى الأبد ، وأن الحكم الدستورى قد أظل البلاد . ونال البارودى نصيب كبير من هذا الوهم فأنشد مطولة يحيى فيها توفيقا « ويهنئه بجلوسه على الأريكة الخديوية » ، ولعل خاطرا طاف به مما يعرفه عن حقيقة توفيق فاستدرك « وذكره بما كان وعد به من انشاء مجلس نواب الأمة المصرية (٢) » وهو وعد مؤيد من الشعب ، ومن الله فقد أوصى به الاله نبيه وشاورهم فى الأمر ، وجعله قاعدة الحكم فى الاسلام وأمرهم شورى بينهم ، وسجل البارودى عليه أمره السامى باتخاذ الشورى قاعدة لحكمه ، وكأنه قد أصبح أمرا واقعا ، وقانونا مقضيا لا مفر من تنفيذه ، ومن أجل ذلك كله فهو يهنئه ويمدحه ثم يقول :

من المشورة ، وهى أكرم خطة
يجرى عليها كل راع مرشد

هى عصمة الدين التى أوصى بها
رب العباد الى النبى محمد

فمن استعان بها تأيد ملكه
ومن استهان بأمرها لم يرشد

أمران ما اجتمعا لقائد أمة
الا جنى بهما ثمار السؤدد

جمع يكون الأمر فيما بينهم
شورى ، وجند للعدو بمرصد

---

(١) فى وزارة محمد شريف : الوقائع المصرية ٥ يوليو ١٨٧٩ .
(٢) الديوان (الجارم) جـ ١ ص ١٣١ .

هيهات يحيـــا الملك دون مشورة
ويعز ركن المجـد ما لم يعمـــــد

وبينما الشعب يحتفل بمكاسبه القومية كانت القوى الرجعية تقوى مواقعها ، وتنظم صفوفها . فاخذ توفيق ولما يمض شـــهر ونصف شهر على اعلان منشور الدستور ينقض وعوده ، وينقض على مواقع القوى الوطنية فرادى . ففى اليوم الذى اطمأن فيه على عرشه بوصول الفرمان السلطانى ، اعلن رغبته فى التخلص من « محمد شريف » ، فاستدعاه ووزراءه وطلب اليه الاستقالة بعد أن رفض البرنامج الدستورى الذى أعده (١) ، وحين شعر « الحزب الوطنى الحر » بالخطر على الآمال الدستورية ، واخـــذ أعضاؤه يشحنون العواطف ويعبئون الرأى العام بخطبهم وأحاديثهم ليطالب الشعب بتنفيذ الدستور ، قبض على زعيمه جمال الدين الأفغانى(٢) فى ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ ونفى من البلاد . وشرد أنصاره ومريدوه ، وحددت اقامتهم فى بلادهم وقراهم بعيدا عن العاصمة . ومنعوا من الحديث فى السياسة .

بدأت الرجعية تحتل مواقع جديدة على حســـاب المكاسب الوطنية فشكل توفيق فى ١٨٧٩/٨/١٨ « مجلسا عاليا » ينعقـد تحت رئاسته « بعد أن صار لغو مجلس النظار وأبطاله (٣) » . وتشكيل المجلس على هذه الصورة أصاب الأمة بخيبة أمل كبرى فى توفيق ، وأظهره على حقيقته ، استبداديا يهوى اعادة سيرة أبيه فى الحكم ، ولكن الذين من خلفه يستند اليهم ، ويستمد منهم قوته وهم وكلاء الدول خافوا أن يظهر فى أفق مصر اسماعيل آخر يخرج عن طاعتهم ومن ثم كان عليهم أن يبحثوا عن عميل آخر يسمع لهم

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ٩٢ ، مصر للمصريين جـ ٤ ص ٢٠ .

(٢) أمر النفى منشـــور بالوقائع المصرية ١٨٧٩/٨/٣١ وبالأهـــرام فى ١٨٧٩/٨/٢٨ .

(٣) الوقائع المصرية فى ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ .

ويطيع يضعونه على رأس السلطة الفعالية فى البلاد يكبتون به الشعور الوطنى ويضربون به الخديو ، وفى هذه التفرقة يسود نفوذهم ويقوى ، وكان « مصطفى رياض » العميل المثالى ، فقد كان يمعن فى الاذعان لوكلاء الدول ، ويهوى الحكم المطلق هواية تسلطت على نفسه ، ولم يكن توفيق يملك الا الاذعان ، فأصدر قرار تعيينه رئيسا للوزراء فى ١٨٧٩/٩/٢١ .

وتوالت الضربات المفاجئة على المواقع الوطنية . فأصيبت صفوفها بذعر شل قدرتها على المبادرة والعمل ، وأخذت فى التفرق والانحسار أمام المد الرجعي وتسلل اليأس الى بعض القلوب ، وانطفأت فيها شعلة الأمل فى اصلاح البلاد ، فاستكانت وضعفت ، وواجهت الحركة الوطنية فى مصر أحرج لحظاتها ، وكان لابد من ظهور عناصر قوية تتسلم القيادة ، وتعيد تنظيم الصفوف المتفرقة وتطلع بخطة جديدة تبعث الاطمئنان فى القلوب الفزعة ، وتملك من السيطرة على النفوس ومقومات الزعامة ما تستطيع به أن تقود البلاد فى مقاومتها ضد مد الطغيان ، وكفاحها فى سبيل الحياة الدستورية .

الولاء لحركة الضباط :

والبارودى فى هذه الفترة يترك الذين يأخذون بظواهر الأمور واطارها الخارجى فى مظنة من أمره ، فقد أخذ عليه بعض المؤرخين أنه خرج على الاتفاق الذى عقده شريف مع وزرائه ـ بألا يشتركوا فى وزارة جديدة الا اذا وافق الخديو على البرنامج الدستورى الذى أعده شريف وأن يكون هو رئيس الوزراء ـ وانضم وزيرا للأوقاف والمعارف فى المجلس العالى الذى شكله الخديو برئاسته واشترك فى وزارة رياض وزيرا للأوقاف وهو يعلم نزعته الاستبدادية ، وبغضه للشورى ، وخضوعه المزرى للنفوذ الأوروبى ولكأنى بهم يتهمون الرجل بالانضمام الى صفوف الرجعية وبالانحراف عن

المبادىء الدستورية وتأييد الحكم المطلق ، ولكنا اذا محصنا الحقائق التاريخية من حياة البارودى الأولى والأخيرة وتتبعنـــا الدلائل السابقة والشواهد اللاحقة من أعماله فى الحركة الوطنية لنأينا به عن كل مظنة ، وابتعدنا عن كل مأخذ بسبب اشتراكه فى الوزارتين : فالبارودى لم يقبل الوزارة ليكون من أنصار توفيق وهو الذى يعرفه ظلا للاستعمار ، ضعيف الشخصية ، ولو أنه كان من أنصاره لما كان أول مناد بخلعه ، ولما ناله بعد ذلك الضر والأذى من جــراء ثورته عليه ، وكذلك لم يدخل البارودى وزارة رياض انحرافا عن المبادىء الدستورية وهو من أشد المناصرين لها حماسا فى « الحزب الدستورى » (١) ، وفى « الحزب الوطنى الحر » وفى « المحفـــل الماسونى (٢) » ، ومن أكبر الدعاة لهـــا بين الناس فى شعره الذى تتناقله الألسن وتردده المجالس وينشد فى المنتديات ، وقصيدته فى توفيق تجعله بحق « شاعر الشـــــورى » . وفوق ذلك كله فالبارودى يعتبر أبا الدستور فى مصر القرن التاسع عشر ، فالدستور الذى وضعه وهو رئيس للوزراء عام ١٨٨٢ يعد أكمل الدساتير فى مصر ما قبل ثورة ١٩٥٢ ، ولم تنل البلاد فى ماضيها دستورا أكثر تحقيقا للآمال منه . وفوق ذلك فهو فى الوزارتين « قد اشترط للاشتراك فيهما أن يحتفظ بالاستقلال فى كل ما يخص وزارته (٣) »، ولم يكن منصب الوزارة غاية آماله فلما بلغه عض عليه بالنواجز ونسى فى سبيله مبادئه ، فآمال البارودى كانت فيما وراء الوزارة ، بل كانت كما يقول أحد معاصريه « أوسع من رحاب مصر » (٤) .

ولعل الذين أخذوا على البارودى موقفه هذا وقعوا تحت

---

(١) بلنت : التاريخ السرى : ص ٩٩ — ١٠١ .

(٢) انظر ص ٧٣ ، ٨٢ من الكتاب .

(٣) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٦ .

(٤) يعقوب صروف : المقتطف جـ ١ مجلد ٣٠ فى ١٩٠٥/١/١ ، جــورجى زيدان : تاريخ مشاهير الشرق جـ ٢ ص ٣٠١ .

تأثير « الولاء » من البارودى لحزب شريف الدستورى وقد كان من انصاره ، وأغلب الظن أن « الولاء » نفسه ــ لو علموا ــ هو الذى دفع بالبارودى الى أن يخرج على اتفاق شريف ، وأن يقبل العمل فى مجلس الخديو وفى وزارة رياض ، ولكنه ولاء لجماعة وطنيـــة أخرى تعمل فى سرية وتكتم وهى « تنظيم الضباط بالجيش » .

نبتت البذور الأولى لحركة الضباط بالجيش فى حرب الحبشة (١٨٧٥ ــ ١٨٧٦) بين من بقى من الضباط المصريين الصغار الذين عادوا وقلوبهم تفيض بالمرارة والألم ، وقد تركوا من خلفهـــم ألوف الضحايا من اخوانهم الجنود والضباط (١) ، أودت بهم القيـــادة الخرقاء وسوء التدبير ، وجبن قادة الحملة وجهلهم المطبق بفنون الحرب وادارة المعارك ، وخيانة أركان الحرب الأمريكيين الموظفين بالجيش المصرى (٢) واستطاعت حركة الضباط أن تثبت وجودها كقوة سياسية حين عبأت المشاعر ، وسيطرت بالتوجيه على نحـــو ٦٠٠ ضابط ولفيف من طلبة الكلية الحربية ، ونحـــــو ألفين من الجنود ، فقاموا بالمظاهرة العسكرية التى أسقطت الوزارة المختلطة (٣) (١٨٧٩/٢/١٨) ، ولم يكن ليغيب عن فطنة الدكتاتور الحـــذر اسماعيل أن المظاهرة لا يمكن أن تكون وليدة المصادفة ، وعرف بخبرته أن من ورائها حركة منظمة ، فأمر بأن يطلق آلاى حرسه النـــار على المتظاهرين (٤) ولكن قائد الحرس ــ وكان من أنصار حركة الضـــباط ــ أمر العســـاكر باطلاق أسلحتهم فى الفضاء .

---

(١) بلغ ضحايا هذه الحرب ٨٥٠٠ من الجنود المصريين وبلغ ما أنفق عليها ٣ ملايين من الجنيهات .

(٢) تفاصيل ما دار فى هذه الحرب أنظر أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار ج ١ ص ٣٠ ــ ٤٣ وكان من العائدين أحمد عرابى وعلى الروبى وفرج عبـــد العال .

(٣) كشف الســـتار ص ٤٥ . تفاصيل المظـــاهرة فى عصر اســـماعيل ج ٢ ص ١٧٠ ــ ١٧٣ .

(٤) كشف الستار ص ٤٥ .

وساورت اسماعيل الشكوك فأخذ فى القبض على كل من يظنه من زعمائها ، وحامت الشبهات حول أحمـــد عرابى وعلى الروبى ومحمدالنادى (١) . وجيء بهم أمامأمور ضبطية القاهرة (المحافظ) محمود سامى البارودى « فآنسوا فيه تأففا من الظلم والاستبداد ، وميلا الى العدل والدستور (٢) » ، وترك لقاء البارودى فى نفوس زعماء الحركة الكثير من الثقة به والاطمئنان اليه واتصل به على الروبى سرا (٣) فوجده معهم على الطريق .

اجتمع قادة التنظيم بالبارودى وكاشفوه بأمرهم وبتقديرهم لعدله ، ولعدم تعصبه لجنسه ، وأرادوه أن يرشدهم برأيه ، وان يشير عليهم بوطنيته الصادقة كلما حزبهم أمر ، وله منهم السمع والطاعة ، ولهم عليه النصح والحماية فقبل ، ورأى البارودى أن ابقاء علاقته بهم سرا أدعى لنجاح الحركة حتى يكون لسانهم – دون أن يعرف أحد – والمدافع عنهم ان أصابهم ضر ، والمؤيد لمطالبهم لدى الحـكومة ، والمنذر لهم أن أحاق بهم خطر (٤) ، وتعاهدوا وأقسموا على الولاء والوفاء . كان ولاء البارودى اذن لحركة الجيش وليس لمحمد شريف وحزبه ، ومن أجل هذا الولاء قبل أن يعمل مع توفيق ورياض « كضرب من المصانعة كيلا تظهر نواياه الحقيقية، وحتى تظل مستورة الى حين (٥) » ، وحتى يمنع عن الحركة الضر ما استطاع ، وينذر زعماءها بالخطر حين يلوح فى الأفق ، « فكان ينقل الى عرابى ورفاقه من قرارات مجلس الوزراء ما يتعلق بهم ليحذروه أو يتهيئوا للقائه (٦) » .

---

(١) المصدر السابق ، البحر الزاخر ج ١ ص ٢٠٢ .
(٢) كشف الستار ص ٤٦ .
(٣) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠١ .
(٤) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٥ .
(٥) شوقى ضيف : البارودى ص ٧٢ .
(٦) مشاهير الشرق جـ ٢ ص ٣٠١ .

ويغلب على الظن أن البارودى كان همزة الوصل فى اللقاء بين زعماءحركة الضباط وأعيان البلاد وكبرائها والعلماء ذلك اللقـــاء الذى أسفر عنه تكوين جمعية سرية أطلقت على نفسها « الحزب الوطنى المصرى » ، واتخذ الحزب مقره فى حلوان بعيدا عن العيون والرقباء (١) ، وتغلغلت حركة الضباط فى مراكز الثقل كلها : فى الجيش ، وفى الوزارة وفى القصر وفى المعارضة (٢) ، وأصبحت فى موقف يخول لها حرية العمل والقدرة على المبادرة واختيار الوقت المناسب للمعركة الفاصلة مع الرجعية وعملاء الاستعمار .

وشغلت السياسة ، وحركة الكفاح السرى بارودينا الشاعر فلم يمنح الشعر والأدب شيئا جديدا يسجل مجريات الأحداث اللهم الا وصاياه التى أكثر منها فى هذه الفترة ، فهو يدعو فى شعره الى الاحتراس والحذر وعدم الاندفاع فى الثقة بالناس ولعله كان يرمى الى أن ينبه أعضاء الحركة السرية فى الجيش وفى الحـــزب الوطنى . أما فى وزارة الأوقاف فكان البارودى نشيطا لا يكف عن العمل « فقد نقح قوانينها وجعلها على قواعد راسخة سليمة ، وسد أبواب الخلل التى كانت الوزارة عرضة له (٣) » . ونهض بمشروعات كثيرة للاصلاح أقام بها العمل فى الوزارة على جادة الطريق السليمة، وكون لجنة من العلماء والمهندسين والمؤرخين وناط بهم البحث عن الأوقاف المجهولة ، مستعينين بكتب التاريخ وحجج الوقف الموجودة بالديوان ، ورد بذلك للوزارة من الأوقاف الضائعة والمغتصـــبة ما لا حصر له ، وأنشأ الكثير من المساجد والمساكن ، وجمع الكتب والمخطوطات الموقوفة المتفرقة فى المساجد ووضعها فى مكان واحد

---

(١) كشف الستار ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) كان من زعمائها على فهمى وهو قائد الحرس والمقصود بالمعارضة — الحزب الوطنى بحلوان ، وهو يعارض حكم رياض وتوفيق .

(٣) مراثى الشعراء ص ١٦ .

حفظ هذا التراث من الضياع ولما أخذ « على مبارك » فى انشاء دار الكتب » كانت هذه المجموعة الضخمة النادرة من كتب وقاف أكبر المجموعات التى نقلت اليها (١) . واهتم البارودى آثار العربية فعين لها لجنة من ذوى الخبرة فجمعوا الكثير منها ضعوها فى مسجد الحاكم حتى يبنى لها دار خاصة (٢) .
ستطاع البارودى فى هذه الفترة أن يخرج صديقه محمد عبده من عزلة التى فرضت عليه بعد أن حددت اقامته فى قريته عقب نفى مال الدين الأفغانى ، وأن يزكيه لدى رياض كى يتولى تحرير وقائع المصرية (يونيو ١٨٨٠) ، فبدأت به الوقائع والصحافة صرية عهدا جديدا (٣) .

تنمية الثورة :

نهج رياض فى حكم الأمة النهج الذى تعلمه من أستاذه اسماعيل، يتفق مع طبيعته الغشوم ، ويرضى أولياء نعمته : استبداد مطلق ، ظرة الى الشعب بعين الزراية والاحتقار ، وقسوة وظلم فى تحصيل الأموال التى فرضت ظلما على المواطنين لمقابلة التسويات أجنبية ، وضرب على الأمة بيد من البوليس والجواسيس . غلق وتعطيل للصحف التى تخط قلما فى نقده أو المس بالمصالح أجنبية (٤) ، وفصل للموظفين المصريين بغير حساب وتعيين مستشارين والخبراء الأجانب بمرتبات خيالية ، وانقاص لعدد

---

(١) مراثى الشعراء ص ١٦ — ١٧ .

(٢) مراثى الشعراء ص ١٧ .

(٣) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ١٣٧ .

(٤) أغلق رياض صحف : مرآة الشرق ، مصر ، التجارة ، مصر الفتاة ، يفورم ، المساجير ، ايجيبسيانو ، وأنلد وعطل فترة صحف : الاسكندرية ، حروسة ، الفار والسكندرى . منع من دخول البلاد صحف : النحلة ، نضارة ، أبو صفارة ، القاهرة ، الشرق .

الجيش واحالة ضباطه الى الاستيداع ، ظلمات من الظلم يعيش في أعماقها الشعب بكافة طبقاته وقواه العاملة وتتجمع فى صورة الكراهية والغضب حتى يبلغ السيل الزبى ، وتصل الأرواح الى التراق منذرة بتفجير شعبى تخرج به الأمة الى فجر جديد !!

وكانت القداحة التى أورت شرارة الضوء لهذا الفجر الجديد هى الفروق الطبقية والعصبية للجنس التى أخذت تتحكم فى مقدرات الضباط والجيش ، فقد كان الضباط الجراكسة والأرناءود والأتراك يمنحون الترقيات ويوضع زمام سلطة الجيش فى أيديهم على حين يبقى الضباط المصريون أسوأ أنواع المعاملة والزراية والأهمال ، وأمعن كبار الضباط الجراكسة فى تعصبهم حتى كادوا يجعلون حرمان الضباط المصريين من الترقي أمرا مشروعا ويقصرونها على بني جنسهم ، وبدأت الثورة تجتاح قلوب الضباط المصريين جميعا ، وكان أكثرهم قد انضم لحركة الضباط (١) . واجتمع زعماء التنظيم وقرروا العمل علانية لوقف الظلم الذى حاق بهم وأظل البلاد ، « فوافقهم على طلب الأنصاف محمود باشا سامى ناظر الأوقاف : وهو منضم اليهم فى أصل الاتحاد ، ويعد واحدا من الأجناد فجعلوه مرجع مشورتهم ومظهر سريرتهم (٢) » .

وأصبح التنظيم وهو يعبر مرحلة التحول هذه في حاجة ماسة الى اختيار زعيم يقود العمل العلنى ضد الطغيان وأغلب الظن أن البارودى لم ينازع أحمد عرابى الزعامة لأنه كان يراه أحق منه بقيادته وقد كرس له سنوات عديدة من عمره وتجمع من حوله اخوانه الضباط ، ومن ثم بايع الضباط أحمد عرابى برياسة الحركة

---

(١) مصر للمصريين جـ ٤ ص ٨٤ ، من أعضاء التنظيم السرى أحمد عرابى ، عبد العال حلمى ، على فهمى ، على الروبى ، محمد النادى ، محمود فهمى ، محمد عبيد ، أحمد عبد الغفار ، الفى يوسف ، خضر خضر ، على عيسى ، أحمد فرج ، يوسف فهمى وغيرهم أنظر محاكمات زعماء الثورة العرابية مصر للمصريين : جـ ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٢) عبد الله النديم ومذكراته السياسية ص ٤٤ .

وزعامتها وأقسموا له يمين الولاء (١) على السيف والمصحف (٢) . وبقى البارودى مستشار التنظيم ولسانه فى مجلس الوزراء . ولئن كان وجوده فى مجلس الوزراء والحركة ما زالت سرا غير مذاع ضرورة ؛ فوجوده فيه بعد أن أعلنت عن نفسها وأصبحت هدفا ظاهرا لمؤامرات الخديو ورياض وطلائع الاستعمار ـ حتم لازب تقتضيه حمايتها والوقوف بجانب مطالبها .

وفى صبيحة ١٧ يناير ١٨٨١ تقدم أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى بمذكرة يطلبون فيها ـ نيابة عن ضباط الجيش ـ عزل عثمان رفقى وتعديل قوانين العسكرية بما يحقق العدل والمساواة . وأسفرت حركة الضباط بهذه المذكرة عن نفسها وأعلنت للأمة وجودها . وتدخلت كقوة سياسية تغير من مقاليد الحكم بعد أن رأت حتمية الثورة ، وأنها الحل الوحيد لعهد جديد . واجتمع مجلس الوزراء فى ٣١ يناير برياسة الخديو وقرر توفيق ورياض وعثمان رفقى قتل الحركة فى مهدها باستئصال زعمائها ؛ ودبروا لثلاثهم مؤامرة للقضاء عليهم بعد محاكمة صورية (٣) « ولكن السر وصل الى الضباط فى الحال ، من محمود باشا سامى المفضال (٤)» ، وحين دعاهم عثمان رفقى صباح أول فبراير الى وزارة الجهادية بقصر النيل ، أعدوا الخطة المضادة ، وما أن اعتقلوا حتى سارع آلاى الحرس بالأفراج عنهم ، وعاد بهم الى ثكناته ثم انضم اليهم آلاى طرة فتجمعوا فى ساحة عابدين .

---

(١) مصر للمصريين : محضر استجواب عبد العال حلمى جـ ٧ ص ٦٠ .

(٢) كشف الستار جـ ١ ص ١٥٤ .

(٣) البحر الزاخر جـ ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١١٣ .

(٤) عبد الله النديم ومذكراته السياسية ص ٤٥ وتاريخ مشاهير الشرق جـ ٢ ص ٣٠١ .

ورأى الخديو جيش مصر لأول مرة يواجهه بأسلحته ونيرانه ويوجه أول انذار اليه ، فتملكه الذعر والاضطراب وظهرت طبيعة الجبن والخور فيه ، وانتهز البارودى لحظة الضعف فأشار عليه باجابة طلبات الجند وحاول تبرير مظاهرتهم العسكرية فقال له : « انى أراهم مطيعين بدليل هتافهم باسم الخديو ، ولو أجيبت طلباتهم لانحسمت المسألة بسلام (١) ، واستسلم توفيق وانتدب البارودى لمفاوضة الزعماء ، ومن الطبيعى أن تسفر المفاوضات ــ والبارودى على رأسها ــ عن التسليم بمطالب الجيش كاملة فأقيل عثمان رفقى ، وألغى قانون العسكرية ، وأسندت وزارة الجهادية الى محمود سامى البارودى ، وكان النصر مؤزرا ، واستردت القوى الوطنية به شجاعتها فأيدته بروح منها ، ووقفت خلفه تناصره ، وأخذت تتطلع الى عمل أكبر .. الى ثورة تطيح بالفساد كله .

كانت حركة فبراير عملا بطوليا فى نظر المصريين ، فقد كانوا يخافون الخديو ، ويهابون سلطانه ، ويرون فيه سيدا وضعه الخليفة ليطاع وتعنو له الوجوه ، وما كان يتصور أحد أن يذهب الى مقر سلطانه جندى فلاح نشأ فى قرية ومن ورائه جنود فلاحون مثله ، ويقدمون المطالب بيد والانذار بيد أخرى فيظفرون بمطالبهم ويجبرون الخديو على الرضوخ لهم ، وينقلبون لم يمسسهم العذاب الأليم . وكانت حركة فبراير من ناحية أخرى ذات أثر كبير فى مجريات الأحداث ، فقد أصبح الجيش بفضل عمله الجرىء الفعال موضع اعجاب الأمة وتقديرها ، واعتبرت الأمة ما قام به الجيش عملا وطنيا مجيدا لأنه بعث الأمل فى أن تتبعه وثبات أخر تنقذ الشعب من الحضيض الذى يتردى فيه ، وأحست الطبقات المتعلمة التى تتطلع الى الحياة الدستورية أنها ليست قليلة الحيلة أمام الاستبداد كما كانت تتوهم فان لديها فى الجيش قوة مادية متجمعة،

---

(١) كشف الستار جـ ١ ص ١٦٥ .

ولو أنها انضمت اليه ووجدت المسعى الى الهدف لوضعت حدا عاجلا لشقاء البلاد . وأحس المتحالف الرجعى الاستعمارى من الخديو ورياض ومعتمد انجلترا - بالخطر الذى يتهدد مصالحهم من النفوذ الشعبى الذى نالته حركة الضباط فى طول البلاد وعرضها بعد حادثة قصر النيل « وأيقنوا أنها لم تعد عملا عسكريا محصورا فى دائرة المطالب العسكرية ، بل تحولت الى حركة وطنية عامة يؤازرها المصريون جميعا عسكريون وغير عسكريين (١) » ، ورأوا رأى العين مدى العطف والتأييد الذى نالتـه من جميع الطبقات وفى مقدمة المؤيدين لها العلماء والأعيان وعمد البلاد ومشايخ العربان وكما يقول محمد عبده « ان الجند والأمة كليهما كانا فى جانب عرابى (٢) » ، وشرع كل طرف من ثالوث الخطر يفكرا فى طريقة للخلاص من زعماء الثورة وبذلك يقضون على المد الوطنى قبل أن يستفحل أمره . ولكن محاولاتهم ذهبت عبثا ، فقد كان صديقهم « محمود سامى » وزير الحرب ينذرهم بكل مؤامرة تدبر لهم فى الخفاء ويطلعهم على مايصل اليه علمه من الدسائس التى تحاك ضدهم ، واستطاع أن يفعل ذلك بنجاح بعد أن قال من الاجتماع بعرابى ، وأنظلا على اتصال دائم بواسطة على الروبى (٣) . وضاقت نفس الخديو وعيل صبر رياض من فشل المؤامرات وكشف الدسائس (٤) . وكان موقف البارودى من حركة فبراير ودفاعه عن زعماء الحركة ومطالب الجيش فى مجلس الوزراء يثير ان الشك فى نفس رياض فبث العيون والأرصاد من حوله حتى تأكد من العلاقة السرية بين البارودى وزعماء الحركة « ومن نقله

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١١٨ .

(٢) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٢١٥ .

(٣) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٥ - ١٠٩ .

(٤) بلغت المؤامرات كما عددها عرابى فى كشف الستار جـ ١ ص ٢١٩ - ٢٢٩ ثلاث عشرة مؤامرة أنظر مصر للمصريين جـ ٧ ص ٦٩ .

قرارات مجلس النظـار اليهم (١) » ، فدس له عند الخديو وظل به حتى « اعتقد توفيق قلبا وقالبا أن « محمود سامى » متحد اتحادا كليا مع زعماء الحركة (٢) ، » وأن بقاءه فى نظارة الجهادية مع صلة الى عرابى سبب تطاول الضباط على السلطة العليا فى الدولة (٣) ، فناصبه ورياض العـداء وتربصـا به الشر وتلمسا له أسباب المضايقة حتى اضطر الى الاستقالة فى ٢٢ أغسطس ١٨٨١ .

كان البارودى قد اتفق مع زعماء الضباط أنه اذا لم يستطع دفع الضر عنهم قدم استقالته ؛ وعليهم أن يعدوا هذه الاستقالة انذارا لهم يتوقعون بعده شرا مستطيرا ، وكان البارودى بالاسكندرية حين قدم استقالته ، وبعد أن عاد الى القاهرة (٤) أرسل اليه رياض مع خطاب قبول الاستقالة وكيل الداخلية ليبلغه بأن عليه أن يترك القاهرة فورا ويسافر الى ضيعته ويظل بها محدودة اقامته ، وأحس الزعماء مخالب الرجعية والاستعمار توشك أن تنشب بأعناقهم وهم يرون فى استقالة البارودى نذر الشر الذى يكاد أن يحيط بهم (٥) .

استقل البـارودى القطار الى ضيعته بقرقيرة (٦) ، وذهب اليها ونفسه تتميز من الغيظ ، وقلبه يفيض بالكراهية والحقد على رياض ، ذلك النمام الذى كشف صلته بزعماء الحركة وجرى بالوقعية حتى أقاله فأصابه فى مقتلين : أصابه فى أمانيه الشخصية

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٩ .

(٢) البحر الزاخر جـ ١ ص ٢٠٨ .

(٣) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٢١٣ .

(٤) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٩ .

(٥) مصر للمصريين : جـ ٧ ص ٦٩ ـ ٧٠ محضر استجواب محمود سامى البارودى .

(٦) مركز آجا : دقهلية .

فتبدلت أحلاما . وأصابه فى مهمته الوطنية فاصبحت حركة الضباط ولا سند لها فى معسكر الرجعية يحميها من مؤامراتها ويرد عنها غائلة العدوان . وأفعم قلب البارودى بالمرارة والألم من رياض فهرع اليه شيطان الشعر يدق له طبول الهجاء والانتقام ، ويعلن الحرب عليه ، ويصب جام الهجاء على رأسه . ويصوره بألوان من خلقه ومن طبعه صورة بشعة تشمئز منها النفس وينحنى أمامها هجاءو العربية جميعا ويعترفون لها بالسبق ويحملونها الى متحف التاريخ ليبقى ذكرها أبدا فى كل عصر له سجع وترنام وفيها يقول :

هذا الذى تكره الأبصار طلعته
فحظها منه ايذاء وايلام
فى وجهه سمة للغدر بينة
وبين جنبيه أحقاد وأوغام (١)
جاءت به عجز ليست بطاهرة
لها بمدرجة الفحشاء أزلام (٢)
مستيقظ للمخازى غير أن له
طرفا عن العرض والأوتار نوام
وكيف يصلح أمر الناس فى بلد
حكامه لبنات اللهو خدام (٣)

ولا يلبث البارودى فى ضيعته طويلا حتى تأتيه أخبار من القاهرة تفزعه ، فقد كانت أستقالته حقا نذير الخطر الزاحف على زعماء الضباط ، وأكدت الأحداث أن الأمر قد قضى فيه بليل ؛ وأن الخطة قد وضعت للقضاء عليهم بقسوة وبلا رحمة ، ويتكشف

---

(١) جمع وغم : الحقد الثابت فى الصدر .

(٢) المدرجة : الطريق والازلام جمع زلم : السهم والنصيب .

(٣) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

البارودى فى خطة الرجعيين ـ بعين السياسى والقائد ـ ما يوشك أن يدفع بالجيش الى حرب أهلية ، وما يتهدد الوطن كله بنكسة تذهب بما أحدثته حركة فبراير من يقظة للشعور الوطنى وتجميع الرأى العام حول المطالب القومية ، ويشتد نداء الواجب الوطنى على قلب البارودى وعواطفه فيهرع الى القاهرة ويضرب بتعليمات الخديو ورئيس الوزراء عرض الحائط ، فمثله لا يخلد الى الأعتكاف السياسى بينا الأحداث تصنع تاريخ الوطن . ويعود البارودى الى القاهرة فتعود الى زعماء الضباط ثقتهم بأنفسهم ، وقد وجدوا سياسى الحركة الى جوارهم يمدهم بمشورته الناضجة ، ويكشف لهم بخبرته ودهائه مغاليق الأمور ، ويبصرهم بالحدود التى تقف بهم دون التردى فى مزالق التهور .

ويتصدر البارودى أجتماعات الضباط فى منزله كل ليلة يستعرض مع زعمائهم الموقف ، ويناقشون الخطة ، ويدرسون الاحتمالات ، ويعدون لكل أمر عدته (١) ويأخذ البارودى مكانه الحقيقى بين زعماء « حركة الضباط » علانية ، ويتبين للناس أنه سياسيها ومستشارها الذى تصدر عن رأيه ومشورته .

ويشتد الضغط على الزعماء من الرأى العام يطلب الخلاص من الخوف والأرهاب الذى تعيش الأمة فى ظلماته ، وتتجمع الطبقات المختلفة فى مجالسها ومنتدياتها ، وتجمع على أن لا منجى للوطن مما يعانيه الا بثورة تزيح رياضا من الوزارة ، وترغم الخديو على التسليم بالحكم الدستورى . وتتطلع الأعين الى الجيش وقد بعث انتصاره فى وثبة فبراير آمال الأمة فى الوثبة الكبرى .

وتثبت التجربة ، وهى ما تزال تؤكد كل يوم أن الثورة هى الطريق الوحيد الذى يستطيع النضال المصرى أن يعبر عليه من

---

(١) مصر للمصريين ج ٧ ص ٦٠ محضر استجواب عبد العال حلمى .

الماضى الى المستقبل . ، وقد أثبتت التجربة أيضا ان الجيش هو الذى يبدأ الخطوة التنفيذية الأولى دائما فى الحـــركات الوطنية الثورية فى الشرق ، ويتدخل فى اللحظة الحرجة ليعبر عما يضطرم به قلب الأمة من ثورة ، ولينقذها مما تعانيه من ظلام ســـياسى وعبودية اجتماعية ، ذلك لأنه ــ ولا يزال ــ العامل الأكبر فى الحركات السياسية ، له وحده من القوة والاتحـــاد ما يمكنه من تحقيق أهدافه . ومن هنا نرى أن الجيش كان مقدرا له أن يلعب دورا هاما فى السياسة الوطنية التى لم يكن هناك بد من ظهورها ، وقد جمع فى جنوده أبناء الشعب بمختلف طبقاته الكادحة التى أرهقها التحكم والاستغلال ، فكانت تسرى فيه أحاسيس الأمة المختلفة ، ومن ثم أصبح نقطة الارتكاز الطبيعية التى تجمع من حولها السخط القومى . ونقطة الانطلاق التى اتخذت طريقها الى الثورة .

الزحف المقدس :

تحددت الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ١٨٨١/٩/٩ ساعة الصفر لقيام الجيش بالثورة ، فزحف أحمد عرابى على رأس وحدات من « آلايات » الجيش الى ميـــدان عابدين ووجهت الى القصر مدافعها (١) ، وارغم الخديو على قبول مطالب الأمة فأقال وزارة رياض ، ووافق على تشكيل مجلس نيابى ، وعلى زيادة الجيش والتصديق على قوانينه ، ونجحت الثورة دون أن تراق فى سبيلها قطرة دم واحدة ، وانتصرت الأمة بواسطة جيشها الذى استطاع أن ينقذها من وهدة الرق السياسى ، وأن يهيىء لها سبيل الاصلاح الدستورى السليم . واستيقظ الناس من حلمهم الطويل فاذا بهم قد تخلصوا من الاستبداد ، وتحققت لهم أمانيهم التى انتظروها قرونا وأجيالا طويلة . وشكلت وزارة جديدة برئاسة محمد شريف فى ١٨٨١/٩/١٤ والبارودى وزير الجهادية فيها .

---

(١) أنظر تفصيلات الزحف على عابدين فى كشف الستار جـ ١ ص ٢٢٠ ــ ٢٢٨

وبينما المصريون يحتفلون بالنصر الوطنى كانت طلائع الاستعمار في جنون الفزع وهى ترى الأمور تنتهى فى مصر الى أيدى مواطنيها، والحكم النيابى سوف يدفع بمصر الى أن تستكمل اســـــتقلالها وعزتها فتعيد النظر فى المصالح الأجنبية القائمة على السلب والنهب دون سند من ضمير أو قانون . وأخذت انجلترا وفرنسا تعدان عدة التحدى والتدخل المسلح . فلم يكد مجلس النواب الجديد يجتمع في ١٨٨١/١٢/٢٦ حتى طلب المراقبان الانجليزى والفرنسى عـــدم تعرضه للميزانية لأنها من اختصاصهما وحـــــدهما . وأرسلت الدولتان فى ١٨٨٢/١/٢٠ « مذكرة مشتركة » تؤيد ما طلبه المراقبان الماليان من أن مجلس النواب ليس من حقه الاقتراع على الميزانية المصرية . واعتبر المجلس هذه المذكرة اهانة موجهة اليه ، فما ان تقدم « شريف » باللائحة الأساسية للمجلس وقد نص فيها على منع النواب من الأشراف على الميزانية ــ استجابة لمطالب المراقبين الأوربيين ، ومهادنة للنفوذ الأجنبى ــ حتى أجمع النواب على رفض هذه اللائحة . وقرروا أن يعدوا هم دستورا يحقق لمصر الحياة الديمقراطية الصحيحة ويكفل لها الاستقلال الكامل .

وثارت ثائرة محمد شريف ، وتجاوز غضبه غضب أحلافه الجدد من الأوربيين ، فقد كان يعتقد أن المصريين قد خلقوا ليحكمهم الأتراك ، أما أن يتحكموا فى بلادهم ويجرءوا فيرفضوا قانونا تقدم به محمد شريف زعيم الحزب الدستورى نفسه فهذا أمر فى نظره غير محتمل (١) !! وظهرت شخصيته التركية المتغطرسة على حقيقتها ؛ وتعرى من ثياب التستر وراء المطالبة بالدستور ، لتبين أغراضه المختفية فى دعواه ، وتكشفه هدافا وساعيا وراء الحكم والسلطان؛ ولم يكن رد أعضاء مجلس النواب الا أنهم طلبـــوا اقالة شريف ؛ وتعيين من يكون أكثر موافقة لرغبات المجلس وأحرص على كرامة الوطن واستقلاله .

---

(١) بلنت : التاريخ السرى ص ١٤٤ .

وزارة الشعب :

وأجمع أعضاء مجلس النواب على أن البارودى هو رجل الساعة الذى يستطيع بثوريته أن يتجاوب مع آمال الأمة ويكفل لها الحياة الديمقراطية السليمة . ويحافظ على كرامتها الوطنية باستقلالها الكامل ، وأنهت اللجنة الى الخديو رغبة المجلس فأسند الى البارودى رئاسة الوزارة فى ١٨٨٢/٢/٤ . ومن أجل ذلك أطلق على وزارة البارودى بحق « الوزارة الوطنية » . وأطلق عليها أيضا « وزارة الثورة » ، فقد كانت تضم ثلاثة من زعمائها : محمود سامى البارودى للرئاسة والداخلية وأحمد عرابى للحربية والبحرية ومحمود فهمى للأشغال (١) .

وافتتحت وزارة البارودى أعمالها بأعداد الدستور ، وجعلته بحيث يوائم آمال الأمة ويحقق ارادتها ، ويحفظ كرامتها كدولة مستقلة ، لمجلس نوابها حق نظر ميزانيتها . وحمل البارودى الدستور (٢) الى الخديو وكأنه يحمل آمال الأمة وتوقيعاتها عليه بالموافقة ، فلم يسعه الا أن يضع خاتمه بالتصديق ، وما كان ليستطيع — ولو أراد — أن يفعل غير ذلك .

وكان يوم الأربعاء ٨ فبراير قمة المجد الذى بلغه البارودى فى حياته السياسية كلها ، وذروة النصر الذى وصلت اليه الأمة بثورتها ، ومجلس نوابها ، ووحدة القوى الوطنية فيها ، فقد حضر « محمود سامى البارودى » رئيس الوزراء الى مجلس النواب ومعه « اللائحة الأساسية » المحققة لأرادة الأمة مصدقا عليها من الخديو « وقوبل البارودى فى المجلس بالتعظيم والاكبار وسر النواب بنفوذ

---

(١) أما باقى الوزراء فهم : على صادق للمالية ، مصطفى فهمى للخارجية والحقانية ، عبد الله فكرى للمعارف ، حسن الشريعى للأوقاف .

(٢) يتكون الدستور من ٥٣ مادة ونصه كاملا فى مصر للمصريين : جـ ٤ ص ٢٢٧ — ٢٣٢ .

رأيهم فشكروا الوزارة الجديدة على ذلك » ثم وقف محمود سامى خطيبا فى المجلس يقدم الدستور لنوابه بخطاب سياسى جامع (١) يكشف عن منابع أصيلة لوطنية البارودى القوية العميقة .

انتهت دورة مجلس النواب الأولى فى ٢٦ مارس ١٨٨٢ ، وكأن السلام والاستقرار قد انتهيا بانتهائها فى البلاد ، ذلك أن طلائع الاستعمار قد أصيبوا بالذعر والهلع وهم يرون أهل مصر وقد نجح مجلس نوابهم نجاحا يضعه فى مصاف المجالس العريقة فى التاريخ ، وتحقق الوزارة الوطنية آمال الأمة فى الاصلاحات المختلفة ، ووجدوا فى ذلك النجاح علامات الخطر على نفوذهم ، واستغلالهم للبلاد ، وأصاب الرجعية مس من الجنون وهى ترى « الفلاحين » يستلبون السلطة منها ، ويحاولون فينجحون فى موضع الثقة الذى وضعتهم الأمة فيه ، فأصبحوا وهم نائبون عنها مصدر كل سلطان ، وكان لابد للرجعية وحلفائها من القيام بعمل يشوهون به هذا النجاح ، ويستردون به سلطانهم ، فخططوا للقضاء على الثورة ، بتنظيم اغتيال جماعى لرجال الوزارة ، وكبار ضباط الجيش ، والرءوس المفكرة فى الثورة ، ولكن سبقت مشيئة الله فاكتشفت المؤامرة قبيل تنفيذها بساعات (٢) ، وحكمت المحكمة العسكرية على المتآمرين بما ارتأته قصاصا للجريمة ، ولكن العناصر المعادية للثورة أيقنت أن تنفيذ الحكم فى أنصارهم لابد وأن يضعف معسكرهم ، ويفقد ثقة عملائهم فيهم ، فأوعز المعتمد البريطانى الى الخديو بالامتناع عن التصديق على الحكم (٣) ، وأيقن البارودى أن توفيقا قد رمى بثقله كله فى جانب مندوبى الاستعمار ، وألقى بزمامه اليهم يصرفونه كيف يشاءون ، وأن خديوى البلاد بدأ يطلب جهارا منهم حمايته

---

(١) نص الخطاب فى الوقائع المصرية ١٨٨٢/٢/١٢ .

(٢) كشفها أحد المشتركين فيها وهو الملازم خليل حسن : أنظر مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٣٥ .

(٣) مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٣٦ .

من شعبه وحكومته ، وغضب البارودى لكرامة الوزارة ، ولكرامة الوطن ، « فذهب الى الخديو ليقدم له اللوم الشديد لنزوله على ارادة قناصل الدول واهماله رأى وزرائه »(١) . وانقطعت العلاقة بين الخديو ونظاره من هذا اليوم (٢) .

ولم يجد البارودى ووزراؤه مفرا ــ وقد اختلفوا مع الخديو بعد أن سلك مسلكا تخطى فيه حدود الدستور ، وتعدى به على استقلال البلاد ــ من أن يعرضوا الأمر على مجلس النواب ليرى فيه رأيه ، فاستدعوا النواب من عطلتهم الى القاهرة ليجتمعوا فى جلسة غير عادية ويقضوا فى الأزمة برأى . واجتمع النواب بالوزارة بصفة غير رسمية ظهر يوم ١٢ مايو ١٨٨٢ فى دار البارودى ، ليقفوا على أسباب الخلاف بين الوزارة والخديو ، فازدادوا ايمانا بأن الأزمة مدبرة من الخديو وحلفائه طلائع الاستعمار ، وأيدوا موقف الوزارة وساندوها وقرروا « أن الخديو اذا استمر على دسائسه مع القنصلين الانجليزى والفرنسى لم يكن مناص من محاكمته وخلعه(٣) » .

ظهر الخطر واضحا لتحالف الرجعية والاستعمار فى وقوف النواب صفا يساندون الوزارة ضد الخديو فاتجهوا الى أسلوب التفرقة ، وعزف توفيق لأولئك الذين حملتهم موجة الثورة معها وهم طامعون فى المناصب ، وضرب على أوتار الأغراء لأولئك الذين دفعتهم رياح المصلحة الشخصية فتسللوا الى الصفوف الوطنية ، واستمع الى اغرائه محمد سلطان (٤) رئيس مجلس النواب وستة من النواب الاقطاعيين الذين وجدوا أن مصالحهم مرتبطة بالخديو

---

(١) الكتاب الأصفر عام ١٨٨٢ وثيقة رقم ٦١ ، أنظر أيضا : الرافعى الثورة العرابية ص ٢٦٣ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٣٧ .

(٣) بلنت : التاريخ السرى : ص ١٩٨ .

(٤) أغراه الخديو بأقلاع الأساطيل الأوروبية الى مصر لتقمع الثورة وتعيد النظام القديم ووعده برئاسة الوزارة .

وحكم الطبقة الفنية (١) ، وأحس بقية النواب بالمؤامرة ، فبدا لهم ان يدركوا الأمر قبل أن ينصدع الرأب وتحدث الفرقة ، « وطالبوا بانعقاد مجلس النواب على صورة رسمية لينظر فى آمر الخلاف ويقرر ما يراه ملائما لمصلحة البلاد وأهلها(٢) » . وحين رفض الخديو اصـــدار « دكريتو » بعقـد المجلس « قرر النواب والوزراء ورجال الثورة عقد جمعية عمومية من أعيان البلاد وعلمائها ونوابها يتخابرون فيها ويتشاورون فى كيفية حل المشكلة ، وأخذ الناس يرقبون عقد هذه الجمعية حتى تحسم النزاع (٣) » ، وكانت النذر كلها تعلن أن عقد هذه الجمعية سوف يسفر عن اجراءات حاسمة ضد الخديو ، فعمد الى أسلوب المخادعة حتى تفوت الفرصة ، وحنى رأسه للعاصفة ليكسب الوقت حتى تصل اليه المعونة والسند من الأساطيل الحربية التى وعده بها معتمدا انجلترا وفرنسا ، وأوعز الى عملائه الجدد من النواب المنشقين بزعامة سلطان رأس الاقطاع بالصعيد أن يسعوا بالصالح المؤقت بين الطرفين ، وتمت الوسـاطة فى ١٨٨٢/٥/١٥ (٤) على ألا يستشير الخديو الأجانب فى أمور الدولة ، ولا يقطع أمرا الا بأذن من الوزارة الدستورية .

وما لبثت الأساطيل أن وصلت الاسكندرية فجر يوم ٢٠ مايو ، فأحست الرجعية بالقدرة على التحرك والمبادرة بالانقضاض مرة أخرى ، وبدأ تحالف الرجعية والاستعمار تنفيذ مخططه فى نفس اليوم الذى وصلت فيه الأساطيل ، « فنصح قنصل بريطانيا الخديو توفيق بأن ينتهز فرصة وصول الأسطول ويطلب من النظـــارة استقالتها لتخلفها وزارة أخرى يعتمد عليها .. وتنفيذا لهـــذه

---

(١) بلنت : التاريخ السرى : ص ١٩٩ .

(٢) مصر للمصريين جـ ٤ ص ٢٧١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ص ٢٧٢ ، الوقائع المصرية فى ١٦ مايو ١٨٨٢ .

الخطة كلف توفيق سلطانا بأن يتوجه الى عرابى ومحمود سامى ويطلب منهما استقالة الوزارة (١) » . وكان هناك شطر آخر من مخطط الرجعية والاستعمار تولاه الطرف الثانى من التحالف غير المقدس فقد أرسل قنصلا الدولتين موظفا من سفارة فرنسا الى عرابى يطلب منه باسمهما مغادرة البلاد(٢) ، واجتمع مجلس الثورة، وعرض عرابى عليه طلب القنصلين فاستنكر المجلس تدخل الدولتين السافر فى شئون البلاد ، وقوبل طلبهما بالاستياء والغضب الشديدين « حتى لقد صرح أحد أعضاء المجلس — أمام الموظف الفرنسى الذى ينتظر الرد — أن الجيش يمزق عرابيا اذا هو تخلى عن الثورة واعتزلها (٣) » ، وظهرت أهداف المخطط واضحة أمام رجال الثورة والوزارة ، فقد كانت ترمى الى الاطاحة « بالبارودى وعرابى » وهما حجر العثرة فى سبيل اعادة البلاد الى أيدى الرجعيين ونفوذ الاستعمار . وأخذت العناصر الوطنية تتأهب لما ينذر به الموقف من جسيمات الحوادث ، وصمم مجلس الثورة والوزارة على ألا يقروا أى تدخل لانجلترا وفرنسا فى شئون البلاد وان أدى ذلك الى القتال .

وأراد البارودى أن يكون التصميم على هذا القرار مقدسا فيسد على الشيطان منافذ الدس والخديعة بين زعماء الثورة وكبار الضباط (٤) فدعاهم جميعا الى تحالف مقدس يعقدونه بثكنات عابدين وتلا عليهم الشيخ محمد عبده قسم الوفاء للثورة وتجديد

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٣٩ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٤٠ .

(٣) محمود الخفيف : الزعيم المفترى عليه ص ٢٠٣ ، أنظر البحر الزاخر جـ ١ ص ٢١٦ .

(٤) أحمد عرابى ، عبد العال حلمى ، طلبه عصمت ، يعقوب سامى ، على الروبى ، على فهمى ، محمد عبيد ، أحمد عبد الغفار ، الزمر ، حسن جاد ، على يوسف ، محمود فهمى ، عمر رحمى . أنظر مصر للمصريين جـ ٧ ص ١٥٩ ، ١٦٤ .

الولاء لمبادئها على المصحف والسيف (١) وهم يرددون بعده :
« والله العظيم والله العظيم والله العظيم قاهر السموات والأرض المتسلط على القوى والقدر ، وحق ما فى كتاب الله تعالى اننى وأنا (فلان) لا أخون وطنى ، ولا أخون نفسى ، ولا أغش اخوانى ، ولا أحدا من أهل بلادى ، وأحافظ على عرضى وعلى دينى ، وعلى عرض أهل بلادى ، ولا أدع أحدا أيا كان يتعدى على أحد من أهل بلادى ما دمت قادرا على منعه ، واننى أحافظ على النظام وعلى القانون العسكرى بكل ما يمكننى ، وبقدر استطاعتى ، واذا حنثت بيمينى هذا فأكون مستحقا لقطع الرقبة وشق الصدر ، وأكون محروما من مزايا الانسانية والآداب (٢) » .

المذكرة المشتركة :

خرجت الصحافة الوطنية تعلن الى الجمهور فى سخط وغضب مقترحات الخديو باستقالة الوزارة ، وطلبات معتمدى الدولتين بأبعاد عرابى عن الوطن ، فألهبت العواطف وحركت تيار الكراهية نحو الخديو والأجانب ومن انحاز اليهم من النفعيين والمستضعفين (٣) ، وكان توفيق يتعجل القنصلين فى اتخاذ اجراء حاسم مسلح يقف به زحف الثورة وتيار الرأى العام قبل أن يكتسحه من الطريق ، وأن يعتمدا فى هذا التدخل على موافقة محمد سلطان رئيس مجلس النواب ومن انفصل معه من معسكر الثورة (٤) ، واهتدت الدولتان الى منفذ التفرقة وطريق التدخل ، فوجهتا الى الحكومة المصرية والى الخديو فى ٢٥ مايو ١٨٨٢ « المذكرة المشتركة » أو « البلاغ الأخير » ، ويطلبان فيها : « سقوط

---

(١) مصر للمصريين جـ ٧ ص ١٤٠ ، محضر استجواب على الروبى .
(٢) المصدر السابق ص ١٦٤ ، محضر استجواب الشيخ محمد عبده .
(٣) مصر للمصريين جـ ٤ ص ٢٧٤ .
(٤) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٢٤٢ .

الوزارة البارودية ، ونفى أحمد عرابى خارج البلاد ، وتحديد اقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الريف المصرى (١) » .

ونفذ الشيطان فعلا من الصدع الذى أحدثه « محمد سلطان » فى اجماع مجلس النواب ومن الخلاف بسببه فى الصف الوطنى ، كاقتراح لحل الأزمة !! وذهب البارودى والوزراء الى الخديو فقد عزت الدولتان مطالب المذكرة اليه وهو رئيس مجلس النواب يستطلعون رأيه فى « المذكرة » ، ويقص البارودى ما حدث من توفيق فيقول (٢) : « ولما عرضت تلك اللائحة على الحضرة الخديوية صدر لى نطقها بأن القنصلين المذكورين قدما لها لائحة بالنص عينه ، ولما سئل جنابه عن رأيه استصوب عقد جمعية والمذاكرة فى هذا الأمر ، وما يقر عليه الرأى تحرر به كتابة ، وانه أرسل نسخة من تلك اللائحة تلغرافيا الى الباب العالى ، وينتظر التعليمات .. وطلب منا الحضور فى ثانى يوم » .

وغنى عن البيان أن البارودى ومجلس وزرائه قد اتفقوا دون خلاف على رفض المذكرة ، لأن « الطلبات المدونة فى اللائحة التى قدمها قنصلا انجلترا وفرنسا تتعلق بمسائل داخلية تختص بالأمور الادارية التى اعترفت الدول الكبرى دائما بأن حرية العمل فيها من خصائص الحكومة المصرية (٣) » ، وأعدت الوزارة مذكرة رسمية بهذا الرفض ، وانتظرت حتى تأتى التعليمات التى زعم الخديو أنه فى انتظارها من الاستانة ، ولكن الدوائر الوزارية والثورية علمت فى اليوم التالى أن الخديو قبل مذكرة الدولتين دون انتظار لرد الاستانة أو مشورة مجلس وزرائه (٤) ، فذهب البارودى رئيس

---

(١) نص المذكرة فى جريدة الوطن عدد ٢ يونية ١٨٨٢ ، تاريخ الثورة العرابية ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(٢) مصر للمصريين جـ ٧ ص ٧٣ محضر التحقيق مع محمود سامى البارودى أنظر أيضا جـ ٤ ص ٢٧٤ .

(٣) من رد الوزارة على المذكرة : ونص الرد فى المصدر السابق .

(٤) مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٤٠ .

الوزراء ومصطفى فهمى وزير الخارجية الى الخديو ليتعرفا جلية الأمر ، « ولما قابلا سموه سألاه عن رأيه فى مذكرة الدولتين وعن رد الآستانة فأجابهما بقبوله لها ، فاعترضا على هذا القبول قائلين : انه كان يجب الرجوع فى هذا الأمر الى السلطان والوزارة فهو أمر متعلق بالمعاهدات الدولية وبأمور داخلية والدستور ينص على الا يتخذ الخديو قرارا الا بموافقة وزرائه ، وعندئذ طلب رئيس النظار صدور « دكريتو » يجمع النواب لعرض الخلاف عليهم فأبى الخديو فانسحبا دون اجابة لامتعاضهما مما سمعاه (١) » .

وجد البارودى أن الأزمة بين الوزارة والخديو أصبحت تهدد مستقبل الوطن ، ولم يعد الحكم فيها يخص مجلس النظار وحده ، فدعا الى « جمعية عمومية » تمثل الأمة وتضم النظار وأعضاء مجلس النواب ورجال الثورة والعلماء والأعيان (٢) ، ولم يكن هناك خلاف فى الجمعية على رفض المذكرة ولكن السؤال الذى تبلورت المناقشة فيه كما يقول الشيخ محمد عبده هو : هل يمكن لنا أن نجمع مجلس النواب ؟ وانطلق صوت الشيخ محمد عبده فى الاجتماع يعبر عن رأى الشعب بمختلف طبقاته فيقول : « اجتماع مجلس النواب حق للشعب ونحن نوابه ، ولابد لنا من أن نطلب النواب الى القاهرة ، حتى لو أراد عرابى أن ينفذ ما طلب من ابعاده ارضاء للسياسة الأجنبية فليفعل ، أما نحن فلا نخضع لمثل هذه المطالب مهما أدى اليه الخلاف (٣) » .

ورأى البارودى اجماع الأمة على رفض طلبات الدولتين فجمع النظار فى ٢٦ مايو وقرروا ارسال « مذكرة الرفض » — التى أعدت من قبل — الى قنصلى الدولتين حتى يسجلوا بها رد حكومة البلاد

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٠ — ١٤١ ، أنظر أيضا مصر للمصريين ج ٧ ص ٧٣ محضر التحقيق مع محمود سامى البارودى .

(٢) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٢٤٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٣ .

الشرعية لتنقض قبول الخديو الذى أبداه لهما . وبعد أن اطمأن البارودى الى أن رد الحكومة الشرعية قد وصل مندوبى الدولتين جمع النظار مساء اليوم نفسه وبحثوا موقف الخديو وتعديه على الدستور ونقضه لاتفاق ١٥ مايو الذى تعهد فيه بألا يقطع برأى يمس مستقبل البلاد أو يتصل بالدول الأجنبية الا بعد مشورة الوزارة وعن طريقها ، وقرروا أن يحتجوا احتجاجا رسميا على قبول توفيق لمذكرة الدولتين ، واظهارا لهذا الاحتجاج قدم البارودى استقالته ومجلس وزرائه .

كان افتئات الخديو على الدستور ، وقبوله لائحة الدولتين ، واعترافه بحقهما فى التدخل فى شئون البلاد ، واستعدائهما على استقلال الوطن الشرارة التى فجرت بركان الثورة المحتدمة فى قلب البارودى على توفيق ، فقامت قيامته وأعلنها عليه حربا شعواء ، أنفة مما فعله حليف الاستعمار وركيزة الرجعية ، وانتقاما لكرامة هذا الوطن الذى عرضته الخيانة للخطر . ورأى البارودى أن الداء كله فى توفيق ذلك الأفعى الذى أودت سمومه بالوطن أو كادت ، فيقسم أنه لن يهدأ نفسا حتى يخلص البلاد منه ولو بأراقة الدماء ، وبتقديم حياته قربانا لوطنه . ويدق مارد الشعر طبوله فتزيد من رناتها ثورة البارودى النفسية فينشد :

تا لله أهدأ أو تقوم قيامة
فيها الدماء على الدماء تراق

أنا لا أقر على القبيح مهابة
ان القرار على القبيح نفاق

قلبى على ثقة ونفسى حرة
تأبى الدنى ، وصارمى ذلاق

فعلام يخشى المرء فرقة روحه
أو ليس عاقبة الحياة فراق ؟

ثم يصور لنا عملاء الرجعية الجدد بقيادة سلطان ، ويرد عليهم وقد شنوا عليه حملة دعائية تلومه على موقفه من الخديو صاحب السلطة الشرعية فى البلاد فيقول :

عابوا علــى حميتى ونكــايتى
والنــار ليس يعيبها الاحــراق

فأعرفهم ، واحــذر تشابه أمرهم
لا تستوى الأغــلال والأطــواق

شروا الضلالة بالهــدى ، واغترهم
لين الحيــاة ، ومــاؤها الرقراق

ثم يتحول الى رأس الخيانة وسليل الرجعية فيلطخه بالعــار ويصمه بالخزى ، ويضع صورته على معبر التاريخ فى اطــار من الذلة والهوان فيقول فيه :

عــدادك فى سلك البرية خـــزية
ودعواك حــق الملك أدهى وأعظــم

لقــد هانت الدنيا على الناس عندما
رأوك بها فى ملك يوســف تحكم (١)

فان تك أولتك المقــادير حكمها
فقد حازها من قبــل عبد مزنم (٢)

وشــتان عبــد بالمحجــة ناطق
وحر اذا ناقشته القــول أغتم (٣)

فهــذا أذل الملك وهو معــزز
وذاك أعز الملك وهو مهضــم (٤)

---

(١) يشير الى يوسف الصديق الذى قام على خزائن مصر .
(٢) يشير الى كافور الأخشيدى : المزنم : المستلحق بغير قومه .
(٣) اغتم : عيى لا يبين .
(٤) مهضم : كسير ذليل ، هذه الأبيات من الجزء المخطوط بالديوان .

ولم تكن ثورة البارودى على توفيق وعملائه الا صدى لثورة الأمة فقد كان لاستقالته أسوأ وقع فى البلاد ، وأحس الناس نذر النكسة وبوادر العاصفة ، وأيقنوا أن الخديو قد « باع البلاد للأجانب (١) » ، وفتح لهم أبواب السيطرة على مصاريعها فقامت الأمة قومة رجل واحد ، « وتأججت الثورة فى القلوب وأخذت طوائف الأمة تعلن انضمامها الى البارودى وعرابى ضد الخديو وأنصاره ». وعقدت الاجتماعات الوطنية فى أنحاء البلاد تأييدا لموقف الثوار واعلانا لرفض « المذكرة الأجنبية » ، وتنديدا بموقف « الخائن توفيق » (٢) وصدرت الفتاوى من شيوخ الأزهر وعلمائه بخيانة توفيق وكفره ، ونودى بخلعه فى اجتماع النواب والأعيان ورجال الجيش فى منزل محمد سلطان نفسه فى الليلة المعروفة « بليلة أبى سلطان(٣) » وحضر الى العاصمة ــ كما يقول عرابى فى مذكراته ــ جميع أعيان البلاد ومستخدمى الحكومة ، وقدموا مئات العرائض بواسطة مديريهم محتجين فيها على عمل الخديو ، ويطلبون أحد أمرين : اما رفض اللائحة المشتركة ، أو عزل الخديو الذى قبل تداخل الأجانب فى أحوال البلاد الداخلية (٤) » . وتصف صحيفة كبرى من صحف الاستعمار اجماع الأمة ووقوفها صفا واحدا ضد توفيق والتدخل الأجنبى فتقول « وخرج علماء الأزهر وقساوسة الكنائس وحاخامات المعابد وأعضاء مجلس النواب ، وأعيان الفلاحين ، ومندوبو المدارس والمعاهد ، وفريق كبير من التجار وأصحاب الحرف وساروا الى قصر الخديو ، وطلبوا رفض

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣ .

(٢) بلنت : التاريخ السرى ص ٣٠٧ .

(٣) تفاصيل اجتماع هذه الليلة فى مصر للمصريين ج ٧ ص ٩٢ محضر استجواب يعقوب سامى ، ج ٤ ص ٢٧٦ ، والبحر الزاخر ج ١ ص ٢١٧ .

(٤) مذكرات عرابى المخطوطة ص ٢٦٨ .

المذاكرة (١) » . ورغم كل ذلك فقد أمعن الخديو فى موقف العداء من الأمة ، وربط مصيره بالنفوذ الأجنبى ، ودار فى عجلته ، وكره الشعب والأمة .

فشل توفيق فى تعيين وزارة جديدة تحمل جريرة ما فعل ، وساد البلاد الاضطراب والذعر ، وكادت تسلم الأمور فيها الى الفوضى فليست هناك من وزارة مسئولة (٢) ، والجيش شق عصا الطاعة على الخديو وأعلنه بالعصيان (٣) ، وأصبحت البلاد كالبركان الذى يموج ويوشـــك أن يلقى بالحمم فلا تبقى ولا تذر . قدر البارودى الخطر الذى يتهدد الوطن ، وأحس الاضطراب الذى يسود نفوس الشعب والأجانب ، ورأى المؤامرات الدولية تخططها انجلترا وفرنسا لخلق الأسباب والمعاذير ليستعيدا نفوذهما فى البـــلاد ويتخذا الخديو ذريعة ووسيلة وأداة تنفيذ . ويذوى الأمل الذى راود المصريين بالأمس القريب فى حكم جديد تسوده الحرية والعدالة والمساواة وينقلب سرابا ، وينفعل البارودى بكل ذلك فيصور المحنة التى يمر بها شعبه ووطنه فى قوله :

كنا نود انقـــــلابا نســـتريح به
حتى اذا تم ساءتنا مصـــــايره
فالقلب مضطرب فيما يحــــاوله
والعقـــل مختبل مما يحـــاذره
ان دام هــذا أضاع الرشــــد كافله
فيما أرى ، وأطاع الغى زاجـــــره
تنكرت مصر بعد العرف ، واضطربت
قواعـــد الملك حتى ريع طـــائره

---

(١) التيمس البريطانية فى ١٨٨٢/٥/٢٩ .

(٢) ظلت البلاد ٢١ يوما دون وزارة .

(٣) مصر للمصريين جـ ٧ ص ٦٢ محضر استجواب عبد العال حلمى .

فأهمل الأرض جرا الظلم حارثها
واسترجع المال خوف العدم تاجره
واستحكم الهول ، حتى ما يبيت فتى
فى جوشن الليل الا وهو ساهره

ويرى البارودى ببصيرة السياسى وشفافية الشاعر أن المحنة لن تنكشف الا بالثورة الحمراء ، فقد تحملت النفوس فوق طاقتها ولن يطول بها الزمن حتى تنفجر فى ثورة تستأصل أعوان الرجعية وعملاء الاستعمار فيقول :

انى أرى أنفسا ضاقت بما حملت
وسوف يشهر حد السيف شاهره
شهران أو بعض شهر ان احتدمت
وفى الجديدين ما تغنى قواقره (١)

وجدت الرجعية وحلفاؤها زمام الأمور يوشك أن يفلت من أيديهم وقد أحبط خططهم تعيين عرابى حاكما بأمره فى البلاد ، ورفضت البعثة التركية مذكرة الدولتين مضطرة بعد أن رأت اجماع الأمة على رفضها (٢) ، ووجد مندوب انجلترا نفسه أيضا وقد فشل فى خلق الأسباب للتدخل المسلح ، وكان لابد اذن من مؤامرة جديدة تصور البلاد بصورة الفوضى والاضطراب فتلتمس انجلترا لنفسها العذر أمام الرأى العام العالمى فى احتلال مصر ، ويتخلص بها الخديو من الثورة وزعمائها ، وتمخض التحالف غير المقدس عن حادث الاسكندرية المعروف فى ١١ يونية ١٨٨٢ .

وتتمة لخيوط مؤامرة « التحالف » أعلن الخديو فجأة عزمه على السفر الى الاسكندرية وأدار ظهره للشعب ، واستقبل بوجهه

---

(١) الجديدان : الليل والنهار ، القواقرة : جمع قاقرة وهى الداهية .
(٢) رغم الرشوة التى قدمها توفيق اليها لتكون فى صفه وقدرت الرشوة بمبلغ ٥٠ ألف جنيه غير الحلى والمجوهرات أنظر التاريخ السرى ص ٢٢٦ .

الأسطول البريطانى ، وأقام هو وأنصاره تحت ظلال مدافعه ، وبقيت القاهرة مقرا لزعماء الحركة الثورية يتزعمهم البارودى وعرابى ، يجتمعون كل ليلة فى دار البارودى التى أصبحت مركزا لقيادة الثورة (١) ، يدرسون التطورات السياسية ، وقضايا الساعة . وفى هذه الاجتماعات كان الزعماء يناقشون مستقبل مصر وأنواع الحكومات التى تصلح للبلاد وكانت « الجمهورية الحيادية » هى نوع الحكومة المفضل عند البارودى ، ويقول شاهد عيان لهذه الاجتماعات (٢) : « وأخذ محمود سامى وهو ذو ذكاء ومعارف واسعة يتكلم عن فوائد الحكومة الجمهورية لبلاد مثل مصر ، ومما قاله : لقد كنا نرمى منذ بداية حركتنا الى قلب مصر الى جمهورية مثل سويسرا ، وعندئذ كانت تنضم الينا سوريا ويليها الحجاز . ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم ، ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت (٣) » .

كانت دعوة البارودى الى خلع الخديو وقلب نظام الحكم الى جمهورية مستقلة عن تركيا ، حيادية كسويسرا تمثل المرحلة الأولى للوحدة العربية بانضمام سوريا والحجاز اليها ، وكانت تدرس بين زعماء الحزب فى نطاق السرية حتى لا يستعدوا السلطان عليهم

---

(١) مصر للمصريين جـ ٧ ص ٧٤ محضر استجواب محمود سامى البارودى وكان من أبرز المجتمعين الشيخ محمد عبده ، الشيخ عليش شيخ الأزهر ، والشيخ الهجرسى ، وحسن موسى العقاد ، وعبد الله النديم وبعض أمراء الأسرة الخديوية وعبد الرحمن البحراوى والسادات أنظر التاريخ السرى ص ٢٥٦ – ٤٢٥ .

(٢) لويس صابونجى (١٨٤٣ – ١٩٢٨) صاحب جريدة النحلة وكان يصدرها من لندن باللغة العربية . وقد اتخذه الفريد سكاون بلنت مراسلا له بالقاهرة يوافيه بأنباء الثورة العرابية فى يونيو ويوليو ١٨٨٢ .

(٣) من خطاب صابونجى الى بلنت فى ١٨ يونيو ١٨٨٢ التاريخ السرى ص ٢٥٥

فى هذه الظروف . وفى اجتماعات زعماء الثورة بمركز الحزب (١) كانت تناقش اتجاهات الدول الأجنبية والتدابير التى يجب أن تتخذها مصر لمواجهة الأطماع الأوروبية ومدى استعداد الجيش والبلاد فى مواجهة احتمالات التدخل المسلح ، ورأى البارودى ببصيرة القائد الحربى أن قناة السويس هى أضعف نقط الدفاع فى السواحل المصرية ، ونصح بأن تتخذ الاجراءات لردمها فى ساعات قلائل عندما يبدو من جانب أوروبا أو تركيا أول دلائل الاعتداء (٢)، ولكن عرابيا استبعد فكرة الاعتداء عن طريق القناة تحت تأثير الوهم الذى خادعه به دلسبس من حيدتها واستعداد الدول وخاصة فرنسا لمنع أى اعتداء يأتى من ناحيتها (٣) .

عاد الأمن واستتب النظام بعد تشكيل وزارة جديدة برئاسة اسماعيل راغب وكان عرابى وزير الحربية فيها ، ولم يؤد حادث الاسكندرية الغرض المنشود لمدبريه ، وكان لابد لمعسكر الرجعية والاستعمار من خلق سلسلة من تعلات وأسباب جديدة تحقق مآربهم وكانت كبرى التعلات والأخيرة فى سلسلة الاختلاقات طلب الأدميرال سيمور قائد الأسطول البريطانى فى ١٨٨٢/٧/٦ وقف تحصين القلاع على شواطىء الاسكندرية لأن فى ذلك تهديدا للأسطول الموجهة مدافعه الى الاسكندرية !!

ولسنا بصدد البحث حول قانونية هذا الطلب أو اقامة الحجة على أنه تلمس مكشوف وذريعة واهية لما وراءه من أمر كان قد تقرر من أمد بعيد ولكن الذى يعنينا هنا أن الأمة لم تجث على أقدامها

---

(١) دار محمود سامى البارودى : مصر للمصريين ج ٧ ص ٧٤ ، التاريخ السرى ص ٤٢٥ .

(٢) التاريخ السرى ص ٤٢٧ .

(٣) أنظر المكاتبات بين عرابى ودلسبس فى التاريخ السرى ص ٤٥٥ ـ ٤٦٠ وأنظر تاريخ الثورة العرابية ص ٤٠٢ ، ٤١٥ ـ ٤١٧ .

ذليلة تطلب الرحمة من العدو وهى تعلم مقدار قوة مدافعها الحربية الصغيرة أمام مدافعه الضخمة ، بل رفعت رأسها شامخة فى وجه أميرها الخائن وفى مواجهة مدافع الاستعمار الغاشم ، ولم تفرط فى كرامتها بالاستسلام ، واتخذت مصر بالأمس البعيد نفس القرار الذى اتخذته بالأمس القريب (١) تجاه الأنذار من نفس العدو ، وأعلنت أنها ستخوض معركة الكرامة الوطنية فان هزمت وهى تحمل شرفها فوق هامات قتلاها كان أكرم لها وأشرف من أن تحقن دماء ابنائها بالجبن والعار والاستسلام الذليل .

معركة الشرف والكرامة :

ضربت الاسكندرية فى ١١ يولية ١٨٨٢ بقنابل الأسطول البريطانى ، وكانت الدعاية الاستعمارية تصور للعالم كله أن المصريين جميعا فى صف الخديو ضد الحركة الثورية ، وأنه عند اطلاق أول قنبلة من الأسطول سيتسارع الناس ويقبضون على زعماء الحركة ويضعونهم عند أقدام الخديو (٢) ولكن الأمة كلها وهبت نفسها القتال ، فقاتلت طوابى الاسكندرية وأدت مدفعية الساحل واجبها كاملا ، وظلت تضرب العدو حتى آخر قنبلة ، وتفانى أهل الاسكندرية فى الدفاع عن مدينتهم رغم أن الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج وبذلوا ما استطاعوا من تضحية واقدام ، وبعد قتال مرير تغلبت القوة والمعدات على الشجاعة والحمية ، ونزلت الجنود الانجليزية الى قصر عميلها توفيق الذى سارع فبعث يهنئها بالنصر واحتلال البلاد ، ويضع نفسه تحت تصرفها وحمايتها !!

وصلت أخبار الاعتداء على الاسكندرية الى البارودى فى القاهرة فارتدى ملابس الميدان وأخذ عتاده الحربى(٣) وأسرع الى الاسكندرية

---

(١) سنة ١٩٥٦ فى معركة السويس .
(٢) بلنت التاريخ السرى ص ٢٦٦ .
(٣) أنظر مصر للمصريين جـ ٧ ص ٣٢٣ .

ليضع نفسه فى خدمة الوطن ويشارك فى المعركة ، واجتمع البارودى بعرابى ومجلس القيادة الحربية (١) يبحثون تطورات الموقف من الناحيتين السياسية والحربية معا . ورأى البارودى أنها الحرب بين مصر وانجلترا لا مفر منها فى سبيل الشرف والكرامة ، ومن ثم لابد من أن تعبأ البلاد لحرب طويلة مريرة وتواجهها صفا واحدا ، وحتى لا يتخذ الأعداء خديو البلاد ذريعة لاعتداء مغلف بخداع الشرعية ووسيلة لتفرقة الأمة واضعافها فى جهادها المقدس ، نصح البارودى المجلس بأن يعمل على اعادة الخديو الى العاصمة ، فان أبى يعاد اليها بالقوة ، ووافق المجلس على اقتراح البارودى ووكل تنفيذه الى سليمان سامى (٢) ، ورفض الخديو العودة وقرر المقاومة واستنجد بمن كان معه من أنصاره (٣) ، فذهبوا مع مندوب من الوفد التركى الى مقر القيادة وقابلوا عرابيا وطلبوا اليه أن يفك الحصار المضروب على الخديو وضمنوا له أن يظل بقصره بالرمل ولا يلجأ الى الانجليز ، وانخدع عرابى بهذا الضمان وفك الحصار(٤). ونجا رأس الرجعية بخداعه ، ونجحت آخر مراحل الخطة المدبرة ، فلم تمض ساعات قليلة من فك الحصار حتى انتقل الخديو الى سراى رأس التين لينضم الى القائد الانجليزى ويكون فى حمايته !!

رأت القيادة العسكرية الوطنية أن الاسكندرية بعد تحطيم حصونها وتعرضها للحريق من قنابل الأسطول البريطانى لم تعد تصلح جبهة للدفاع ، واستقر الرأى على الانسحاب منها الى منطقة

---

(١) كان مكونا من محمود فهمى ، وطلبه عصمت ، وعمر رحمى ، وخليل كامل ، وعيد محمد ، وسليمان سامى ، ومصطفى عبد الرحيم ، أنظر مصر للمصريين جـ ٩ ص ٩٠٣ .

(٢) مصر للمصريين جـ ٩ ص ٧٨٩ ، ٩١٧ ، جـ ٥ ص ٦٠ أنظر بلنت التاريخ السرى ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

(٣) محمد سلطان ، وحسن الشريعى ، وسليمان أباظه .

(٤) مصر للمصريين جـ ٩ ص ٩١٧ محضر استجواب طلبه عصمت .

كفر الدوار ثم تقرر أن يعود البارودي الى القاهرة ليتولى هو ويعقوب سامي وكيل الجهادية أمر تعبئة الأمة للقتال وتنظيم الخطوط الخلفية وتوفير الامدادات والتموين البشرى والمادى للحرب (١) ، وعاد البارودي الى القاهرة ليجد يعقوب سامى قد شكل « مجلسا عرفيا » من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط والموظفين (٢) ليتولى الأحكام العرفية التى أعلنها رئيس الوزراء فى البلاد (٣) ، وليتخذ التدابير اللازمة للحرب ، والتحصينات الحربية للدفاع عن الوطن ، فانضم البارودى الى المجلس يشارك فى جلساته ويسهم بجهوده وآرائه فى توجيهه (٤) .

لم تمض فترة طويلة حتى تحقق ما تنبأ به البارودى فى الاسكندرية ، فقد صبغ الانجليز عدوانهم على مصر بصبغة الشرعية، واذاعوا على الشعب المصرى فى منشوراتهم أنهم ما جاءوا ليستعمروا البلاد ، وانما هم نواب عن الخديو فى اخماد الثورة التى قامت ضده، ثم يخرجون بعد ذلك من البلاد (٥) ، وخديعة أخرى قام بها الخديو بايعاز من قوات الاحتلال المهيمنة على مصيره ليخذل بها الأمة ويحطم من معنوياتها فى مواجهة المعتدى الغاصب ، ذلك أنها دفعته الى أن يبرق الى عرابى بكفر الدوار يأمره بالتسليم للانجليز (٦) !! وطلب عرابى من يعقوب سامى عقد « جمعية وطنية » من الذوات

---

(١) المصدر السابق ج ٩ ص ٩٠٤ محضر استجواب ابراهيم فوزى ياور عرابى .

(٢) أسماء الأعضاء فى الوقائع المصرية ٢٣ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) الوقائع المصرية فى ١٢ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) مصر للمصريين ج ٧ ص ٩٧ محضر استجواب يعقوب سامى .

(٥) سجلت المنشورات الوقائع المصرية بعد ذلك فى ١٨٨٢/٩/٢١ .

(٦) نص البرقية فى الوقائع المصرية ١٨ يوليو ١٨٨٢ .

والأعيان والعلماء ورجال الدين يعرض عليها الموقف لترى رأيها في الخديو ومطلبه فكان الاجماع على الاستمرار فى الاستعدادات الحربية وارسال وفد يدعو النظار والخديو الى العاصمة ليديروا الحرب منها (١) .

وضربة أخرى وجهتها قوات الاحتلال الى القوى الوطنية على يد الخديو العميل حين طلبت منه اعلان عصيان عرابى وعزله من وزارة الجهادية فى منشور أعلنه للناس (٢) ، ودعيت « الجمعية الوطنية » فى القاهرة فعقدت اجتماعها الثانى فى ١٨٨٢/٧/٢٢ ونظرت فى منشور الخديو ثم قررت ابقاء عرابى فى منصبه وتوقيف أوامر الخديو ونظاره وعدم طاعتها أو تنفيذها ما داموا بالاسكندرية تحت سيطرة عدو البلاد (٣) . وكان للبارودى فى مناقشات الجمعيتين الصوت المسموع والحجة الواضحة فى شرعية الحرب ووجوب الدفاع عن الوطن ، « فان كتب الله لنا النصر تحققت الحرية والاستقلال ، وان كانت الأخرى لم نعدم الشرف والكرامة .. أما التسليم للعدو فهو قضاء على كل شيء : قضاء على ديننا وقضاء على وطننا وقبول للمذلة والهوان (٤) » . وأفتى شيوخ الأزهر وعلماؤه بمروق الخديو من الدين لانحيازه الى جيش العدو المحارب لبلاد الاسلام والمسلمين ، وانتشر العلماء والخطباء فى طول البلاد وعرضها يذيعون فتوى الأزهر ويعبئون الأمة للقتال ، ويقول الشيخ محمد عبده : « لقد رأيت المواطنيين جميعا ينفرون الى الحرب فى شوق وحمية لقتال المعتدين لا فرق بين فلاح وبدوى ومدنى ،

---

(١) الوقائع المصرية ٢٠ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) الوقائع المصرية سجلت المنشور فيما بعد فى عددها ١٨٨٢/٩/٢١ .

(٣) مصر للمصريين جـ ٧ ص ٩٦ وحضر الجمعية الثانية أكثر من (٥٠٠) عضو أنظر الأسماء والقرارات فى الوقائع المصرية ٣١ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) من حديث البارودى لحسن الشمس صاحب جريدة المفيد اثناء انعقاد الجمعية الثانية انظر المفيد ١٨٨٢/٧/٢٥ .

وكانت الغيرة الوطنية تملأ قلوب الجميع .. وكانت شوارع القاهرة تغص فى المساء بالاستعراضات العسكرية من الشبان ، يجولون فى شوارعها وهم ينشدون الأناشيد الوطنية (١) » .

كان الاحساس العام بين كبار ضباط الجيش بالقاهرة أن تركيز التحصينات والدفاع فى منطقة كفر الدوار يعطى الفرصة للعدو بغزو البلاد من منافذ الوطن المهملة دون تحصين وخاصة قناة السويس ، وسافر البارودى وكبار الضباط الى كفر الدوار ، وعقدوا مع عرابى وأركان حربه مجلسا عسكريا (٢) ، واستعرضوا الخطة العسكرية وقرروا تحصين الخط الشرقى ودمياط ، واتفقوا جميعا على ما ارتآه البارودى ومحمود فهمى رئيس أركان الحرب من سد القناة لمنع الأسطول الانجليزى من اختراقها واتخاذها قاعدة عسكرية « ولكن عرابيا وحده لم يوافق على سد القناة وظل مترددا فى هذا الشأن (٣) » ، واثقا فيما وعده به دلسبس من حماية فرنسا والدول الأوروبية لحيدتها . وانفض المجلس دون أن يقنع عرابيا — وهو القائد الأعلى للجيش — بسد القناة . وفى غفلة من القيادة المصرية تحركت المدرعات وبوارج الأسطول البريطانى تحت جنح الليل الى بورسعيد فاحتلتها فى ٢٠ أغسطس ثم اقتحمت قناة السويس دون معارضة من دلسبس ذلك الذى ادعى لعرابى حيادها خداعا حتى لا يسدها المصريون . واحتل البريطانيون القنطرة والاسماعيلية وشمال السويس على القناة . وتنبه عرابى للخدعة التى وقع فريستها حين جاءته الأنباء ، فأبرق الى الجيش المصرى بالمنطقة ليسد القناة ، ولكن القرار جاء بعد فوات الأوان(٤)!! ومنح جيش الأعداء فرصة النظر كما قال قائده بعد الاحتلال بفترة :

---

(١) كما نقله عنه برودلى ص ٢٣٣ .
(٢) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٢٥١ .
(٣) التاريخ السرى ص ٢٨٥ ، جون نينه : عرابى باشا ص ١٠٥ .
(٤) البحر الزاخر جـ ١ ص ٢٢٩ .

« لو أن عرابيا سد القناة كما كان ينوى لكنا الآن لا نزال فى البحر نحاصر مصر فان تأخر عرابى ٢٤ ساعة نجانا ومنحنا فرصة النصر (١) » .

طارت نفس البارودى شعاعا حين جاءته أنباء احتلال القناة ، وقد عرف بخبرة القائد أن كفة الحرب قد تحولت الى مصلحة الأعداء ،وأن الوطن قد بات فى خطر ، وضاقت به نفسه وهو يرى الصواب « ولكن يهم فلا يقدر » وينصح فلا يسمع لنصحه وتظل يده مغلولة فالأمر بيد غيره لا بيده ، ويموج صدره بالحسرة فيهتف:

نصحت فكذبتم فلما أتى الردى
عمدتم لتصديقى وقد قضى الأمر
فلم يبق فى أيديكم غير حسرة
ولم يبق عندى غير ما عافه الصدر
فجاء الذى كنتم تخافون شره
وزال الذى لم يبق من بعده شعر

وعين البارودى قائدا لمواقع « الصالحية » غربى الاسماعيلية ، فأطاع الأمر الذى صدر اليه وهو يعلم أن الدفاع أصبح بعد احتلال القناة أمرا ميئوسا منه من الوجهة العملية ، وأن المعركة غير متكافئة فقد كانت جيوش الانجليز ضعف عدد الجيش المصرى (٢)، وتفوقه بالتدريب والمعدات الحربية الحديثة ، ومع ذلك لبى البارودى نداء وطنه حين دعاه كما يقول :

دعونى الى الجلى فقمت مبادرا
وانى الى أمثال تلك لسابق

---

(١) التاريخ السرى ص ٢٨٧ .

(٢) كان عدد الجيوش الانجليزية ٦٠٠ر٥٠ جندى وعدد الجيش المصرى ٢٠ ألفا .

وخرج الى الحرب قائدا لفرقة من ١٢ ألف جندى من الأسلحة الثلاثة ـ المشاة ، والسوارى ، والمدفعية (١) ـ وأخذ منذ وصوله الى مواقعه « يواصل الليل بالنهار فى عمل الاستحكامات الحربية ومد خط دفاع طوله ٤ آلاف متر ، وعلى مراكز الطوابى وحصنها بحيث تستعصى على الأعداء (٢) » ، وكان موقع « الصالحية » يحمى الجيش المصرى من حركة التفاف يقوم بها العدو من الشمال ليطوق المواقع الرئيسية للجيش المصرى ، وظل جنودها دائما فى مناوشات مع طلائع الجنود الانجليزية ويردونهم على أعقابهم قبل أن يجدوا الى ظهر الجيوش المصرية منفذا (٣) .

لم تكن مصر تحارب فى جبهة القتال وحدها ، ولم يكن السيف والمدفع هو الفيصل بين النصر والهزيمة ، ولكن مصر كانت تحارب بأكثر من سلاح فى جبهات عديدة : كانت هناك جبهـــة استانبول ومؤامرات السياسة الدولية يستعمل فيها سلاح الضغط الدولى على السلطان ليؤيد الانجليز فى حربهم ضد مصر ، وجثا السلطان على ركبتيه ضعفا وذلة ، وأصدر فى ١٨٨٢/٩/٦ ـ كما طلب منه الانجليز ـ منشورا بعصيان عرابى وخروجه عن طاعة السلطان ، وشرعية اشتراك الانجليز فى اخماد العصيان المصرى (٤) !! وتلقف الخديو وأعوانه منشور السلطان وقد نشرته « جريدة الجوائب » فوزعوا منها بواسطة العربان المأجورين وجواسيسهم بين الجنود وفى البلاد الوف النسخ مرفقة بمنشورات الخديو التى تدعو الى التسليم . واحدث المنشور هزة فى عقيدة الكثير من الأهالى الذين يمدون الجيش بالمؤن والعتاد طواعية فى سبيل الله ، وزعزع الروح

---

(١) أحمد عرابى : مذكرات عرابى ج ٢ ص ٢٠ (طبعة دار الهلال ١٩٥٣) .
(٢) الطائف عدد ٧٧ فى ١٨٨٢/٩/٧ .
(٣) المصدر السابق عدد ٧٣ فى ١٨٨٢/٩/١ .
(٤) نص المنشور فى مصر للمصريين ج ٥ ص ٢٠٠ ؛ ونشر فى صـــحف الأستانة فى ١٨٨٢/٩/٦ .

المعنوية بين الضباط « وكان صدمة أضعفت عزائمهم ووهنت بها قواهم » (١) ، وفت فى عضد الجنود « فظنوا أنهم عصاة مخالفون لكتاب الله وسنة رسوله (٢)» .

واستطاعت جبهة الرجعية أن تحيط مواقع الجيش المصرى بالخيانة فاشترت الأعراب الذين يختلطون بالجيش ويعملون له أدلاء ومرشدين فى الصحراء (٣) ، وتمكنت من أن تزحف بها على مقر القيادة نفسه ، فاستعملت سلاح الرشوة والأمانى تغرى به النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ، واستطاع عميل الرجعية والاستعمار محمد سلطان أن ينفذ بالرشوة والوعود الى على يوسف - المشهور بخنفس - وعبد الرحمن حسن عضوى قيادة الجيش(٤)، فكان زميلا الخيانة يرسلان عقب كل اجتماع للقيادة خطة الجيش المصرى الى العدو (٥) ، فيترصد الجيش الوطنى وينزل به الهزيمة.

وفى « معركة القصاصين الثانية » (٦) حاول الجيش المصرى أن يدخلها بكل ثقله وقواته ليرمى بالعدو الى القناة ، فاجتمع مجلس الحرب تحت قيادة عرابى ، وحضره جميع أفراد الآلايات الموجودين بمركز التل الكبير ومحمود سامى قومندان مركز الصالحية ، وقرروا الهجوم على مركز التجمع الانجليزى بالقصاصين ورسموا الخطة وعرف كل قائد مهمته فى العملية الحربية « وكان على محمود سامى قومندان مركز الصالحية أن يأتى بجيشه ليلا بحيث يصل الخط المعين للقتال عند مطلع الفجر ، ويقف على يسار جيش مركز رأس الوادى ، ويحيط بميمنة العدو ، والقوة التى على يمين الترعة

---

(١) مصر للمصريين جـ ٥ ص ٢٤٨ .

(٢) مذكرات عرابى (طبعة دار الهلال) جـ ٢ ص ١٨ .

(٣) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٢٥٩ (عرب الطحاوية) .

(٤) ووعد كلا منهما بعشرة آلاف جنيه بعد الهزيمة : التاريخ السرى ص ٣٠٢ .

(٥) مذكرات عرابى (طبعة الهلال) جـ ٢ ص ١٩ .

(٦) فى ١٨٨٢/٩/٨ .

تحيط بميسرته والأعراب يقتحمون الترعة من خلفه ويقطعون على العدو خط الرجعة . وعمل بهذا الترتيب رسم بطرف أركان حرب الجيش وأعطى لكل أمير من القواد نسخة يعمل بموجبها (١) » .
ويمضى عرابى فيصف المعركة فى مذكراته فيقول : وفى الثلث الأخير من مساء ٩ سبتمبر قام الجيش على هذا الترتيب فلما وصل قريبا من العدو أخذ كل محله على خط النار ، ولكن العدو كان عالما بما استقر عليه الرأى بعد أن أطلعهم عليه الميرالاى على خنفس فاستعد العدو للمعركة ، وبادر باطلاق النار واشتبك الجيشان واستبسل المصريون فى القتال وتوالى المد والجزر بين الجيشين وظهرت خيوط الصباح ورحى المعركة دائرة . وتوقع القادة المصريون هجوم جيش « الصالحية » بقيادة محمود سامى على ميمنة الأعداء ليغير من اتجاه المعركة ، ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل ، حين لم يأت محمود سامى بجيشه ، وتأخر عن موعده فقد قابله فى الليل الاعراب المرتشون فأضلوه وجيشه فى الصحراء !! ثم انبلج الصبح فاهتدى البارودى الى الطريق وسارع الى المعركة (٢) ، ولكن العدو كان له بالمرصاد فلما قرب من موقعه وجه اليه بطاريات مدافعه قبل أن يصل الى مكانه من المعركة فتشتت جنوده وولوا الأدبار (٣) » .

وحاول البارودى أن يبث الشجاعة فى القلوب التى انتزعتها المفاجأة ويعيد تشكيل رجاله ، ولكن الهزيمة كانت قد ذهبت بالنفوس وأطاحت بالعقول « وبقى البارودى مع قلة من الفرسان وصمدوا للمدافع والنيران .. وظل مع الأعداء فى قتال حتى لم يبق من حوله رجال (٤) !! » والى هذه المعركة يشير البارودى من قصيدة طويلة :

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠ .
(٢) المصدر السابق والتاريخ السرى ص ٣٠٠ .
(٣) مذكرات عرابى ج ٢ ص ٢٠ .
(٤) الطائف ١٨٨٢/٩/١٠ .

فلما استمر الجـد ساقوا حمولهم
الى حيث لم يبلغـه حاد وسـائق
هم عرضونى للقنـا ثم أعرضـوا
سراعا ، ولم يطـرق من الشر طارق
فكم آبق تلقـاه من غـير طـارد
وكم واقف تلقـاه والعقـل آبق
فلا رحم الله امرأ باع دينـه
بدنيا سواه وهو للحـق رامـق

بين الهزيمة والتسليم :

كانت هزيمة الجيش المصرى فى معـركة القصاصين بداية النهاية ، وفاحت منها رائحة الخيانة ، وأحس العملاء فى الجيش بالاتهامات تضيق على أعناقهم ، فأعدوا مع الأعداء خطة الضربة القاضية ، وكانوا فى مقدمة الجيش وطليعته ، فسهلوا للعدو سبيل الهجوم المفاجىء ، وفتحوا له الطريق ليمر دون انذار أو تحذير ، فأخذ الجيش المصرى على غرة ونزلت به الهزيمة الكبرى فى موقعة « التل الكبير » (١٨٨٢/٩/١٣) .

وعلم محمود سامى البارودى قومندان الصالحية ومن معـه من الضباط بهزيمة التل الكبير ، فقرر الانسحاب من مواقعـه « وقام مع جنوده بقطـارات السكة الحـديد الى أبو كبير ثم المنصورة (١) ، وفى طلخا على الضفة الغربية لفرع دمياط قرر أن ينفذ خطة الدفاع التى رسمتها القيادة من قبل فى حـالة الانسحاب « وكان قد عمل (بلان) خطة بمعرفة أركان الحرب بجميع نقـط المدافعة حتى أسوان (٢) » . وأرسل البارودى برقية الى عرابى بالقـاهرة يخبره بمكانه ويتلقى منه التعليمات ويقول فيها : « من

---

(١) مذكرات عرابى جـ ٢ ص ٣١ .

(٢) مصر للمصريين جـ ٧ ص ٨٤ محضر استجواب محمود سامى البارودى .

سامى لعرابى أن وافق يسأل أحمد (بك) ناشد المهندس عما اذا كان يمكنه تغريق أراضى الشرقية والقليوبية بواسطة قطع جسور الشرقاوية والترعة الاسماعيلية كيلا يكون للعدو طريق لمصر خلاف الخانكة (١) » . وحين جاءه رد عرابى بأنه سيكتفى بقطع خطوط السكة الحديد كتب البارودى برقية ثانية يقول فيها « انه لا يجوز السكوت الى الصباح عن قطع السكة الحديد قطعاً مهولاً من فوق منيا القمح وبلبيس حالا مع قطع جسور ترعة الشرقاوية والاسماعيلية واخبرونا حالا برأيكم (٢) » . وجاء الرد الى البارودى هذه المرة بغير ما يتوقع ، فقد أخذ المجلس العرفى « يبحث فكرة التسليم !! » .

وأسرع البارودى الى القاهرة ليمنع المجلس من التسليم للأعداء « فالقاهرة غاصة بالجند ومخازن الحربية ملأى بالسلاح ، والذخيرة والميرة ووسائل الدفاع متوفرة ، والدفاع واجب وطنى مادام فينا بقية (٣) » ، والصعيد جبهة منيعة للقتال ان هزمت الجيوش المصرية فى القاهرة ، ولكن ريح الهزيمة فى التل الكبير ، وصورة الدمار فى الاسكندرية أدخلا الرعب فى قلوب أعضاء المجلس خوفا على القاهرة من غوائل الحرب والتخريب ، وأصبحوا يميلون كل الميل مع فكرة تسليم القاهرة دون حرب ، وحاول البارودى أن يقنع عرابيا وصحبه القواد ـ ان قرر المجلس اعتبار القاهرة مدينة مفتوحة ـ « بترك القاهرة والالتجاء بالجيش الى الصعيد فيستولى على جميع المراكب ، وتشحن بالذخيرة والتعيينات وتؤخذ الى الصعيد مع الجيش (٤) » . وفى الصعيد يمكن تنظيم الجيش من

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨ ـ ٣٩ ، ٨٤ محضر استجواب عرابى والبارودى .

(٢) مصر للمصريين جـ ٧ ص ٣٩ ، ٨٤ . محضر استجواب عرابى والبارودى .

(٣) مذكرات عرابى جـ ٢ ص ٢٨ .

(٤) مذكرات عرابى جـ ٢ ص ٣١ .

جديد وتعبئة القوى الاسلامية من ليبيا والسودان ثم الهجوم على المعتدى وطرده من البلاد ، واذا ما تغلب العدو مرة ثانية أمكن نقل الجبهة الى السودان (١) ويقول عرابى ردا على مقترحات البارودى : « وحيث أنى رأيت عدم موافقة رأيه لما تحققته من الخراب الذى يحيق بمديريتى القيوبية والشرقية ودمار عاصمة البلاد وسفك دماء الأبرياء على غير جدوى فضلا عما رأيته من تحول الأفكار وانخلاع القلوب ، واختلال النظام بالجيش .. وافقت المجاس على التسليم » (٢) .

وأيقن البارودى أن دوى الهزيمة قد سد الآذان ، وأصاب التفكير بالشلل . فتمثلت له النهاية المزرية فى الاستسلام الذليل للأعداء !! وبعد قرار التسليم لم يقبل أن يسلم نفسه وسيفه طواعية لأعداء الوطن وقال : « انى ذاهب الى منزلى فاذا أرادونى فأنهم يعرفون أين يجدوننى (٣) » .

وسلمت القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ، ودخلها القائد الانجليزى يحف به أعوان الخيانة ومندوبو الرجعية ، ونزل قصر عابدين ، ورفع عليه أعلام الاحتلال !! وانتهت مرحلة من مراحل الحركة الوطنية بالهزيمة أمام المد الرجعى والاستعمارى ، وانطوت صفحة من صفحات الجهاد الوطنى لتصبح ذكرى وتاريخا !!

ليس هناك أشد قسوة ولا أكثر نكيرا من الرجعية وهى فى موقف القوة ومراكز النصر ــ على القوى الوطنية المناهضة لها ، حينئذ تتملكها روح الشيطان ، فتنفث سموم حقدها بالتشفى وتسوم المواطنين سوء العذاب . وكذلك كان أنصار الخديو وأعوان الرجعية

---

(١) مذكرات عرابى جـ ٢ ص ٣١ ، أنظر أيضا مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٩٨ .

(٢) مذكرات عرابى جـ ٢ ص ٣٢ .

(٣) أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه ص ٤٥٠ ، تاريخ الثورة العرابية ص ٤٤٤ .

وعلى رأسهم محمد سلطان عقب تسليم القاهرة واستسلام القيادة الوطنية للهزيمة ، فقد ساقوا أعيان المصريين وزعماءهم الى السجون حتى فاضت بهم وبلغ عددهم ٣٠ ألفا (١) ، وكان البارودى أول من ألقى القبض عليه من زعماء الثورة وزج به فى غياهب السجن ، ثم تلاه بقية الزعماء وزملاء الجهاد .

وحياة السجن تجربة جديدة للبارودى ، ذلك الفارس الذى لم يعرف الأسر ولا القيد ، ورئيس الوزراء الذى كانت بيده مقاليد الأمور ، والزعيم الوطنى الذى وقف فى وجه الرجعية والاستعمار. وأثارت التجربة فى البارودى الفنان مشاعر الألم والالهام ، فهرعت اليه ربة الشعر تعزف له لحن « الوحدة والعذاب » فيصف نفسه بين سجنه وسجانه ويقول :

شفنى وجدى وأبلانى السهر
وتغشتنى سمادير الكدر (٢)

فسواد الليل ما ان ينقضى
وبياض الصبح ما ان ينتظر

لا أنيس يسمع الشكوى ، ولا
خبر يأتى ، ولا طيف يمر

بين حيطان وباب موصد
كلما حركه السجان صر

يتمشى دونه ، حتى اذا
لحقته نبأة منى استقر

كلما درت لأقضى حاجة
قالت الظلمة : مهلا ، لا تدر

---

(١) مذكرات عرابى ج ٢ ص ٣١ ، قدرهم محمود فهمى فى البحر الزاخر ج ١ ص ٢٢٢ ب ٢٩ الفا .

(٢) سمادير : جمع سمدور وهو غشاوة العين ويريد بها الهموم .

أتقــــرى الشيء أبغيــــه ، فـــلا
أجــــــد الشيء ، ولا نفسي تقـــر
ظلمـــــة ما ان بهــــا من كوكب
غير أنفـــاس ترامى بالشـــــــرر

ويستجوب الزعماء أمام « قومسيون التحقيق » أو بالأحرى أمام « محاكم التفتيش » وقد اختير أعضاؤها من عملاء الرجعية الذين أمد لهم الاستعمار فى حيل الخديعة فجعلهم واجهته المزيفة فى البلاد ، فكرسوا همهم لأدانة زعماء الثورة ارضاء لسيدهم المحتل، وامعانا فى التشفى ، وحقد نفوسهم ، وحطت المحن بكلكلها على نفوس الزعماء وقد أضعفتها الهزيمـــة فذهبت ببقية روعها ، وتصوروا سجونهم قبورا يرون فيها نهاياتهم المفزعة ، والسلطات الرجعية تنصب لهم المشانق على مرمى البصر من نوافذهم ، وطحنت سلسلة التعذيب التى تعرضوا لها من خدم الخديو وحاشيته فى السجن قواهم المعنوية ، وقضت على البقية الباقية من تفكيرهم السليم ، وناخ اليأس على الأمة كلها فأضاع رشدها ، وأشعل الخوف من الانتقام طريق الهرب الى جحور الذلة فتسابق الناس اليها حتى اذا جاءوها لم يجدوا شيئا ، ووجدوا الوطن يبكى فيها مستقبل أبنائه من الأجيال القادمة .

وأعلنت سلطات الرجعية والاستعمار حرب الأعصـــاب على الزعماء فى السجون فشنت على أسرهم حملات التعذيب ، وسلطت عليهم ألوانا من الانتقام والأرهاب ، وحاولت بالاغراء والتمنى أن تضرب الزعماء بعضهم ببعض فأمدت لكل منهم على انفراد حبل الأمل ان هو ألقى التهمة على الآخرين ، وزينت لفريق منهم طريق النجاة فى شهادته على عرابى أو البارودى بارتكاب مفتريات وأكاذيب ليكونا كبش الفداء . والرجعية يدفعها الى ذلك روح التشفى والانتقام، والاستعمار يستهدى المخطط الذى وضعه لاحتلال طويل الأمد ، ومن ثم فهو يرمى الى تحطيم المثل العليا فى الزعامة الوطنية لكى

تخمد روح المقاومة الشعبية والكفاح ضد المستعمر ، فالأمة قد وثقت بزعمائها ، وأمدتهم بكل امكانياتها وطاقاتها فى حرب الحرية المقدسة ضد ظلم الأتراك والاحتلال الانجليزى ، فاذا انهزموا أمام القوة فليس من العار أن يقهر القوى الضعيف ، والزمن كفيل بأن يبعث من يحمل المشعل ويواصل الجهاد فتنهض الأمة وتؤيده دفاعا عن شرفها المغلوب ، ولكن الخطر الأكبر على روح المقاومة الشعبية أن يتحطم رمز القيادة المصرية وتلطخ الزعامة بالعار وتصاب بالذل ، وتصور بأنها فى سبيل النجاة بنفسها نسيت الضحايا التى بذلت دماءها فى المعركة تلبية للنداء ، وتتنكر لأنصارها فى محنة المصير ، حينئذ تصاب الأمة بخيبة أمل فى القادة وتفقد الثقة فى الزعماء المصريين ، وتخبو الروح المعنوية للشعب وتموت المقاومة الشعبية للمحتل الغاصب فينعم باستعمار طويل .

ومن ثم كان السجن لزعماء الثورة محنة تعذبت فيها أرواحهم وجسومهم معا ، ومأساة تصدعت منها أكبادهم وانشقت لها مرائرهم ، وذهبت بنفوسهم حسرات ، والبارودى له فى كل ذلك القسط الأوفى والنصيب الموفور ، فقد أعتبر خارجا عن طبقته ، وضالا من بنى جنسه بانضمامه الى صفوف الفلاحين ، ومن ثم تعرض هو وأسرته لألوان التعذيب والأرهاب والتشفى على يد أغوات الخديو وأعوانه من الشراكسة والأتراك !! وحاولوا — بواسطة محام عين ليدافع عن البارودى (١) — أن يساوموه على تخفيف الحكم

---

(١) امتنع المحامون الوطنيون عن الدفاع عن المتهمين خوفا من الحكم الرجعى . وانتهز الفرصة شاب يسمى « يوسف كامل » يحمل جنسية روسية — وعرف بأنه من المرتزقة الذين يعيشون بلا عمل معروف وكان عمره ١٨ سنة وامتهن المحاماة بعد الهزيمة فعين للدفاع عن البارودى . ثم نحته زوجة البارودى ووكلت برودلى للدفاع عن زوجها . انظر برودلى : كيف دافعنا عن عرابى وصحبه ص ١١٠ ، ١٨٧ ، ٢٨٠ .

عنه لقاء معونة « لجنة التحقيق » على ادانة عرابى (١) ؛ ولكنه رفض أن يغدر برفيق الجهاد وأمعن فى الرفض ؛ ولم يذكر عرابيا بسوء ، بل حاول أن يبرر ما ينسبونه الى عرابى ويتلمس له المعاذير (٢) ، وأتوا اليه عن طريق الوقيعة ، فأوحت اليه « لجنة التحقيق » أن عرابيا يتهمه بمحاولة اغراق الشرقية والقليوبية ، وأظهروا له البرقيات المتبادلة بينهما ، ولكن البارودى فاجأهم بالاعتراف بالمحاولة « بناء على خطة المدافعة المرسومة من قبل والواجب اتباعها فى انسحاب الجيش (٣) » ، وظل البارودى على موقف الشرف والأباء الوطنى « كريم الأصل والعنصر » ، فلم يطعن الثورة من الخلف ، ولم يغدر بزملائه ، ولم يستجب للوقيعة بينه وبين عرابى أمام « لجنة التحقيق » (٤) .

بيد أن الوساوس والأوهام أخذت طريقها الى نفوس الزعماء ؛ وجسمتها الوحدة والوقيعة ، فحسب كل منهم أن زملاءه غدروا به. وفى لحظة « الضعف البشرى » التى يتعرض لها الانسان فى مثل هذه الظروف ــ فتختلط عليه سبل التفكير ــ ظنوا ببعضهم الظنون وحسب كل منهم أن الآخرين يأتمرون به ليكون كبش الفداء ، ولم تكن من وسيلة لتبيان الحقيقة ،وقد ضربت عليهم العزلة التامة وانقطعت الصلة بينهم جميعا . وتعرض البارودى كذلك لهذا الضعف البشرى المؤقت وأصيب بخيبة أمل فى الرفاق ، ولكن بقية من كرامته وخلق الفارس فيه أبت عليه أن يجهر بهذا الظن للأعداء فى محاضر التحقيق ، واحتفظ به لنفسه ولم يسره الا لربة الشعر حين جاءته تؤنس وحشته فى ظلمة السجن فغنى لها لحن «الشكوى وعتاب الرفاق » وفيه يقول :

---

(١) بشهادته أن « عرابى » أمر بحرق الاسكندرية وامر باطلاق المدافع بعد رفع الراية البيضاء بالاسكندرية أنظر برودلى ص ٢٨١ ، ٣٠٨ .

(٢) مصر للمصريين جـ ٧ ص ٨٤ محضر استجواب البارودى .

(٣) المصدر السابق .

(٤) برودلى ص ٣٠٨ .

وكنا جميعـــــا ، فلمـــا وقعت
صـــبرت ، وغـــادرنى معشـــرى

ولو أننى رمت اعناتهــــــم
لقلت مقـــالة مستبصـــــر

ولكننى حـــين جـــد الخصـــام
رجعـــت الى كـــــرم العنصر

وساعدت الوحدة وظلمة السجن ،ووطأة اليأس وحرب الأعصاب نمو الوهم وسوء الظن بالرفاق فى نفس البارودى ، فتحول سوء الظن مع الوقيعة الى نقمة على من ظنهم خانوه وغدروا به فأصلاهم بشواظ من هجائه فى مطولة أملتها الأعصاب المريضة والنفس المعذبة بالشك والوهم وفيها « يعرض برؤساء الجند الذين تخاذلوا فى الثورة العرابية (١) » ويقول :

أضعت زمانى بين قـــوم لو أن لى
بهـــم غـــيرهم ما أرهقتنى البوائق

فان أك ملقى الرحــــل فيهم فأننى
لهم بالخـــلال الصالحات مفـــارق

فتبا لهم من معشر ليس فيهـــم
رشيد ، ولا منهم خليل مصــــادق

ظننت بهـــم خـــيرا ، فأبت بحسرة
لها شجن بين الجـــوانح لاصـــق

فيا ليتنى راجعت حلمى ولـم أكن
زعيمـــا ، وعاقتنى لذاك العـــوائق

ويا ليتنى أصبحت فى رأس شاهق
ولم أر ما آلت اليــــه الوثائق (٢)

---

(١) الديوان شرح الجارم جـ ٢ ص ٣٣٤ ـ ٣٤٠ .
(٢) الوثائق : يراد بها هنا العهود والمواثيق .

لم تحقق القوى الرجعية مأربها فى زعمـــاء الثورة عن طريق اعترافاتهم فى « لجنة التحقيق » رغم الوقيعة والدس بينهم ، ورغم ما تخلف فى نفوس أكثرهم من الضعف وسوء الظن والشك بالزملاء ، فلم ينزل بهم الضعف الى الخطيئة الكبرى من التنكر لدورهم فى الثورة ، أو التنصل من تعبئة الأمة لحرب المستعمر ، أو محاولة الغدر بالزملاء ، وانما ألقى بعضهم تبعة تطور الأحداث مع الخديو على تسلط الجيش وسيطرة صغار الضباط الذين دفعهم الحماس الى منع الزعماء من أخذ الأمور بالحسنى واللين ؛ ومن ثم لم تكن التهم الموجهة اليهم ــ اذا كانت هناك عدالة فى المحاكمة ــ لتصل بهم الى حبل المشنقة التى نصبها لهم عدوهم القديم « مصطفى رياض » وزير الداخلية الجديد (١) ، ولم تكن لتحطمهم معنويا أمام الشعب ، ومع ذلك فلم تكد تذهب عنهم صدمة الهزيمة ، وتفيق نفوسهم مما غشيها من الضعف نتيجة لهول الموقف ، ويعود الاتصال بينهم فيتعرفون خديعة الوقيعة ــ حتى استردوا شجاعتهم وعادت اليهم نفوسهم ، واستشعر الندم من أثر فيــه الدس منهم (٢) ، وطلب اعادة التحقيق ليثبت أن ما قاله لم يكن يعبر عن الحقيقة ، وانما أملته الأعصاب المريضة من التعذيب ، الخائفة من الأرهاب والتهديد فى لحظة « الضعف البشرى » (٣) .

ولكن المستعمر استطاع أن يحقق مأربه فى زعماء الثورة ، فقد بعث سوء حظ المصريين اليه عفوا ودون قصد بالوسيلة ؛ ذلك أن بعض أصدقاء الزعماء من البريطانيين وعلى رأسهم مستر بلنت بدا لهم أن يوكلوا محاميا للدفاع عنهم بعد أن امتنع المحامون الوطنيون خوفا من انتقام القوى الرجعية ، وقد يكون بلنت مخلصا فيما فعل،

---

(١) أنظر برودلى ص ٣٧ ، ١٩٦ .

(٢) أنظر برودلى ص ١٢٦ ، ٢١٨ .

(٣) انظر مصر للمصريين ج ٧ ص ١٦٥ ــ ١٧٩ محضر اســتجواب احمد رفعت ، برودلى ص ٢٠٣ ــ ٢٢٧ ، ٢٣٨ ــ ٢٥٤ .

ولكن فكرته اتاحت للاستعمار فرصة يعد على ضوئها مخططا يخدم اغراضه فى البلاد . فقد استطاع المحامى الانجلىزى « برودلى » أن يعيد الأمل المفقود الى قلوب الزعماء ، ولكنه صوره لهم أملا انتزع انتزاعا من بين أنياب السلطات المصرية بفضل السلطة البريطانية ، ودبت الروح ثانية فى الزعماء وكانوا قد حسبوا أنهم لن يخرجوا من السجن الا الى القبر ، ومع كل خطوة من الأمل ، ومع كل حل لمشكلة ، كان « برودلى » يصب فى آذان الزعماء أن انجلترا هى التى تريد العدالة والانصاف وتريد لهم الحياة ، أما السلطات المصرية فقد خبروا بأنفسهم وسائل تعذيبها ، وعرفوا مقدار العدالة فى تحقيقاتها والمصير الذى تريده لهم !! والمصريون بطبيعتهم ذوو عرفان بالجميل ، فأغرق عرابى وهو رئيس الزعماء فى الثناء على انجلترا وعلى عدالتها وانسانيتها ، ولقبها « بحامية الحريات » ، وتمادى فى التبجيل والاعتراف بالجميل لحكومتها وشعبها ، وطلب « برودلى » منه أن يكتب كل ذلك ، فكتب لجريدة « التيمس » البريطانية ، « وللورد دفرين » مبعوث الاحتلال الذى جاء ليضع أساسه وسياسته الطويلة الأمد ، « وتشارلز ويلسون » مندوب السلطات البريطانية فى محاكمة الثوار ، وحتى « لسير ادوارد ماليت »(١) قنصل بريطانيا العام عدو الحركة الوطنية ومستشار توفيق ـ يشكر لهم جميعا ما أدوه للسجناء وما قدمته لهم بريطانيا من الجميل الذى لا ينسى ، وكانت هذه الخطابات تنشر فى الصحف المحلية والأجنبية يقرأها المصريون ويعجبون !! وخدمت النيات الطيبة ، وطبيعة عرابى والزعماء الساذجة مخطط الاستعمار ، فقد حولت كتاباته عن انجلترا « أم الحريات » !! بعض الوقت تيار الكراهية المندفع نحوها من المصريين والمسلمين لاغتصابها أرض مصر الاسلامية ، واعترفوا لها بالجميل لأنها أنقذت زعماء الثورة من المقصلة ووهبتهم الحياة !!

---

(١) نص الخطابات انظر برودلى ص ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ .

الأمل الجديد :

أصبح «برودلى» حلقة الاتصال بين السجناء وعرفوا منه ومن الصحف التى استطاع أن يدخلها اليهم ، دنيا ما وراء الأسوار وهى تدور فى فلك آخر : حفلات ومهرجانات « بدخول الفاتحين !! » ، واستعراض توفيق لجيوش الاحتلال فى ميدان عابدين ترفرف عليه أعلام النصر البريطانية ، ومكافآت ونياشين للخائنين ، وهدايا تقدم لقائد الاحتلال « على انقاذه البلاد من غوائل الفئة العاصية » بينما السجون تغص بألوف الأحرار من المواطنين ، وأيقن الزعماء أن الرجعية لا تأتمر بهم وحدهم ، بل بمقدرات الشعب ومستقبل الوطن ، وحسبوا ــ كما وعدهم برودلى ــ أن السلطات البريطانية سوف توفر لهم محاكمة عادلة علنية محررة من الضغط والخوف والأرهاب ، فعزموا ــ وقد عادت الثقة الى نفوسهم ــ أن يظهروا للعالم أجمع كيف تآمرت الرجعية والاستعمار على شعب مصر المحب للسلام ، وبدأوا بروح جديدة يعدون مذكرات الدفاع ليعلنوا للملأ وللرأى العام العالمى أنهم قاموا بثورة وطنية أيدتها طوائف الأمة جميعا ليخلصوها من ربقة الظلم واستبداد الحكام الأتراك وتحكم النفوذ الأجنبى ، وقادوا الشعب الى حرب مقدسة أقر اعلانها السلطان والخديو وفرض الاستمرار فيها الجمعية العمومية الوطنية ومجلس الوزراء والشعب . وبعث الزعماء السجناء الى أسرهم لتسلم محاميهم أوراقهم الخاصة التى تثبت خيانة توفيق وفيها فتاوى شيوخ الأزهر بانحرافه عن الدين ، وعرائض العمد والأعيان ومشايخ البلاد تؤيد الزعماء فى مطالب الأمة وحرب الانجليز . ويقول « برودلى » بعد أن اطلع على الأوراق

والوثائق : « انها أكثر مما يلزم لنفى تهمة العصيان عن الزعماء ، وانها لتثبت أن الزعماء كانوا يقودون خمسة ملايين ثائر من الأهالى وذلك معناه أن الأمة كلها كانت من خلف الثورة (١) » .

ولكن الحكومة الانجليزية التى أعلنت من قبل فى المؤتمرات الدولية(٢) عصيان الجنود المصريين ، ووسمت الحركة كلها « تمردا عسكريا » ، وأرسلت لقمعها حملة أنفقت عليها ملايين الجنيهات ، لم تكن لتترك الثوار يعلنون على العالم شرعية الحرب ووقوف الأمة خلفهم فى الثورة ضد الطغيان والنفوذ الأوروبى ولم تكن لتطلق عرابيا وزملاءه بعد ذلك من السجن بلا قيد ولا شرط ، والا ، لظهر للعالم كله دور الخديعة وأسلوب الغش الذى أخذته ذريعة لاحتلال مصر (٣) . ومن ثم « بعثت الحكومة البريطانية تعليماتها فى ١٨٨٢/١٠/١٣ الى وكيلها فى مصر بألا تدور فى المحاكمة مناقشات أو تدلى بشهادات حول الدوافع السياسية للثورة أو الأسباب التى تبرر ما قام به الثوار من تهم ، وانما يقتصر على ما يثبت أو ينفى هذه التهم (٤) » ، ورغبت الحكومة المصرية فى الا تنشر قذارات السياسة وفضائحها على الملأ ، وألحت على السلطات البريطانية — وقد أصبح بيدها الحل والعقد — فى أن تتخلص من كابوس الزعماء سواء بقتلهم أو نفيهم من البلاد خشية الرأى العام الذى بدأ يفيق من صدمة الهزيمة ليرى ماحل به (٥) ! ونتيجة لذلك كله أصبحت محاكمة الزعماء شبحا تود كل الجهات أن تتخلص منه ، وكان لابد اذن من « تسوية » للموقف .

---

(١) برودلى ص ١٧٨ ، تفصيلات محتويات أوراق الزعماء انظر المصدر السابق ص ١٦٥ — ١٧٨ .

(٢) مؤتمر الأستانة المنعقد فى ١٨٨٢/٦/٢٣ وحضره أعضاء من انجلترا وفرنسا والمانيا والنمسا والروسيا وايطاليا .

(٣) برودلى ص ٣٠٧ .

(٤) برودلى ص ٤٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٤٤ ، ٣٠٨ — ٣٠٩ .

وجاءت « اليد الفولاذية المغطاة بقفاز من حرير (١) » بالتسوية التى تتفق ومخططها ، وتبرر وجود جيوشها فى مصر ، وهى تقضى باستبعاد جميع التهم الموجهة الى الثوار عدا تهمة العصيان ؛ ومن ثم ينقذون من الموت ويحكم عليهم بالنفى الى جزيرة سيلان . ويقول برودلى : « وحملت مشروع التسوية الى الزعماء وشرحته لهم فى كلمات قليلة ، غير أن الاقتراح نزل عليهم نزول الصاعقة فقد كان الأمل يراودهم فى أن يسمعوا أوروبا والعالم قصة الثورة عن طريق المحاكمة العلنية . وكانوا يتوقون الى أن يروا متهميهم وجها لوجه أمام القضاء ، ويرجون أن ينير الضوء الذى يلقونه على الأحداث الوطنية فى دفاعهم ، الطريق الى اصلاح لم يستطيعوا أن يحققوه بأنفسهم (٢) » . ولكن برودلى أشعرهم بأن « اليد العليا » قد اقترحت ولا يمكن لأحد أن يقف فى سبيل التنفيذ فأن هم صمموا على رفض مقترحها فسيترك الانجليز مصيرهم للسلطات المصرية تسلط عليهم ضباع الحقد وأفاعى الانتقام فتمزقهم أربا وتتشفى بشنقهم فى ميدان عابدين !!

وويل للمغلوب ! فمنطقه دائما واه ضعيف ! وليس أمامه الا التسليم بمنطق المنتصر !! وقبل الزعماء « التسوية » . وحكم على البارودى والستة الكبار معه بالأعدام (٣) ، ثم استبدل بالأعدام النفى المؤبد الى جزيرة سيلان ، وجردوا من جميع الرتب والألقاب، وصودرت أموالهم وما يمتلكون (٤) .

---

(١) لورد دوفرين : أنظر برودلى ص ٣١١ .

(٢) أنظر تفصيلات المناقشة بين برودلى والزعماء فى برودلى ص ٣٢٠ ــ ٣٢٧ .

(٣) أحمد عرابى ، عبد العال حلمى ، على فهمى ، طلبه عصمت ، محمود فهمى ، يعقوب سامى .

(٤) الوقائع المصرية فى ١٨٨٢/١٢/١٤ ، حدد للمنفيين مرتبات شهرية بعد ذلك ليعيشوا منها . وكان مرتب عرابى ٥٥ جنيها شهريا وكل من رفاقه ٣٨ جنيها استرلينيا .

كان البارودى أكثر الزعماء مصابا ، فهو وحده بينهم الذى يملك الضياع الواسعة والقصور العديدة ولكنه لم يأس على شيء منها ، وقدمها قربانا للوطن وفداء فى سبيل الدفاع عن الحرية والمبدأ ، ولم يشك أمره وظالمه الا الله فى قوله :

يا ناصر الحق على الباطل
خذ لى بحقى من يدى ماطلى (١)
أخرجنى عما حوته يدى
من كسبى الحر بلا ناطل (٢)
من غير ما ذنب سوى منطق
ذى رونق كالصارم القاطل (٣)
أتلو به الحق وأرمى به
نحو العدا فى الرهج الساطل (٤)
فان أكن جردت من ثروتى
ففضل ربى حلية العاطل (٥)

عادت الى البارودى نفسه الشجاعة بعد أن لفظت « الضعف البشرى » الذى الم بها حينا ، وتبرأت من الشعور الطارىء الذى راودها تحت ضغط المحنة واليأس ، وارتفعت به روحه ثانية الى الدرجات العلا من مواقف البطولة المعنوية ، وطربت ربة الشعر لعودة الروح الى شاعرها وناولته قيثارتها فى ظلمة السجن ليرد على صحف الرجعية التى تقطرت الأقلام المسمومة فيها بالتشفى (٦) ، وليعزف نشيد « عودة الروح » ، فيعلن للناس أنه عاد . عاد كما

---

(١) الماطل هنا معناه الظالم .
(٢) بلا ناطل : بلا شيء .
(٣) القاطل : القاطع .
(٤) الرهج الساطل : الغبار المرتفع .
(٥) الرجل العاطل من المال : الخالى منه .
(٦) انظر جريدة الأهرام فى شهرى نوفمبر وديسمبر ١٨٨٢ .

عرفوه زعيما من زعماء الثورة الوطنية ينتصر للرشاد على الظلم وللعدل على الغى والطغيان .. عاد أبى النفس كريمها لا يقبل المذلة ولا الضيم .. عاد ليبعثها شعواء على أعدائه وأعداء الوطن ثانية فيقول من قصيدة العودة :

كل صعب سـوى المذلة سـهل
وحيـاة الكريم فى الضـيم قتـل
ان مـر الحمـام أعـذب وردا
من حيـاة فيها شـقاء وذل
أنا راض بترك مـالى وأهـلى
فالعفـاف الثراء والنـاس أهـل
لا يلمنى على الحفيظـة قـوم
غرهم منظـر الحيـاة فضـلوا
ألفوا الضيم خشية الموت والضـ
ـيم لعمـرى فجع خسيس وثكل
كيف لا أنصر الرشـاد على الغيـ
ـى وعقـلى معى والنفس فضل (١)

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

الفصل الثالث

فى المنفى

رحلة الفراق الحزينة :

تحت جنح الليل ، وفى سياج من السرية الكاملة حاول الخديو وحكومته أن يخفوا عارهم وهم يخرجون الزعماء المنفيين من الوطن ، فأخذوهم فى الظلام خلسة الى قطار أطفئت أنواره فى « ثكنات قصر النيل » (١) أسرع بهم تحت الحراسة المشددة الى السويس . وما يكادون ينقلون على عجل الى الباخرة الانجليزية (مريوتس) مربوط المنتظرة فى المرفأ حتى تنطلق بهم فى الثامن والعشرين من ديسمبر ١٨٨٢ بعيدا عن الوطن ليزول الشبح الذى كان يجثم على صدر الاستعمار والرجعية فيذكرهم بجريمتهم المشتركة فى خنق شعب كان يبغى الحرية والاستقلال .

وحانت ساعة الفراق ، ووقف البارودى يلقى نظرة الوداع على الوطن الحبيب ، وحيدا (٢) الا من آلامه التى يتفطر منها فؤاده ،

---

(١) مكانها الآن مبنى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى العربى وفندق هلتون ومبنى جامعة الدول العربية جوار كوبرى قصر النيل .

(٢) لم يصطحب البارودى فى نفيه سوى خادمه الأسود « كافور » وكما تقول معلومات الأسرة أنه لم يصطحب زوجته عديلة يكن وبقيت مع أولادها : محمد ، وسميه ، وسميرة ، وسرية ، وستيرة وكانوا ما يزالون صغارا ولم تسافر مع زوجها الى سيلان .

حسيرا على آمال مصر التى تحطمت معها آماله ، ملتاعا لفراق الأهل والولد محزونا لبعده عن موطنه وملاعب الصبا ومغانى الشباب والباخرة ترفع مراسيها لتأخذ طريقها الى المنفى البعيد . ويسجل البارودى فى « لوحة الوداع » الخالدة مشاعره المختلطة فى اطار حزين ، ألوانها من دموعه ، وظلالها من آلامه ، لكنه لايستسلم فيها الى التهالك بل يتلمس الكبرياء له مخرجا للجزع والدموع ، وتمتزج فيها انفعالاته المختلفة فبينا اليأس يجثم بكآبته على جانب من جوانب الصورة يضيء شعاع الأمل جانبها الآخر ، فخرجت قصيدة « محا البين » فنا جديدا لمبدع يعانى الألم العبقرى يقول فيها :

ولما وقفنا للوداع وأسبلت
مدامعنا فوق الترائب كالمزن (١)
أهبت بصبرى أن يعود فعزنى
وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن
ولم تمض الا خطرة ثم أقلعت
بنا عن شطوط الحى أجنحة السفن (٢)
فكم مهجة من زفرة الوجد فى لظى
وكم مقلة من غزرة الدمع فى دجن (٣)
وما كنت جربت النوى قبل هذه
فلما دهتنى كدت أقضى من الحزن

وتتدفق على مشاعر البارودى ذكريات الأحداث فيتمثل ما حل بالوطن من ظلم الرجعية وغدر الاستعمار فلا يجد لنفسه مقاما فيه ويهتف بقوله :

---

(١) الترائب : جمع تريبة أعلى الصدر ، والمزن السحاب ذو الماء .
(٢) الخطرة هنا كناية عن اللحظة القصيرة .
(٣) الدجن : المطر الكثير .

وكيف مقامى بين أرض أرى بهـــــا
من الظلم ما أخنى على الدار والسكن
فسمع أنين الجور قد شاك مسمعى
ورؤية وجه الغدر حـــل عرى جفنى

وتمضي « مريوتس » بالمنفيين الى مصيرهم الجديد فتصل ميناء « كولومبو » عاصمة جزيرة سرنديب (١) الجديدة فى ٩ يناير ١٨٨٣ ، وكانت أنباء الزعماء المصريين قد سبقتهم اليها فاستقبلتهم الجزيرة استقبالا حافلا ، واحتفى بهم المسلمون من أهلها احتفاء كبيرا (٢) . وأعدت لهم حكومة سيلان أربع دور لسـكناهم نزل البارودى وتابعه « كافـــور » مع محمـــود فهمى وأسرته فى واحدة منها (٣) .

من ظلمة النفى والألم تفجر نور الشعر :

طوح القدر بالبارودى الى منفاه وانتهى به الى سرنديب ، وفى المنفى يبدأ الطور المظلم من حياة البارودى ، أقتات فيه الألم ، ومضغ اليأس ، وكرع اللوعة ، واجتر الذكريات . كان يطوى على ذلك كله جوانحه ثم يخرج ليعيش مع الناس والرفاق بنفس تكسوها القوة وكأن الأحداث لم تنل منها . ومن ظلمة النفى تفجر النور فى حياة الفن والشعر والقصيد ، أمدها « الألم العبقرى » بنمير من آياته البينات ، وقدحت اللوعة زناد شاعريته فأورث لنـــا القصـــائد الخالدات ، واثارته الذكريات فغنى لأيامه الخاليات ، ولازمته ربة الشعر لا تفارقه بعد أن أصبح متفرغا لها فى منفاه يسبـــجل على قيثارتها خطوات الزمن الوئيدة الثقيلة وهى تدب اليه بأحداثها فتغير من كل شيء فيه الا شرفه وكرامته ، ولئن كان قول البارودى:

---

(١) سرنديب وتعرف الآن بسيلان .
(٢) تعداد المسلمين بها وقتئذ حسب تقدير عرابى نحو ٢٥٠ الف مسلم .
(٣) مذكرات عرابى ج ٢ ص ١٦١ ، البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٤ .

أنظر لقولى تجـــــد نفسى مصورة
في صفحتيه فقـــولى خـط تمثالى

صادقا في حياته الأولى فهو أكثر صـدقا في حيـاة المنفى ، ذلك لأن شعره كان سلواة ، وكان متنفس همه حين ثقلت وطأة الاغتراب على الرفاق فطارت منهم الألباب ، وروع اليأس قلوبهم فمرضت منهم النفوس ، فلم يجد له ملجأ من كل هذه الآلام والأحزان سوى ربة الشعر يهرع اليها فيترنم واياها بهمومه ، ويستعين بأنغامها على التصبر ان أعوزته الى الصبر وسيلة ، ويتخذ منها رسولا الى النائين عنه بمصر من الأهل والأحباب والولد والصحاب .

كانت ربة الشعر مع البارودى مثال الوفاء وله نعم العزاء ، وقعت له ألحانا من الحزن مختلفة الألوان ، وألهمته أبلغ آياتهـــا لينشدها في ظلمته العاطفية بمنفاه فأصبح كبلبل الظلماء يردف تغريدا بتغريد ، ويقول شعرا هو أنس المحزون وعزاء الثكالى وسلوة العاشق ، شعرا يلهم الصبر على المكاره والجلد على الشـــدائد ويقوى الأمل في الله ، ويصعد مع أبياته كربة الهم وحرقة الآلام . يمضه الحنين الى الأهل فيشكو النوى ، ويبين له طيف الوطن في أروع صورة فيرسمه في أجمل عبارة ، ولكن الوطن لا يستجيب لدعائه فيحز الأسى في نفسه ويتوجع . ثم تراجعه شركسيته ويثور في عروقه دم المماليك فيعود الى الفخر . وتتوالى عليه رسل الموت تخبره بوفاة الأهل والأصدقاء فيرثى ويبكى ويسلم أمـــره لله ، ويلفه الأسى والألم ، ويحيط به اليأس فلا يجد ملجأ من ذلك كله الا في التوجه بكليته الى الزهد ، ولكنه لا يعثر فيه على الشـــفاء فما زالت جراح نفسه تهجمه بالعذاب فيثور ويبلغ بثورته أقصى مداه ، ولكنها ثورة أشبه بصحوة الموت قبل أن يستسلم للقضاء وقد دب اليه الشيب والمرض والعجز فضعف حتى أصبح « أشلاء همة في ثياب » وغدا « لا يستطيع الثوب يسحبه » وصار يعـــد

أكفانه من نسيج شعره ، وينشد رثاءه لنفسه وهو يظن أن أحـدا لن يجود على الغريب البعيد برثاء !

وربة الشعر فى كل هذه الأطوار مسلمة اليه نفسها مسلسة له قيادها ، مادة اليه قيثارتها تلهمه وتعزف له ، وتعينه فى هـذا المنفى على أن يعيد الى الشعر العربى جدة لا تبلى ، ويزيل عنه صدأ الضعف وأوشاب الانحلال ، ويبعث فيه الروح التى كادت من ضعفه تهجره ، وتنفث فى روعه ليجعل من آلامه وحسراته وثوراته ويأسه وآماله وحنينه ودموعه وضعفه نسيجا جديدا لثوب الشعر العربى الحديث ، ومصدرا لبعث جديد . وأداة لنهضة اللغة السليمة والأدب الرفيع بعد أن لفتهما الأكفان قرابة تسعة قرون.

* * *

وما ان يستقر البارودى فى منفاه حتى يزوره طيف ابنته سميرة فيهيج نفسه ، وينكأ جرحه ، وتتداعى اليه الذكريات ، وينشد أولى قصائده فى مستقره الجديد يفرغ ما يموج به صدره من الانفعالات فيقول فيها :

تأوب طيف من سميرة زائر
وما الطيف الا ما تريه الخواطر

الم ولم يلبث ، وسار وليته
أقام ، ولو طالت على الدياجر

ثم يسترد قواه ولا يدع الضعف يستبد به ، ويسمو بنفسه فوق النكبة وفوق القوى التى تتآزر على حربه ، فيقول :

فماذا عسى الأعداء أن يتقولوا
على ، وعرضى ناصح الجيب وافر ؟

ملكت عقاب الملك وهى كسيرة
وغادرتها فى وكرها وهى طائر

حملة التشهير :

وتهب رياح السموم على البارودى ورفاقه من صحف القاهرة ، فقد أطلقت الرجعية والاستعمار أقلامهما المسمومة فى « حملة تشهير » على زعماء الثورة تشوه سمعتهم ، وتلصق بهم التهم ، وتبث الشبهات فى نفوس الشعب حول صلتهم بالثورة ، وتعزوها الى « مآرب شخصية ومنافع ذاتية » وتشكك فى وطنية الزعماء ، وفى اخلاصهم للأمة يوم قادوها الى الثورة ثم الى الحرب . وكانت التهم التى وجهتها الأقلام المسعورة المأجورة الى البارودى أنه لم ينضم الى الثورة الا طمعا فى الملك ، وأملا فى أن « يثب الى العرش » بعد خلع توفيق . وتتألم مشاعر الشاعر للمحاولة الدنيئة التى تسعى لتشويه ذكرى جهاده الوطنى وهى كل ما بقى له فى الوطن ، ويرد على متهميه بمطولة ينظم فيها « قصة الثورة » ويحدد مكانه منها ، فيقول :

يقول أناس ، اننى ثرت خالعا
وتلك هنات لم تكن من خلائقى (١)

ولكننى ناديت بالعدل طالبا
رضا الله واستنهضت أهل الحقائق

أمرت بمعروف ، وأنكرت منكرا
وذلك حكم فى رقاب الخلائق

فان كان عصيانا قيامى ، فأننى
أردت بعصيانى اطاعة خالقى

وهل دعوة الشورى على غضاضة
وفيها لمن يبغى الهدى كل فارق ؟

بلى ! انها فرض من الله واجب
على كل حى من مسوق وسائق

---

(١) المراد بالخلع هنا خلع توفيق ليخلفه فى الملك .

ويمضى فيبين للناس والتاريخ كيف قامت الثورة تحارب الظلم والطغيان ، وكيف وقفت الأمة صفا واحدا من وراء زعماء الثورة تؤيدهم فيقول :

فلما استمر الظلم قامت عصـــابة
من الجند تسعى تحت ظل الخوافق
وشايعهم أهـــل البــــلاد ، فأقبلوا
اليهـــــم سراعا بين آت ولاحـــق
يرومون من مولى البلاد نفــــاذ ما
تألاه من وعــد الى النـــاس صادق
فهذا هو الحق المبين ، فلا تســـل
ســواى ، فأنى عــالم بالحقـــائق

واذا كانت الحقائق كلها تشير الى أن البارودى حين نصبته الثورة مستشارا لها ثم زعيما من زعمائها لم ينضم اليها لتحقيق مأرب يراوده أو ليتخذها سلما للوصول الى مطامعه ، فأننـــا لا نستطيع أن نبرئه براءة كاملة من تطلعه الى الملك فى فترة خاصة من حياته هى فترة شبابه . وفى يقينى أن البارودى فى الطور الأول من شبابه وهو يعمـــل ياورا لأسماعيل وكبيرا لياوران توفيق (ولى العهد) (١) ، كان يرى نفسه بما ملكت من شجاعة ورأى أحق بالملك من هؤلاء الذين يجلسون على دسته تقودهم لذاتهم ويستشرى الفساد فيهم ويستولى على عقولهم الأفن والخبل ، ومن ثم راوده طموح الشباب وأحلامه ، وتمنى ملك مصر ليقود البلاد الى حيـــاة أفضل يسود فيها العدل والمساواة والشورى . كانت أمانى الشباب وأحلام الفتوة ، لكنه لم يكن يملك من الوسائل والامكانيات ما يحققها فظلت فى حدود نفسه وعواطفه لا تخرج الى الوجود الا قولا فى شعره ، وحين بدأت الثورة تخرج من حيز التفكير والتدبير الى

---

(١) فيما بين ١٨٦٣ ـ ١٨٧٥ وكانت سنه ما بين ٢٤ ، ٣٦ سنة .

الوجود الفعلى كقوة فى عالم الأمة وجد البارودى ـ كما سبق ـ أنه لا يملك مقومات الزعامة الشعبية التى يملكها أحمد عرابى فألقى اليه بزمامها وبايعه بالزعامة وقبل أن يكون الرجل الثانى فى التنظيم الثورى ، وهو الوزير ثم رئيس الوزراء .

وخلال الأزمة الدستورية التى انتهت باستقالة وزارة شريف (فبراير ١٨٨٢) وحين وقف الخديو وشريف فى صف « المراقبين الماليين » ضد مجلس النواب وتجاوبت الأصداء بالتخلص من الأسرة الدخيلة كلها ، اتجهت الأنظار الى البارودى ليكون خلفا لتوفيق ، ولكنه عزف عن المنصب وزهد فيه حفاظا على وحدة الصف الوطنى فهناك من هو أحق بالملك منه ان كان ثمة تغيير ، وذهب البارودى الى عرابى ـ كما يقول عرابى نفسه « ثم أقسم لى أنه مستعد لأن يضحى بحياته ويجود بآخر قطرة من دمه فى سبيلى وسبيل الوطن ، وأن يجرد حسامه وينادى باسمى خديويا لمصر (١) » .

وكان البارودى أول من فكر فى قلب نظام الحكم فى مصر الى جمهورية مستقلة عن تركيا ، حيادية كسويسرا (٢) وآمن بأن ذلك أفضل أنواع الحكم فى بلد كمصر ، وأصبحت الفكرة عقيدة يدعو لها وأملا يكرس حياته من أجله ، ليتحقق قبل أن يموت (٣) ومن ثم لم يكن ذلك الأمل هو الوثوب الى العرش كما ادعته « حملات التشهير » ـ وانقاد لها بعض المؤرخين ـ لتشكك فى اخلاص الرجل ولتحيطه بظلال من التهم فتحطم مجده الوطنى ، وقد اعترف للبارودى زملاء الجهاد ورجال « الحزب الوطنى » وزعماء الثورة بالفضل وبأن الحركة الوطنية تدين له بالكثير ، وما داخلتهم ريبة ولا طاف بهم خاطر من شك فيما ألصقته به أقلام التشهير التى انطلقت مسعورة

---

(١) كشف الستار جـ ١ ص ٢٧٢ .

(٢) التاريخ السرى ص ٢٥٥ .

(٣) المصدر السابق .

تلطخ سمعته وسمعة الزعماء جميعا ، فيقول عنه عبد الله النديم « وقام محمود سامى بما بيض تاريخه الجليل ، وحفظ له الذكر الجميل ، فله اليد البيضاء أيام التأسيس مما أتاه من كل أمر نفيس، فطالما سهر الليالى الطوال وتحمل الحمول والأثقال ، وحارب رياضا وحيدا وظاهر الخديو فريدا ، وبذل جهده فى منع التخالف وجمع الأجناد على التحالف ، ورضى أن يكون قائدا تحت الادارة وأغمض عن كونه رئيس الوزراء (١) » .

ويقول عنه أحد الصحفيين الذين خالطوا رجال الثورة وعاشوا معهم الفترة العصيبة من الجهاد الوطنى ، وعرفوا البارودى عن قرب (٢) « . . وقد ظهر لى أننا كنا مخطئين فى تقدير محمود (باشا) سامى ، فأنى تحادثت معه كثيرا ، وسألت عنه حتى من أعدائه ، فعلمت أنه كان من زعماء الحركة الوطنية منذ عهد اسماعيل ، وقد كابد كثيرا من المشاق لأجل آرائه ، ولكنه لم يتزعزع ، وكثيرون من الحزب الوطنى مثل عبد الله النديم ومحمد عبده بل وعرابى نفسه يعترفون بأنهم مدينون بمساعدته لهم وولائه للحركة الوطنية . وقد أغراه اسماعيل على أن يترك الحزب ، وعرض عليه المال ولكنه رفض ، وهو ينفق الآن جميع ايراده الضخم على الحزب ، ومنزله اشبه بقافلة حطت رحالها فى الطريق . أما حياته الشخصية فحياة فيلسوف ، لا ينفق شيئا على نفسه ، وهو قانع راض بما يأتى به القدر . . وكراهية الأتراك له دليل على وطنيته » .

لم يخف اخلاص البارودى للثورة ومبادئها عن الوطنيين أو الأجانب على السواء ، ومن الذين خابروه عن قرب « بلنت » صديق الزعماء ويقول عنه : « محمود سامى كان دستوريا متحمسا ومصلحا ووطنيا صادقا ، اما من حيث مواهبه فقد كان أسمى

---

(١) مذكرات عبد الله النديم السياسية ص ٧٥ .

(٢) لويس صابونجى مراسل بلنت من خطاب له الى بلنت فى ١١ يونيو ١٨٨٢ أنظر التاريخ السرى ص ٢٤٣ .

بكثير من عرابى ، بل كان من أعظم الناس علما وتهذيبا فى مصر ، فقد كان متبحرا فى آداب اللغتين التركية والعربية كما أنه كان حجة فى تاريخ مصر ، وهذا كله فضلا عن مواهبه الشعرية العظيمة الممتازة.. وقد كان الدور الذى قام به فى الثورة الوطنية دور اخلاص لمبادئه الدستورية وللحركة الوطنية . وقد دفع بسبب اخلاصه ثمنا غاليا فأنه كان غنيا ومن ثم تعرض لخسارة كبرى بعد الهزيمة (١) » .
من ذلك كله نستطيع أن نؤكد أن البارودى لم يتخذ الثورة مطية لأغراضه . ويعود البارودى الى « حملة التشهير » فيرد على افتراءاتها بقوة فى مطولة ثانية يثبت فيها ويؤكد أن ثورته كانت دفاعا عن دينه ووطنه خالصة لوجه الله فيقول فيها :

فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى
ذنب أدان به ظلما وأغترب
أثريت مجدا ، فلم أعبأ بما سلبت
أيدى الحوادث منى ، فهو مكتسب
وما أبالى ونفسى غير خاطئة
اذا تخرص أقوام وان كذبوا
ها انها فرية ، قد كان باء بها
فى ثوب يوسف من قبلى دم كذب

ويوجه سهام هجائه الى صدور أعدائه من رجال الحكم الرجعى الذين دفعهم التشفى والحقد الى تشويه جهاده ويفخر عليهم فى مطولة ثالثة يقول فيها :

فلا يسر عداتى ما بليت به
فسوف نفنى ويبقى ذكرى الحسن (٢)

(١) التاريخ السرى ص ١٠٥ — ١٠٦ .
(٢) عداة : جمع عاد وهو المعتدى والمعادى .

ظنـوا ابتعــادى اعقـــالا لمنقبتى
وذاك عز لهـــا لو أنهم فطنوا (١)
يخفون من حسد ما فى نفوســهم
ويظهرون خـــداعا غير ما بطنــوا
بلوتهـم فسئمت العيش وانصرفت
نفسي عن الناس حتى ليس لى شجن
فان يكن فاتنى مــا كنت أملكــه
فالبعــد عنهم لمــا أتلفتــه ثمن (٢)

الوحدة ومواكب الأحزان فى النفى :

وتمر الأعوام ثقيلة الخطى على الزعماء فى المنفى فتضيق صدورهم بالاغتراب ، وينال المناخ الاستوائى منهم فتعتل أبدانهم وتهاجمهم الأمراض . وتشغل الحياة الأهل والصحاب فتقل الرسائل اليهم فيظنون أن النسيان قد جر ذيوله عليهم . ويتمثلون الأبدية فى النفى فتهلع نفوسهم ، ويجثم عليهم غول الفراغ فتتأثر معنوياتهم ، وتدب الفرقة ، ويقبل بعضهم على بعض يتلاومون وتستشرى الخصومة حتى يقع بينهم الشقاق (٣) ، فيعتزلهم البارودى ومنازعاتهم ،وهو يعلم أنها محنة الأعصاب المشدودة أرهقتها الغربة والفراغ ، ويسكن البارودى وحده فى منزل على ربوة عالية بمنأى عن المتخاصـمين فتزيد الوحدة من آلامه ويطول به السهاد ، ويتلفت حوله فلا يجد من يؤنسه الا خادمه كافورا فيلم به طائف من الحسرة على نفسه يصورها فى قوله :

وما كنت أخشى أن أعيش بغــــربة
يعللنى فيها خـويدم أســــــود

---

(١) اعقالا لمنقبتى : حبسا لكريم افعالى .
(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٣) أنظر تفاصيل النزاع فى البحر الزاخر جـ ١ ص ٢٣٤ — ٢٣٩ .

ويقضى البارودى أولى لياليه فى مستقره الجديد عليلا يعالج ما يلقاه من لوعة وحده ، وتنتابه الآلام وكأنها أنياب حيات تنهشه ، ويدور بعينيه فلا يجد من يخفف عنه أوصابه وعذابه ، ثم يرى سيفه وقد علاه الصدأ فى غمده فتهيج ذكرياته ويناجيه فيقول :

أقول له والجفن يكسو نجاده
دموعا كمرفض الجمان من العقد
لقد كنت لى عونا على الدهر مرة
فما لى أراك اليوم منثلم الحد ؟

وترثى ربة الشعر للوحيد العانى وتخشى عليه كتمان ما به من عذاب وألم فتسعفه وتعزف له الألحان ليغنى ويصعد فى غنائه بركان الألم الذى تنطوى عليه نفسه فيريحها ، وتتخير له فيما تتخير لحن « العزلة على قمة الجبل » فيرسمها لوحة من أروع درره فى مطولة تنبض بالحركة والحياة يقول فيها :

أبيت منفردا فى رأس شاهقة
مثل القطامى فوق المربأ العالى (١)
فلو ترانى وبردى بالندى لثق
لخلتنى فرخ طير بين أدغال (٢)
لا يستطيع انطلاقا من غيابته
كأنما هو معقول بعقال
فذاك مثلى ، ولم أظلم وربتما
فضلته بجوى حزن واعوال
شوق وناى وتبريح ومعتبة
يا للحمية من غدرى واهمالى

وتتخير ربة الشعر له لحن « ليلة الذكريات » فيغنيه فى مطولة مطلعها :

(١) القطامى : الصقر ، المربأ : المكان الذى يقف فيه من يرقب .
(٢) اللثق : المبتل .

هل من طبيب لداء الحب أوراقى
يشفي عليـــلا أخا حـــزن وايراق

يذكر فيها الحزن الذى براه والأشواق التى رعت كبده ، ونجوم الليل التى يرعاها وكأنما شدت اليها عيونه ، وتطوف به ذكريات الوطن فيدعو الله ألا تمسه بائقة ، ويهفو الى نسمة من جو مصر العبق حمى قومه ومنبت آدابه وأعراقه ، ويصور اللهفة والشوق اليها فى قوله :

أصبو اليها على بعــــد ، ويعجبنى
انى أعيش بهــــا فى ثوب امــلاق

ويقبل عام ١٨٨٥ ، وتزحف معه على البارودى مواكب الأحزان فيتخطف الموت زوجته بالقاهرة ، وتعتصر المنون شبابها ولما تجاوز السابعة والثلاثين ، وكانت قد أمرضها الحزن وهرى كبدها الأسى وفتت مرارتها الألم منذ فراق الزوج الحبيب (١) ، فلقيت ربها شهيدة الحب والوفاء ، ولم تكن قد أخبرته فى رسائلها بأمر هذا المرض حتى لا تضيف الى عذاب الغربة عذاب التألم من أجلها (٢) . ويفجأ البارودى الناعى بالخبر فينزل عليه نزول الصاعقة وتدركه ربة الشعر بقيثارتها تنشد له « نشيد الرثاء » حتى لا يبخع نفسه على أثرها ، فيصف نفسه حين وافاه الخبر فى قوله :

ورد البريد بغـــــير ما أملتـــه
تعس البريد ، وشاه وجـه الحادى
فسقطت مغشــــيا على كأنمــــا
نهشت صميم القلب حيــــة وادى

---

(١) تقول مذكرات الأسرة الخاصــــة ان عديلة زوجـــة البــارودى ولدت عام ١٨٤٨ ومرضت باليرقان أو المرض الاصفر وبالكبد والمرارة بعد نفى زوجها حزنا عليـــه .

(٢) مذكرات الأسرة .

ويطحن البارودى الأسى لفراق « زهرة حياته » ويكاد يقضى عليه ، ويسحقه الحزن عليها حتى يوهن عزمه ويحطم عوده كما يقول:

أبلتنى الحسرات حتى لـم يكد
جسمى يلوح لأعـين العـواد

وتتمثل له زوجته فيتحدث اليها وكأنه يناجيها أو يناغيها ؛ ثم يهلع من تصورها فى جوف القبر المعتم ، ويتمنى لو أن هناك فداء لفداها فيقول :

أسليلة القمـرين ! أى فجيعـة
حلت لفقـدك بين هـذا النادى ؟
أعـزز على بأن أراك رهينـة
فى جـوف أغبر قاتم الأسـداد
لو كان هـذا الدهر يقبـل فدية
بالنفس عنـك ، لكنت أول فادى

ويعتب البارودى على الدهر ويستنكر منه فجيعته فى حليلته وكانت عدته فى الحياة ، ويفكر فى بناته الصغار ويسائل الدهر اذ كان مغاضبا له ومحاربا : أفلا رق لصغاره وقـد تركن محترقات القلوب باكيات العيون وحيدات لا يرعاهن أحد فيقول :

يا دهـر فيم فجعتنى بحليـلة ؟
كانت خلاصـة عدتى وعتـادى
ان كنت لم ترحم ضـناى لبعـدها
أفلا رحمت من الأسى أولادى

ومطولة البارودى التى يبكى فيها زوجته الحبيبة ويندبها على البعد من نادر الشعر العربى ، فقليلا ما رثى الشعراء العـرب زوجاتهن ذلك لأن رثاء النساء لم يكن مألوفا فى البيئة العربية . ورثاء البارودى لزوجته من الشعر الذى يسميه الغربيون بشعر « العلاقة العائلية الباطنة » وقد استطاع البارودى أن يصور الحزن

الحقيقى على الحبيب الفقيد حتى ليكاد المرء يحس من القصيدة لهفة الشاعر وقد وهن عزمه فى عباراته ويشعر بجمرات الحزن فى كلماته ، ويرى الدموع مدرارا على وسادته ، والحزن فى القصيدة حزن عميق جدير بأن يعد نموذجا فى الشعر العربى للعاطفة الصادقة بين الزوج وزوجه ، وللعلاقة القوية التى مزجت بين روحيهما وحياتيهما حتى لتخال كلا منهما شطر الآخر وجزءا منه لا يتشهى الحياة بدونه ، ويكاد يقضى احدهما ان قضى الآخر .

ولا يترك القدر البارودى يفيق من صدمة وفاة زوجته حتى يلاحقه بأخرى ، فينشب الموت أظفاره فى شباب ابنته « ستيرة »(1)، ويأتى نعيها الى الأب المنكوب فى المنفى فلا يجد فى قلبه موضعا لمزيد من الآلام ، ولا فى مقلتيه فضلة من دموع ، ويستنجد بشعره يسكب فيه حزنه ويندب به ابنته فيعصاه القريض ولا تجود عليه ربة الشعر بغير بيتين اثنين :

فزعت الى الدموع فلم تجبنى
وفقد الدمع عند الحزن داء

وما قصرت من جزع ولكن
اذا غلب الأسى ذهب البكاء

ويدرك يعقوب سامى أن رئيسه السابق وزميله فى الاغتراب وشريك النكبة يكاد يودى به الأسى ويوشك الحزن أن يقضى عليه فيحاول — فى هدنة من مواكب الأحزان — أن يأسو جراح صديقه ويخفف من نكباته وآلامه ، فيزوجه بابنته « أمينة » أواخر عام ١٨٨٥ (2) . وتتحمل الزوجة الصغيرة (3) مسئوليتها بشجاعة فتبذل من ذات نفسها ومن قلبها الكثير للزوج العانى الكسير ،

---

(1) معلومات الأسرة .
(2) مذكرات الأسرة الخاصة .
(3) تزوجت وعمرها ٢٩ سنة .

وتمنحه الرفقة المؤنسة والحب الصادق ، وتعطيه الأهل والولد ؛ وتتمكن من أن تنفذ الى ظلمة نفسه فتضيء بعض جوانبها ، وتخفف عنها بعض ما تحمل ، ولكنها لم تستطع أن تعيد اليه ابتسامته وقد ضاعت الى الأبد ، أو ترد اليه نفسه وقد ذهبت حسرات .

ثم تتجدد على البارودى مواكب الأحزان وتنقضي سريعا فترة الهدنة التى عقدتها معه الأيام فيأتيه البريد تباعا من مصر يحمل الناعى فيه موت الصحب والاخلاء وتكر صولة الأحداث على أهله وأترابه فتسكنهم القبور وهو ناء بعيد . ففي عام ١٨٨٩ يغتال الردى صديقه الكاتب الشاعر عبد الله فكرى خدن شبابه ؛ ورفيق ندواته الأدبية ، ووزيره للمعارف فى وزارة الثورة ، ثم يقفى على آثاره فى نفس العام بالعالم الأديب الشيخ حسين المرصفى أستاذه ومفقهه، ويحزن البارودى على صديقيه حتى يمضه الحزن ويبكيهما حتى تتقرح مقلتاه ويبكى معهما الوطن المفقود وعمره الضائع . فيرثى نفسه وهو يرثى صاحبيه ويرسم صورة هذا الطور من عمره بريشة فنان مبدع خلق من الألفاظ ألوانا لريشته وأحال أحزانه الى ظلال لصورته فيقول :

أخلق الشيب جدتى وكسانى
خلعة منه رثة الجلباب

ولوى شعر حاجبى على عيـ
ـنى حتى أطال كالهداب (١)

لا أرى الشيء حين يسنح الا
كخيال كأننى فى ضباب

واذا ما دعيت حرت ، كأنى
أسمع الصوت من وراء حجاب

كلما رمت نهضة أقعدتنى
ونية لا تقلها أعصابى

---

(١) الهداب : مفرد أهداب وهو خمل الثياب .

لم تدع صـــولة الحـــوادث منى
غـــير أشـــلاء همـــة فى ثيـــاب

فجعتنى بوالـــــدى وأهـــــلى
ثـــم أنحـــت تكـــــــر فى أترابى

كل يـــــوم يزول عـــــنى حبيب
يا لقلبى مـــن فرقـــة الأحبـــــاب

أين منى حسين ؟ بل أين عبد اللـ
ـــه رب الكمـــــــــال والآداب

فى كنـــــدى :

ويهد الحزن والمحن من البارودى قوته ، ويدب الضعف والوهن فى جسده ، وتمتد ظلمة حظه الى عينيه فتصاب قرنيته برشـــح يأخذ نورها شيئا فشيئا ، ويقرر الأطباء عدم ملاءمة جو كولومبو لصحته فينزح هو وأسرته الجديدة الى « كندى » عام ١٨٩٠ (١) وقد بلغ من العمر احدى وخمسين سنة . « ومناخ كندى قريب من مناخ مصر زمن الربيع ، ويسترد البارودى بعض عافيته فى كندى ، وتستجيب روحه لجمال الطبيعة فيها حتى ليخيل اليه أنه تسلى عما يعانيه من عذاب كما يقول « فلما حللت بواديها وسرت فى بواديها ، تلاهيت عما أجده من الحرقة وأتجـــرعه من مرارة الفرقة (٢) » .

لم يفتر حنين البارودى الى الوطن لحظة طوال أعوام النفى ، ولم تخف وطأة آلامه يوما من أيام محنة الاغتراب ، ولكنـــا نلحظ بعد انتقاله الى « كندى » تطورا فى معنوياته ، وتغيرا فى مواجهتـــه النفسية للأمور ، فقد بدأ يتطامن للدهر ويستسلم لصولةالأحداث، ويظهر ذلك اكثر ما يظهر بعد أن فشلت الوساطة التى قام بهـــا

---

(١) البحر الزاخر جـ ١ ص ٢٣٥ ، وكندى على بعد ٧٣ ميلا من كولومبو .
(٢) مقدمة الديوان « الجادم » (نموذج من خطه) ص ٤٦ .

« سير وليم جريجورى » كاتم أسرار ملكة بريطانيا وصديق الزعماء منذ سنوات الثورة وحاكم سيلان السابق ، وكان قد زارهم فى سيلان (١) ، ورأى ما فعلته الغربة والمناخ الاستوائى بأصدقائه القدامى فحاول : أن يساعدهم بنفوذه ، ويسعى فى عودتهم الى الوطن أو نقلهم الى قبرص « لموافقة هوائها لهواء مصر مراعاة لصحتهم بعد ان قرر الأطباء أن المناخ لا يناسبهم ، ولكن الحكومة المصرية وعلى اريكتها توفيق ويرأس وزارتها رياض خشيت على نفسها ان عاد الزعماء أن تعود للشعب يقظته ، ويثور على الظلم والاستعمار من جديد ، وهى تود أن يظل « العملاق » فى ركوده ونومته مستسلما لجلاديه من قبل الاحتلال ، وكتب رياض الى الحكومة البريطانية « ان الحكومة المصرية لا تقبل فى الحال ولا فى الاستقبال عودة المنفيين مادام الخديو الحالى موجودا على الأريكة المصرية لأن عودتهم تسبب الضرر والاختلال فى ادارة الحكومة والارتباك والفساد بين الشعب (٢) . »

ويذهب رفض الحكومة المصرية عودة الزعماء ببقية الأمل التى ظلت كشعاع الضوء ينير ظلمة منفاهم ، ويأتى اليأس على ما بقى من عافية البارودى حتى لا يكاد يقوى على أن يجر ثوبه أو يخط قلمه ويضعف من معنوياته فيصور ذلك فى قوله :

أصبحت لا أستطيع الثوب أسحبه
وقد أكون وضافى الدرع سربالى

ولا تكاد يدى تجرى شبا قلمى
وكان طوع بنانى كل عسال (٣)

---

(١) عام ١٨٩١ ، وله أملاك بسيلان انظر البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٧ .
(٢) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٨ ، انظر أيضا مذكرات عرابى ج ٢ ص ١٧٦ — ١٧٧ .
(٣) الشبا : الطرف ، العسال : الرمح المهتز .

ويشغل البارودى نفســـه بالقراءة والتعليم فيتعلم اللغـــة الانجليزية حتى يبرع فيها قراءة وكتابة ، ويترجم منهـــا جملة موضوعات الى اللغة العربية ، ويعلم بعض المسلمين من أهل سرنديب اللغة العربية قراءة وكتابة ليعرفوا لغة دينهم الحنيف ، ويقرأ لهم الكتب الدينية ليثقفهم ويبصرهم فيه ، ويؤم المسلمين فى صـــلاة الجمعة ويعتلى المنابر فى مساجد المدينة (١) . ويعطى لأولاده وبناته الجزء الأكبر من اهتمامه وقـــد رزق فى سرنديب بقمرية (٢) ، وفاطمـــة (٣) ، وزينب (٤) ، ومشيرة (٥) ، وأشرف (٦) وابراهيم كمال (٧) . واستقدم للفتيات (٨) مدرسة كان أبوها قسيسا انجليزيا من كنيسة المدينة فعلمتهم اللغة الانجليزية ، ودربت الفتيات على التطريز والحركات التوقيعية والموسيقى ، ولم يسجل البارودى أولاده فى سجل مواليد سيلان لكيلا يعدوا من الرعايا البريطانيين .

تيار الزهد فى حياة البارودى :

ونلحظ تطورا آخر فى حياة البارودى النفسية بعد قدومه الى « كندى » ذلك أن عاطفته الدينية أخذت تقوى وتنمو ، فخطب فى المساجد أيام الجمعة ووعظ الناس فيها وقرأ لهم الكتب الدينية ، وزهد فى متاع الدنيا واتجه الى ربه يطلب وجهه ويلوذ بكنفه وحماه عسى أن يرفع عنه الضر والمحن التى تكاثرت عليه ، ويخفف الخطوب التى أناخت بكلكلها على حياته . وفى قصيدته « الام يهفو بحلمـك

---

(١) مراثى الشعراء ص ١٩ .
(٢) توفيت فى أغسطس ١٩٣٩ .
(٣) ما زالت على قيد الحياة .
(٤) توفيت فى يناير ١٩٦٥ .
(٥) ما زالت على قيد الحياة .
(٦) توفى فى يناير ١٩٥٩ .
(٧) توفى فى مارس ١٩٣٣ .
(٨) كان الأولاد الذكور صغارا حين عاد البارودى الى مصر ١٨٩٩ .

الطرب (١) » يظهر تسلط فكرة الموت عليه ويخرج من هذا التفكير بفلسفة الزهد التى تجعل العاقل من يكف نفسه عن اللهو ودواعيه، ويخلص روحه لربه ويتوب اليه قبل المندمة ويعتاد الخير ، ويجود بما حوت يداه .

ويستغرقه البحث فى تعاقب الزمان ،وفى الموت وموقف الانسان منهما ويبحث فى الذين خلوا من قبل وكيف حصدتهم يد المنون فى قصيدته التى يبدؤها بقوله :

أى شىء يبقى على الحدثان — والمنايا خصيمة الحيوان
قد باونا كيد الزمان ولكن — شغلتنا عنه ضروب الأمانى
أين من كان قبلنا منذ دارت — كرة الأرض وهى ذات دخان
أمم أخلدت الى الدهر حينا — ثم ضاعت فى لجة النسيان (٢)

ويجأر البارودى الىالله ويستغيث به ليقيله من عثرته ، ويشكو اليه طول شوقه لوطنه ،ويسأله أن يحل وثاقه ويفك أسره فيقول فى قصيدة أخرى :

يارب قد طال بى شوقى الىوطنى
فاحلل وثاقى ،وألحقنى بأشباهى
وامتن على بفضل منك يعصمنى
من كل سوء فانى عاجز واهى
هذا دعائى وحسبى أنت من حكم
يعنو له كل شاه أو شهنشاه (٣)

---

(١) الديوان (الجارم) جـ ١ ص ٨٤ .
(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٣) شاه : كلمة فارسية معناها ملك وشاهنشاه : لقب الملوك الساسانيين .
هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

ويقوى الزهد عند البارودى ويشتد حتى يكاد يصل به الى أعتاب التصوف فيحس بنور الحكمة يغمر قلبه بعد أن وهب نفسه لله ويشعر من شدة وجده أنه فى حبه أمة وحده كما يقول :

دينى الحنيف وربى الله	وشهادتى أن ليس الا هو
لا جاه لى الا بطاعته	ولنعم عقبى الطاعة الجاه
أنا خاشع لجلال قدرته	متقلب الجنبين أواه
زهت القلوب بنور حكمته	وتعطرت بالذكر أفواه
انا أمة وحدى على سرف	فى حبه والناس أشباه
ان تاه غيرى بالزمان فلى	قلب بذكر الله تياه (١)

ويتوسل الى الله بنبيه صلى الله عليه وسلم فى قصيدة « ياصارم اللحظ من أغراك بالمهج » وهى من أعذب الحانه وأسلسها يشكو فيها بثه وحزنه ، ويحن شوقا لزيارة مقام الرسول ولكن ضعف الحيلة وقيود النفى تقف به عن صلة الآمال فيستجير به ليفك أسره ويرحمه من عذابه . ثم ينظم فى الرسول ملحمته الكبرى التى سماها « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » (٢) وهى أطول قصائده وتبلغ ٤٤٧ بيتا ، ويقول فى مقدمتها » فهذه قصيدة ضمنتها سيرة النبى صلى الله عليه وسلم من حين مولده الكريم الى يوم انتقاله الى جوار ربه ، وقد بنيتها على سيرة ابن هشام وسميتها (كشف الغمة فى مدح سيد الأمة) . والقصيدة على وزن « نهج البردة » للبوصيرى ولو أنه لم يثبت أن البارودى قصد معارضتها ، وهى تختلف فى النسق عن « نهج البردة » ذلك أن «كشف الغمة» سايرت الحوادث فى حياة الرسول وفقا لما قصه ابن هشام فى سيرته ومن ثم فهى تمتاز بالترتيب ، أما البوصيرى فقد أطاع خواطره الطارئة ، وقدم

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .

(٢) طبعت بمطبعة الجريدة ــ بسراى البارودى بغيط العدة بمصر ــ سنة ١٣٢٧ هـ ــ ١٩٠٩ م .

بعض الحوادث على بعض فتكلم عن الرسول وعن معجزاته مثلا قبل أن يذكر ميلاده .

والترتيب الذى سار عليه البارودى ليس ميزة فنية فقد قيد انطلاق عواطفه ووجدانه ، وحدد فنيته فى اطار مرسوم ففترت العاطفة الشعرية فى أكثر القصيدة وأصبحت منظومة تاريخية كتلك المنظومات التى تعرف بالمتون ، ونجد حرارة العاطفة تعود الى الشعر عندما يناجى وجدانه فيتشوق الى الرسول أو يصف ما أضناه من الخطوب ، وما منى به من النفى والاقامة فى بلد يعبد أهله الصنم يعيش فيها مع القلق ، ويقتات الألم والعذاب ، اذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله ولم يسمع غير أصداء نفسه كما قال :

تكاءدتنى خطـوب لو رميت بهـــا
مناكب الأرض لم تثبت على قدم (١)

فى بلدة مثل جوف العير لست أرى
فيها سوى أمم تحنو على صنم(٢)

لا أســتقر بهــــا الا عـــلى قلق
ولا ألذ بهـــا الا عــلى الم

اذا تلفت حـــولى لم أجــــد أثرا
الا خيــالى ولم أسمع ســوى كلمى

ولا ندعى أن النفى هو الذى وجه البارودى الوجهة الدينيــة أو سار به فى تيار الزهد ، فشعر الزهد ظهــر فى شباب البارودى كما ظهر فى شيخوخته ، وقاله قبل النفى كما قاله بعده ، غير أن النفى نمى هذا الاتجاه وقواه عنده ، ومن قصائد الزهد التى قالهــا فى شبابه وحدد تاريخها (١٨٧٤) تلك التى يقول فيها :

---

(١) تكاءدتنى : شقت على وأضنتنى .

(٢) جوف العير : واد خال من السكان وذلك كناية عن خلو سرنديب من أسرته وأحبابه .

ما أطيب العيش لولا أنه فانى
تبلى النفوس ولا يبلى الجديدان
قد كنت فى غرة حتى اذا انقشعت
أبقت تباريح لا تنفك تغشانى
ان الثلاثين والخمس التى عرضت
ثنت قواى وفلت غرب أشجانى
يا نفس لا تذهبى بأسا بما كسبت
يداك فالله ذو من وغفران
يعفو عن الذنب حتى يستوى كرما
لديه ذو العمل المبرور والجانى (١)

مراسلات البارودى فى المنفى :

وتظل قوافى البارودى مدة النفى « رسائل الأهل والصحاب » وذوى الأدب والعرفان من مصر وغيرها (٢) لما بينهم وبينه من الصلة الروحية (٣) ، فكانت تؤنس وحشته حينا وتذكى الشوق والحنين فى قلبه أكثر الأحايين ، وكتب اليه الأدباء والعلماء من شتى البلاد العربية والاسلامية يخطبون وده ، ويستنشدون شعره ، ويواسونه فى محنته ومن هؤلاء عالم أديب من الهند يدعى « عليا » كتب شعرا يمدح به البارودى ويتألف نفسه فيجيبه البارودى فى مطولته « قليل بآداب المودة من يفى » (٤) يشكر له مودته وصلته .

---

(١) فى الديوان غير ما ذكر أكثر من تسع قصائد فى الزهد قالها قبل النفى انظر الديوان (الجارم) ج ١ ص ٩٦ ، ١٢٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٢٧ ، ج ٢ ص ١٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٣٤٧ .

(٢) كان يكتب اليه الفريد سكاون بلنت ، سير وليم جريجورى ، لويس صابونجى ، أحمد فارس الشدياق ، برودلى المحامى من خارج مصر . وقد كانت بعض رسائله الى بلنت وبرودلى بعد السنوات الأولى من النفى بالانجليزية .

(٣) مراثى الشعراء ص ١٩ .

(٤) الديوان (الجارم) ج ٢ ص ٢٦٤ .

وكان « الأمير شكيب أرسلان » صبيا ناشئا ابان الثورة العرابية ، ورآه الشيخ محمد عبده ـ أثناء منفاه ببيروت عقب الهزيمة ـ تلميذا فى مدرسة الحكمة أواخر عام ١٨٨٦ (١) ، وسمعه ينشد الشعر فشجعه وأثنى عليه ثم « وجهه الى شعر البارودى فى الوسيلة الأدبية فطالعه وحفظه وأعجب به قلبه » (٢) ، وكان شكيب الشاعر الناشيء يتلفت حوله يبحث عن المثل فى معاصريه من الشعراء ليحتذيه ، وما ان هداه الشيخ محمد عبده الى امام الشعر ورائد الشعراء فى عصره حتى وجد فى شعره ضالته ، وبدأ يتخذه أستاذا ومثلا ، كما يقول : « فلما قرأنا شعر محمود سامى سكرنا بأدبه ، ورقصنا على قصبه ، وبعث لنا نشأة روحية لم نعهدها فى أنفسنا من قبل أن عرفناه ، وعلمنا أن فى المعاصرين من قدر أن يضارع الأولين ، وان يسامى بنفسه أنفاسهم ، وكنا من قبل محمود سامى نظن الأولين غاية لا تدرك ، وبقى فينا هذا الاعتقاد الى أن ظفرنا بشعر محمود سامى ، وحفظنا جميع قصائده التى فى « الوسيلة الأدبية » لا نخرم منها بيتا واحدا . وكان حفظنا لها من أقوى عوامل الشعر فينا ... ولذلك كنت أنا أرانى خريجا فى الشعر لمحمود سامى البارودى (٣) » . ويكتب شكيب الى البارودى فى منفاه .

ويمتد حبل المراسلات الشعرية بينهما ، وشكيب لا ينى فى كل قصائده عن اثارة الكرم النفسى عند البارودى فيطوقه بجميل المدح والتمجيد ، ويضعه فى المكان الأسمى من مملكة الشعر فيرد البارودى مدحا بمدح وتمجيدا بتمجيد ، وينشر شكيب الرسائل فى المجلات الأدبية ، ويقرأ الناس ويتحرك سهم شكيب الى أعلى ، ويخرج صيته من الاقليمية المحدودة الى صعيد العالم العربى والاسلامى

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٤٠٠ .

(٢) أحمد الشرباصى (أمير البيان شكيب أرسلان جـ ١ ص ٢٥٢) .

(٣) شكيب أرسلان : شوقى أو صداقة أربعين عاما (١٩٣٦) ص ١٠١ ـ ١٠٤ .

كله ، ويعترف شكيب بالجميـل فيعلن « أن البارودى امامه فى الشعر » (١) ويشعر البارودى ـ على البعد ـ أن شكيبا يتفق معه فى المنهج والمشرب وأنه يترسم خطاه فى المنحى والأسلوب ، ويحس فى رسائله حرارة الأخلاص فى الود فتقوى الصلة بينهما ، وينطلق البارودى معه على سجيته وتظل ربة الشعر تطير بينهما بالرسائل الى مابعد عودة البارودى من منفاه .

وهناك صديق العمر ورفيق الجهاد « الشيخ محمد عبده » تبادل مع البارودى الرسائل فى المنفى ، وعلاقة البارودى بالأستاذ الأمام علاقة تضرب فى بطون السنوات ، بدأت فى مجالس الأدب التى كانت تعقد بدار البارودى بعد عودته من القسطنطينية فى الستينيات من القرن الماضى ، وكان يؤمها شعراء العصر وأدباؤه ، ثم امتدت الى مجالس جمال الدين وندواته فى السبعينيات من ذلك القرن ، واقترح البـــارودى على مصطفى رياض رئيس الوزراء حين أراد النهوض بجريدة الوقائع المصرية أن يعين لها الشيخ محمد عبده محررا ، وشارك الشيخ محمد عبده صديقه البارودى وهو وزير للأوقاف فى الدراسة لتحقيق نسبه ، وبعد أن تم البحث كتبه الشيخ محمد عبده فى وثيقة النسب بخط يده وأرفقهـا بنبذة عن تاريخ صديقه الوزير حتى عام ١٨٨١ (٢) . وجمعت بينهما الحركة الوطنية زميلى جهاد . وحين تولى البارودى نظـارة الجهادية ثم رياسـة النظار كان يبعث الشيخ محمد عبده برسائله ووساطاته ومشورته لزعماء الحركة من العسكريين (٣) . وفرقت الهزيمة بين الصديقين فنفى البارودى الى سيلان نفيا مؤبدا ونفى محمد عبده الى بيروت لثلاث سنوات ولكن حبل الود ظل متصلا بينهما بالرسائل .

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين عاما ص ١٠٤ .

(٢) نشرتها مجلة المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ ـ ١٩٠٤ .

(٣) فرع ناصية العلماء علاها شرفاء .

وفى ديوان البارودى قصيدة يقال انه بعثها رسالة ضمن رسائله من منفاه الى محمد عبده بعد عودته الى مصر(١) ، والرسالة قصيدة رقيقة تفيض حنينا وشوقا الى الوطن وتضيق بصحبة أهل سرنديب ويصرح باسم صديقه فيها ويبدؤها بقوله :

واطول شوقى اليـك يا وطن وان عرتنى بحبـك المحن
لست أبالى وقد سلمت على الدهـ ـر اذا ما أصابنى الحزن (٢)
ليت بريد الحمـام يخبرنى عن أهل ودى فلى بهم شجن

ويمضى فيذكر ضياعه وهمومه من بعد فرقتهم ،ويشكو لصديقه الوحشة وهو يعيش بين أهل الجزيرة مجبرا فنفسه لا تسيغ مصادقتهم وروحه لا تألفهم أو ترتاح اليهم ، ثم يخلص من الصحبة الموحشة الى تمنى العودة وصحبة صديقه محمد ، وتتداعى عليه ذكريات صداقتهما فيذكر له بيانه ولسانه وحجـاه ، ويحمد له نصرته ثم يضعه فى المقام اللائق به فيقول :

فهـل الى عودة ألم بهـا شملى والقى محمدا سنن (٣)
ذاك الصـديق الذى وثقت به فهو بشكرى ،ومدحتى قمن(٤)
عاشرته حقبـة فأنجـدنى منه الحجا والبيـان واللسن
وهـو الى اليـوم بعدما علقت بى الرزايا مخيـل هتن (٥)
ينصرنى حيث لا يكاد حم يمنحنى وده ولا ختن (٦)

« وكان البارودى ــ كما يقول شكيب أرسلان ــ من أحب الناس الى قلب الشيخ محمد عبده ، فلم أعلم أنه كان يذكر أحدا من أقرانه بعاطفة حب كما كان يذكر محمود سامى رحمهما الله ، وكان يتأوه

---

(١) معلومات الأسرة .
(٢) الحزن : الهم .
(٣) السنن : الطريقة .
(٤) قمن : جدير وخليق به .
(٥) المخيلة : السحابة التى تحسبها ماطرة والهتن : جمع هاتن . المطر المتابع .
(٦) الختن : كل ما كان من قبل المراة ، وهده الأبيات لم يسبق نشرها .

على غربته ونكبته بما لا يتأوهه على أحد (١) . ومنذ عاد محمد عبده من منفاه وهو يحاول ما وسعه الجهد لدى أصدقائه من أهل الحكم فى عودة البارودى الى الوطن ولكن مسعاه لم يكلل أول أمره بنجاح.

ويمتد النفى والاغتراب بالبارودى حتى يبلغ الستين من عمره فيبلغ به اليأس مداه ، ويلف روحه ويحيط بها من كل جانب ، وتطفأ شموع الآمال كلها فى قلبه وفى عينيه ، ويصاب بشعور « اللامبالاة » فتصبح الحياة عنده سواء نعيمها وشقاؤها ويلفظ مآربه منها بعد أن تمنعت عليه ، ثم يرمى عبء ذلك كله على ظالمه فيقول :

أبعد ستين لى حاج فاطلبها ؟
هيهات ! ما لامرىءبعد الصبا حاج

لا أحفل الطير ان غنت وان نعبت
سيان عندى صفار وشحاج (٢)

يستعظمون من الحجاج صولته
وكل قوم بهم للظلم حجاج

ومع الستين (١٨٩٩) تهاجم البارودى العلة والمرض ويعود الارتشاح الى قرنيته بقوة ويهدد عينيه بالظلام الأبدى ، فيفزع البارودى ويصيبه الهلع من أن يعيش رهين المحبسين ، ويضاعف له الهلع العذاب حتى ليتمنى الموت خلاصا منه فيقول :

متى ينقضى عمر الحياة فتنقضى
مآرب كانت علة للمظالم (٣)

وتقرر جمعية الأطباء (القمسيون) بسرنديب ــ بعد أن اشتدت وطأة المرض على البارودى ــ ضرورة عودته الى وطنه لمعالجته فى المناخ الذى ولد وشب فيه ، وأشارت الى أنه سيصاب بالعمى لا محالة ان ظل بالجزيرة ، وقد يدركه ما أدرك اخوانا له من قبل ــ

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٤١٠ من نبذة بقلم شكيب أرسلان من سيرة محمد عبده .

(٢) الصفار : الكثير الصفير وهو للطيور . والشحاج : الغراب الكثير النعاب .

(٣) هذا البيت لم يسبق نشره .

وكان قد توفى من رفاق النفى بالجزيرة لعدم ملاءمة مناخ البلاد الاستوائى لصحتهم عبدالعال حلمى(١٨٩١) ومحمود فهمى(١٨٩٤) ـ ويجزع صحب البارودى وأهله بالقاهرة ويخافون أن يدركه فى مرضه القضاء وهو بسرنديب ، فيلحون عليه أن يتقدم بملتمس الى الخديو عباس ليسمح له بالعودة الى مصر للاستشفاء . ويلقى الشيخ محمد عبده بكل ثقله ومساعيه لينقذ صديقه العانى الغريب وقد دبت اليه نذر الفناء (١) ، وتتكلل المساعى بالنجاح ويسمح للبارودى بالعودة . ورد الله الغريب المعذب الى وطنه ، وعاد البلبل الصداح الى روضه ، وفك الله أسار العانى وبل شوقه وصداه بعد طوال اغتراب امتد سبعة عشر عاما !

أقلعت السفينة من ميناء كولومبو اول سبتمبر ١٨٩٩ وتقول ابنته فاطمة (٢) وكانت فى الثامنة من عمرها ،وقت العودة « وجفا النوم عينى « الباشا » طوال الرحلة وهجر « قمرته » وصار يتنقل فى أبهاء الباخرة لا يقر له قرار ، وكان شارد الذهن لا يسمعنا حين نتحدث اليه وكأنه بعيد عنا ، ولزم الصمت لا يشارك فى حديث ، وكنا صغارا لا ندرك ما هو فيه من المعاناة والشوق . ولم يكن شوقنا ـ وقد ولدنا جميعا فى سيلان ـ من طبيعة الشوق الذى يكابده « الباشا » وكنا قد سمعنا الكثير عن وطننا مصر من أبى وأمى فأحببناها على البعد ، ومن ثم كان شوقنا اليها شوق المستطلع للمجهول الجميل الذى يملأ علينا أفكارنا وأسماعنا » ، وتصل السفينة الى ميناء السويس صباح ١٢ سبتمبر ١٨٩٩ بالعائد وأهله « فيقف على ظهر السفينة مستقبلا مصر وهو قابض على سور السفينة ،والدموع تنهمر من مآقيه ولا يجرؤ أحد منا أو من مستقبليه من اخواتنا وأخوتنا أو الأهل والصحاب أن يقترب منه فيقطع عليه لحظة اللقاء مع وطنه الحبيب (٣) » .

---

(١) معلومات الأسرة .

(٢) من حديثها الى فى مارس ١٩٦٦ .

(٣) المصدر السابق .

الفصل الرابع

بعد المنفى

الزعيم العائد :

تواكب المواطنون ومن بقى من رفقاء الجهاد الى دار البارودى لتحية الزعيم العائد ، وتوافد عليه عشاق الأدب والشعراء وأهل الفكر والعلماء لتهنئته بالعودة ، وقد كانت أوبته اليهم عيدا نشر البشر فى محيطهم فتسابقوا اليه ، يعيــــد حبل الود من كان على معرفة به قبل النفى ، ويعقد أواصر الصلة معه أبناء الجيل الجديد ممن سمعوا عنه وعرفوه قبل رؤيته من خلال شعره وجهاده ، وكلهم لهفة وشوق الى سماع قيثارة الشعر تعزف لحن اللقاء ، وغنى لهم البارودى « أنشودة العودة » فقال قصيدته المشهورة التى يستهلها بقوله :

أبابل رأى العين أم هــــذه مصر
فانى أرى فيها عيونا هى السحر

ويمضى البارودى يتغزل فى فاتنات مصر ، وهو لا يقصـــد الا التغزل فى فاتنته الكبرى التى تيمته سبعة عشر عاما فيقول فيها :

رضيت من الدنيا بحبـــك عالما
بأن جنونى فى هواك هو الفخـر

ثم يعرج على العناصر الرجعية التى تمالىء المستعمر وتمكن له فى احتلال البلاد وقد شوهوا الثورة ثم افزعتهم عودة زعمــائها ،

وملأهم الخوف من أن تتجمع الأمة حولهم من جـديد ، فيطلبون الحجر على ألسنتهم وأقلامهم فيقول فيهم :

اذا ما أتيت الحى فارتِ بغيظهـا
قلوب رجال حشـو آماقها الغدر
أفى الحق أن تبكى الحمائم شجوها
ويبلى فلا يبكى على نفسه حر ؟

وتستقبل الصحف ذات الصبغة الوطنية الزعيم العائد استقبالا حافلا فيكتب محرر المؤيد (١) : « عاد محمود سامى (باشا) البارودى الى القاهرة عائدا من منفاه ، والله أعلم بمقدار ما خامر قلوب أهله وأصدقائه من الفرح ، بل وما خامر قلبه وامتزج بكل حواسه منه عندما وطئت أقدامه تراب النيل بعد أن بلغ به اليأس منتهـاه ، وقصدت داره ولم أكن قد رأيته من قبل . فاذا هو رجل ربعة يميل الى الطول قليلا نحيف الجسم كأنما هو ناقه من مرض طويل ، كث اللحية ، أبيض العارضين مختلط شعر الرأس مع صلع خفيف ، وقد وضع على عينيه نظارة سوداء تلطيفا لأشعة الضياء . . وسألته عن رفاقه فى جزيرة سيلان وهم عرابى ويعقوب سامى وعلى فهمى فقال : ان صحتهم جميعا سيئة وتتدهور يوما بعد يوم ، فعسى الله أن يفك الكرب عنهم ويشملهم بعطفه فيعودوا الى الديار ، وكان كلما استطرد الحديث عاد الى ذكرى آلامه التى عاناها فى منفـاه وخاصة بعد أن أصيبت عيناه فقال : ما أشد ما كنت فيه من الأكدار والأحزان وحيدا لا انسان تود الحديث اليه ولا أنيس تلذ محاضرته أو تطيب معـاشرته ، وكان لى من مطـالعة الكتب والصحف خير ما يتسلى به المرء فى وحدته ويأنس اليه مثلى فى غربته فلما أصاب بصرى ما أصابه فقدت كل لذة فى الحياة (٢) » .

---

(١) انظر أيضا الهلال ١٥ سبتمبر ١٨٩٩ سنة ٧ جـ ٢٤ .
(٢) المؤيد – على يوسف – ١٨٩٩/٩/١١ .

وتجد الصحف الوطنية وصحاب البارودى ابان العودة حرجا فى ذكر رتبة الباشوية مع أسمه وهم يكتبون عنه أو يتحدثون اليه فى عصر يعبد الألقاب ولما يعد اليه لقبه ، وكانت بعض الصحف تكتب لقب (باشا) بين قوسين جوار اسمه وبعضها الآخر يكتبه مجردا من كل لقب . ويسخر البارودى من مهزلة الألقاب كلها ويقول :

منحتك القاب العلا فادعنى باسمى
فما تخفض الألقاب حرا ولا تسمى
يقولون محمود ، ويا ليت اننى
كما زعموا ، أو ليت لى طالعا كاسمى(١)

وينصح البارودى أطباؤه بسكنى حلوان علّ هواءها الجاف ومياهها المعدنية تبله من مرضه وترد له ما زاغ من البصر ، فيقيم فى دار تجاور دار الشاعر أحمد شوقى ، ويلتقى شباب الشعر بشيخوخته ، ويصف شوقى جاره نزيل حلوان فيقول : « منكوب كريم اجتمع لشهوات الدهر فيه ما تفرق فى البرامكة من جاه يطويه ، ونعيم يذويه ، وولد يرديه ، ونور يطفيه ، وحسب وضاح يخفيه ، وحكم بالأمس نافذ يحكم فيه ، جاورته بحلوان الشهور الطوال يشد بيتينا طنب ، وينتظم دارينا جدار ، فاذا الجار كريم ، واذا الشاعر عظيم ، ما سمعته مرة عرض شعره على جلسائه ، ولا رأيته الا سقيما من الحياء كلما عرض شعره عليه . . . سأله مرة اسماعيل صبرى : هل له مذكرات عن الثورة ؟ فقال لا ، قال : وما منعك ؟ قال علمى بأن الغضب فى طباعى ، وخوفى من أن يملكنى عند بعض الذكريات فيبغى القلم على الرجال ، فقال حامد خلوصى ، وكان ممن ضم المجلس ، صدقت ، ألست القائل (ونغضب فى شروى نقير ونشتد) فتبسم رحمه الله (٢) » . ويسأله آخر فى ذلك فيقول :

---

(١) هذان البيتان لم يسبق نشرهما .

(٢) من رسالة لأحمد شوقى الى الدكتور محمد صبرى السربونى عام ١٩٢٣ انظر : الشوقيات المجهولة لمحمد صبرى جـ ٢ ص ١٧٥ (١٩٦٢) .

« ان الكلام فى هذا الموضوع قد يتناول أشخاصا صاروا فى ذمة التاريخ ، وليس من المروءة أن يتكلم عن شخص لا يستطيع الدفاع عن نفسه (١) » .

وفى ١٧ مايو ١٩٠٠ يعيد الخديو الى البارودى ألقابه وأملاكه الموقوفة فتقبل الدنيا عليه بعض الاقبال بعد نفورها الطويل ، ويشكر البارودى لعباس جميله ويمدحه فى قصيدة أخرى . على أن البارودى لم يسقه معروف عباس الى أن يصبح شاعر بلاط فيمدحه فى المناسبات كما يفعل شعراء العصر من أمثال شوقى وعلى الليثى وغيرهما ، فلم يكن ذلك ديدنه ولا طبعه ، ولعل للبارودى بعض العذر حين مدح سليل الرجعية والخيانة ردا لجميله ، فقد كان عباس وقتذاك يخدع القوى الوطنية ويزعم أنه يقف فى الصف الوطنى ضد الاستعمار معها ، وكان يضع يده فى يد مصطفى كامل ، ولكنه بعد حادث الجيش عام ١٩٠٦ عاد الى سيرة أسرته وأصبح العميل الخانع للاستعمار . وفى يقينى أن البارودى لو عاش حتى رأى هذا التحول لما حدثته نفسه بمدحه ، ومع ذلك فقصائده الثلاث فيه خالية من الروح الشعرية التى امتاز بها البارودى ، وهى من شعره الفاتر الذى يظهر فيه التكلف والاقتسار ، ولعل مشاعر الرجل قد عصته حين دعاها للقول فيه سيما وأن البارودى قال ما قال قياما بالواجب نحو من عفا عنه ورده الى وطنه الحبيب .

الزعيم والرواد فى مدرسة المحافظين :

ويعود البارودى من حلوان الى داره «بغيط العدة» بباب الخلق فى صيف عام ١٩٠٠ « فتصبح منتدى الأدباء والشعراء وذوى المكانة » ، يأتونه فيأنسون اليه ويأتنس بهم . ويستمتعون بحديثه ويستمع الى انشادهم ومناقشاتهم ، ويرى فى مجالستهم مايأسو جراحه التى أدمت قلبه طوال سنوات النفى العجاف ، وكان من

---

(١) طاهر الطناحى ، الهلال سنة ٣٨ جزء ٤ فبراير ١٩٣٠ .

اشهر رواد ندوته اسماعيل صبرى وأحمد شوقى وخليل مطران وحفنى ناصف وحافظ ابراهيم ومحمد ابراهيم هلال (١) وحامد خلوصى وحسن حمدى (٢) وعبد المحسن الكاظمى (٣) ومصطفى صادق الرافعى (٤) من الشعراء والشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا من العلماء (٥) وغيرهم من أهل الفن (٦) والفكر والعلم وعشاق الأدب والشعر ، وفى هذه الندوة أخذت مدرسة البعث فى الشعر العربى ترسى قواعدها وتمد ينابيعها الى الأمة العربية كلها ، وتحول الشعر من على أبواب البلاط ، ويلتقى فى الندوة الزعيم بالرواد والأستاذ بالحواريين ، وكلهم يرنون اليه ، فقد كان زعيم النهضة الشعرية التى تحماهم على جناحها فيقرون له بالفضل ، مهد لهم الطريق فأنقذ الشعر من أدرانه وأوشابه العثمانية ، وأخذ بيده من عثرة الأساليب الركيكة ، ورد اليه الروح العربية التى تعيش فى كياننا وأحاسيسنا ، وبث فيه الحياة ، حياة نفسه ، وروح عصره وقومه ، فحال بين الشعر وبين السقوط الذى كان يهوى الى دركه ، وقدم للأمة العربية شعرا ملك عليها القلوب والأسماع بجزالته ونصاعته وبهجة الديباجة فيه ، تنبعث منه الروح العربية الخالدة، وتظهر فيه الشخصية القومية البارزة والشخصية الفردية المستكملة لحريتها وتتمثل فيه أحاسيسه ومشاعره ، فيصبح منطلقا لعواطفه المختلفة ، ومتنفسا لمشاعر أمته المتباينة فى فترات التحول الكبرى من الاستبداد الى الثورة ثم الى الهزيمة والاحتلال.

---

(١) طاهر الطناحى : الهلال السنة ٣٨ جـ ٤ ـ ١٩٣٠ .

(٢) المجلة المصرية فى ١٩٠٠/١٠/٥ .

(٣) الرسالة عدد ٤٣٧ نوفمبر ١٩٤١ .

(٤) المقتطف مجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ .

(٥) المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ ديسمبر ١٩٠٤ .

(٦) من أمثال عبده الحامولى ومحمد عثمان انظر الشوقيات المجهولة جـ ٢ ص ٤٦ .

كان رواد المدرسة ينهلون من شعر البارودى ومنبعه الأصيل قبل أن يعود وبعد أن عاد ، ثم تنفرد بهم شخصياتهم الأدبية ، فيسلك كل منهم السبيل الذى تدفعه اليه ملكته واستعداده ، وتهديه اليه فنيته وثقافته ، فتظهر سماته وميزاته لتكونه شاعرا يأخذ طريقه فى مملكة الشعر وحده ، لكنهم جميعا كانوا يلتقون عند المصدر والمنبع فى « مدرسة المحافظين » تلك التى حافظت على تقاليد الشعر العربى فى المنحى والأسلوب من شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته ، ونصاعة التراكيب ومتانة النسج ، وتعلقت بكل ما يتصل بشخصية الشعر العربى ومقوماته ، ومع انها اتجهت الى الوراء لتتخذ من العصور الذهبية للشعر العربى المثل والأمل الا انها لم تحجر على الفنية أن تتسع آفاقها لكل ماهو جديد يساير ذوق العصر ويعيش معه ثم تمزجه بقديمها الأصيل فيعصمه من الأسفاف ومن الاندفاع وراء موجة التجديد اندفاعا يخرج الشعر عن الروح العربية الأصيلة . واستطاعت المدرسة بذلك أن توائم بين القديم والجديد وبين الأسلوب العربى وبين ثقافة العصر وروحه .

ويقص علينا مطران قصة اللقاء بينه وبين أستاذه فيقول : « أدركته بعد عودته من المنفى صيف عام ١٩٠٠ ، وزرته مع صديقه الكاتب الشاعر محمد ابراهيم هلال ، ودخلنا عليه وهو فى صدر مجلسه فحيانا بذلك اللطف الذى كان لا يفارقه ، ولا تثبت معه الكلفة . وكان لى معه بعد ذلك ود وعهد (١) » .

ويعجب خليل مطران بعد أن زادت معرفته بأستاذه وبعد أن لازمه واطلع على حياته فى بيته وأصبح من المقربين الى روحه « من أن هذا الوزير الذى اقتدح زناد تلك الهمة ، وشبت بعد استقالته تلك الفتنة المستطيرة ، لم يكن مع شجاعته واقدامه

---

(١) المجلة المصرية عدد ١٤ عام ١٩٠٤ .

اللذين بلغا به اقصى مبالغهما فى مواطن القتـــال الا رجل سكينة ووداعة وحلم ، وقلما كان رجل أرق منه قلبا على ذويه ، وأحفظ عهد لمحبيه ، ولعل اصابته بكريمتيه هى التى قلصت من كبده ، واودت بجسده (١) » .

« وزاره حافظ ذات يوم من عام ١٩٠٠ ، وكان حافظ فى ذلك الحين سيىء الحال بعـد عودته من السـودان ، وأحالتـه الى الاستيداع .. فأنشد قصيدة دالية نظمها فى البارودى وفى الأشادة بمناقبه وقد بداها بأبيات فى الغزل .

ثم خاطب البارودى فقال :

امـير القوافى ان لى مسـتهامة
بمدح ومن لى فيـك أن أبلغ المدى

اتيت ولى نفس أطلت جـدالها
سيقضى عليها كربها اليوم أو غدا

فان لم تداركها بفضل فقـد أتت
تودع مـولاها وتسـتقبل الردى

قال خليل مطران : فلما سمع البارودى هذين البيتين بكي بكاء حارا ، وناشد حافظا أن يحذفهما من القصيدة ، ونهض من مكانه ، ثم عاد وبيده ظرف به أربعون جنيها ناوله حافظا ، وهى قيمة ما كان مقررا للبارودى وقتئـذ من معاش . ثم قال لحافظ : انى أبكى ، لأنى عشت الى زمن يقدم فيه مثلى الى مثلك هـذا المبلغ الضئيل (٢) !! » وكأن البـارودى قـد استشعر اللوم من

---

(١) الجوائب المصرية فى ١٩٠٤/١٢/١٥ .

(٢) خليل مطران انظر : حياة مطران لطاهر الطناحى ص ١٩٧ – ١٩٨ (١٩٦٥) وقد وفى حافظ للبارودى فحذف البيتين من القصيدة ولم ينشرهما فى الديوان ولا فى الصحف .

الصديق الثالث (١) ـ بعد أن خرج حافظ ـ أن جاد بكل مرتبه دون أن يبقى لنفسه أو لأسرته شيئا ، ولم تكن أملاكه المصادرة قد ردت اليه فيقول البارودى :

لا تعذلنى على وفر سمحت به
للمعتفين فانى ماجد الشيم
ان لم يكن للفتى جود يسد به
مفاقر الصحب فالمثراة كالعدم (٢)
فان يكن قل مالى بعد وفرته
فان مالى لا يقوى على الكرم

ويحج الى ندوة البارودى فيمن يحج من الأدباء الشبان « مصطفى صادق الرافعى » لينعم بصحبة امير القوافى وينشده شعره ، ويحدثنا الرافعى عن مجالسه مع البارودى فيقول (٣) :
« كنت ذات عشية عنده فسألته أن يوقفنى على شيء من شعره الحديث فقال :

ان عنترة يقول (هل غادر الشعراء من متردم ؟) وهذا عيبه علينا ولذلك شرعت فى نقض قصيدته ، ثم أنشد أبياتا مطلعها (كم غادر الشعراء من متردم) ويقول فيها فى وصف مصر :

هى جنة الحسن التى زهراتها
حور المها وهزار أيكتها فمى (٤) »

والقصيدة الى أشار اليها الرافعى من عيون شعر البارودى وأغلب الظن أنه فى الخريات أيامه أراد أن يضع نفسه فى مكانه

---

(١) خليل مطران معلومات الأسرة .
(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها .
(٣) المقتطف مجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ .
(٤) المصدر السابق .

من التاريخ والشعر بهـــذه القصيدة ، فجعلها وصفا لمقدراته فى الشعر وفى الوطن وفى الحروب وفى المعـــالى والشدائد فيكون المتأخر الذى فاق المتقدمين ، وعبقرى الشعر الذى يأتى على رأس كل عصر فيحيى أنفاس القريض ، والفـــارس الذى يعلو ناصية العلا بشرفه وفضله وشجاعته فيقول فيها :

كم غادر الشـــــعراء من متـــردم
ولرب تال بز شـــأو مقـــدم (١)
فى كل عصر عبقـــــــرى لا ينى
يفرى الفـــرى بكل قول محـــكم (٢)
احييت أنفـــاس القريض بمنطقى
وصرعت فرســـان العجاج بلهـذمى
وفرعت ناصـــية العلى بفضـــائل
هن الكواكب فى النهـــار المظـلم (٣)

ويمضى البارودى فى القصيدة فيطلب ـ ان كان هناك من يجهل مكانته ـ أن يسأل عنه مصر لتخبره بشرفه ومحتده وعزه التليد ، وهى ولا شك أعرف الناس به ، فقد نشأ يرشف من غديرها ويطعم من نبتها ، وينشق نسيمها ، فهو جزء منهـــا ، دمـــه من نيلهـــا ، وجسمه من ترابها ، وروحه من هوائها وبها أهله وأحبته وأعظم أجداده تحت ثراها فهى دار الكرامة عنده وجنة الحسن ، زهراتها حور المها وهو طائرها الفرد وبلبلها الصداح .

ثم يتحدث البـــارودى عن موهبتـــه الشعرية وملـــكته الفنية التى نشأت فى طبعه أصيلة خلاقة ليست مقلدة لأحد من السـابقين ،

---

(١) متردم : الأصل فيه الموضع الذى يرقع أو الكلام الذى يلفق وهو هنا ترك الشعراء السابقون معانى كثيرة للقول فيها .

(٢) لا ينى : لا يزال ، يفرى الفرى : معناه هنا يخلق الخلق الجديد .

(٣) فرع ناصية العلماء علاها شرفا .

فكان خلقا وحده يهفو الى شعره أبو نواس ويطرب له مسلم ابن الوليد ، ثم يحدد دوره فى الشعر العربى وريادته لنهضة جديدة، فقد قوم الشعر وأخذ بيده بعد أن كاد الفساد والصنعة يقضيان عليه وفتح فيه مجالات لم يكن يعرفها أبناء عصره من الشعراء كما يقول :

ذللت منه غواربا لا تمتطى
وخطمت منه موارفا لم تخطم (١)

وتسعد مصر وهى ترى ابنها العائد يملأ جوها الأدبى حياة ونشاطا ، ويمد مريديه الشعراء بروح من عنده فتتكون حركة شعرية كبيرة تنتشر من مصر لتملأ الآفاق العربية فيسير الشعراء على نهجها ويقبسون من ضوئها حتى يعم النور .

ويضنى البارودى ويعذبه ما يراه على جسد وطنه الحبيب من جروح الاحتلال وقروحه ، ويمر بقصر الجزيرة ــ وقد قضى فيه ردحا من شبابه يوم أن كان ياور الاسماعيل ــ فيشهد مافعلت به يد الزمان وما فعلت بقومه ووطنه ــ فيؤلمه الواقع وتمضه الذكرى ويذرف دمعة الرثاء على القصر ، وكأنه يبكى الماضى جميعه والوطن ومصابه فيقول (٢) قصيدته : « هل بالحمى عن سرير الملك من يزع » والقصيدة من عيون شعر البارودى ، ومحور قوتها هو « الذكرى » . وهى دمعة رثاء على الحال التى آلت إليها البلاد ، ورؤيته المحتل جاثما على صدرها ، ولا ريب أن الألم الصامت كان فى فؤاده كالجمر تحت الرماد ، فلم يصرح به فى شعره ، وأشد الآلام ما كان مكتوما ، والقصيدة تدل على أن البارودى كان ثاقب الفكر لا تصرفه الظواهر عن رؤية المكنون من البواطن ، فلم تفره

(١) البيت من قصيدة لم يسبق نشرها .
(٢) نشرت المنار القصيدة فى عددها ٢١ من المجلد ٧ يناير ١٩٠٥ وقالت « انها من آخر ما نظم » .

الرفاهية المادية التى غرت بعض العرابيين بعد رجوعهم من المنفى ، فتوهموا أن أغراضهم تحققت ، ولم تغره مظاهر العــــدل الأجنبى المنظم فى الظاهر ، ولكنه أزاح الستار عن ذلك الظلم الأجنبى المنظم فى الباطن الذى يضؤل بجانبه كل ظلم (١) .

ولا تترك الأقدار معذبها العانى يقضى ما بقى له من أيام هادئا يأسو جراحه ، ويبرىء الآلام التى أضنته سبعة عشر عاما ، أو يهنأ بالعودة الى وطنه بين أهله وبنيه وصحبه ، بل تأبى الا التمادى فى ملاحقته بنوبها وارزائها فينشب الموت أظفاره فى احدى بنــاته ليلة زفاف أخت لها (٢) . ويعقد المصـــاب لســـانه وتفزع النائبة جنانه ، وتتحجر منه المآقى وينضب معين الدموع فلا يستطيع بكاء ابنته ، ويبكى له صحبه ومريدوه ، ويواسيه حافظ وشوقى وشكيب أرسلان وخليل مطران (٣) وغيرهم من الشعراء !! ثم يتلو المصاب مصاب آخر يفقــد فيه ابنة أخرى بين يديه « فقلصت المصائب كبــده ، وأودت بجســـده ، وقضت على البقية الباقية من نور عينيه » (٤) .

وكان البارودى منذ عاد الى الوطن وفى يده سفر خلوده ... ديوان شعره ينقحه ويعده للطبع (٥) ، ويملى على كاتبيه ــ الشيخ ياقوت المرسى والشيخ عطيه حسنين (٦) ــ بعــد أن كف بصره فى

---

(١) محمد صبرى : محمود سامى البارودى (١٩٢٣) ص ٦٤ .

(٢) عام ١٩٠٢ .

(٣) انظر دواوين هؤلاء الشعراء والمجلة المصرية سنة ٢ عدد ١٩ مارس ١٩٠٢ .

(٤) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٩٠٤/١٢/١٥ انظر أيضا اللواء فى ١٩٠٤/١٢/١٢ .

(٥) لم ينشر الديوان كاملا حتى الآن وكانت أول نشرة له هى التى طبعت عام ١٩٠٩ ــ ١٩١٦ وقام بشرحها محمود الامام حتى آخر قافية اللام والنشرة الثانية طبعت عام ١٩٤٠ ــ ١٩٤٢ وقام بشرحها على الجارم ومحمد شفيق معروف حتى آخر قافية الكاف .

(٦) انظر مراثى الشعراء ص ٦ .

أيامه الأخيرة ما شاء من تغيير وتنقيح . وأصول الديوان تشهد بالجهد الكبير الذى بذله البارودى فى هـــذا التنقيح والأعداد والمعاودة ، فهناك أبيات حذفها من بعض القصائد ، وأبيات أخرى غيرها كلها أو بعضـــها ، واضافات جديدة ألحقها بقصائد قيلت من قبل ، وكلمات وفقرات لم ترقه فاستبدل بها غيرها وتفسيرات كثيرة أثبتها فى هامش الديوان لمعانى الكلمات الغامضة ، أو غير المتداولة . وذلك كله دليل على حبه الكبير لشعره وايمانه به ، وشهيد على صدق عقيدته فى أن العبقرية مجهود متصل فى سبيل الكمال . وظل يرتب الديوان حسب قوافيه حتى أكمله آية لمجده وتراثا للأجيال من بعده فى ٥٣١٣ بيتا غير قصيدة « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة وعـــدد أبياتها ٤٤٧ بيتـــا (١) وغير المقطوعات الشعرية التى جاءت فى ثنايا كتابه « قيد الأوابد » .

« وقيد الأوابد » كتاب نثرى التزم فيـــه البـــارودى أسلوب السجع وراعى الصناعة البديعيـــة ومحسناتها وجمع فيه بعض الخواطر السانحة والرسائل التى كتبها وأرسلها أو التى نفث فيها مكنون صـــدره فخفف عن قلبـــه ثم استبقاها لنفســـه (٢) ، وكتاب قيد الأوابد لم ينشر حتى الآن ، وقد أورد الأستاذان على الجارم ومحمد شفيق معروف فى مطلع نشرتهما لديوانه فصلا من هذا الكتاب « نموذجا لخطه وفنه الكتابى » ، وقد أمدهما به ــ كما يقولان ــ ابن الشاعر محمد أشرف البارودى (٣) .

وشغل البارودى نفسه أواخر سنى عمره أيضا «بمختاراته»(٤)

---

(١) انظر ص ١٦٩ ــ ١٧٠ من الكتاب .

(٢) معلومات الأسرة .

(٣) وعدتنى كريمتا البارودى بالبحث عن أصول هذا الكتاب حتى يمكن نشره .

(٤) طبعتها زوجته أمينة يعقوب سامى بعد وفاته عام ١٩٠٩ ــ ١٩١١ فى أربعة أجزاء وقام بتصحيحها « كاتب يدا لمنتخب فى سنيه الأخيرة الفقير اليه تعالى ياقوت المرسى » (مطبعة الجريدة بسراى البارودى بمصر) .

فقد « رأى أن يتحف الأدباء من أهل عصره بمجموعة يختارها من شعر فحول الشعراء المولدين لتكون عونا للناشئين على طبع ملكة البلاغة فى النفس ، فاختار ثلاثين ديوانا وانتخب منها ما رق لفظه ودق معناه وخلا من الحشو والتعقيد ... ورتب أسماء الشعراء على حسب أزمنتهم لا على حسب مكانتهم » (١) . وبدأهم « ببشار ابن برد » رائد الشعر العباسى ، وزعيم المحدثين المجيدين من الشعراء (ت ١٦٧ هـ) ، وانتهى بهم الى « ابن عنين » المتوفى عام ٦٣٠ هـ « ووضع البارودى تعليقا لمختاراته يفسر به الألفاظ الغريبة والمعانى المغلقة (٢) » .

* * *

وكأن القضاء كان ينتظر البارودى حتى يفرغ من تنقيح سفر خلوده ، وينتهى من اعداد تمثال عبقريته الخالد .. ديوانه ثم سلط عليه المرض فى منتصف عام ١٩٠٤ (٣) واستعصى على الطب الشفاء ! ويلتف صحبه ومريدوه من حوله يودون لو يستطيعون دفع الردى عنه ، وتحمل الضر بدله ، ويتسمعون وكلهم آذان الى آخر ما يقول وقد بدت لهم ملامح النهاية ، وفى صحوة الموت وعلى فراش المرض الأخير يستجمع البارودى ما بقى له من قوة ويضم اليه قيثارة الشعر يودعها ويغنى عليها « اللحن الأخير » (٤) فيقول :

أنا مصدر الكلم النوادى
بين الحواضر والبوادى

---

(١) مراثى الشعراء ص ٢٢ .

(٢) مراثى الشعراء ص ٢٣ .

(٣) جريدة اللواء فى ١٩٠٤/١٢/١٣ .

(٤) ذكر خليل مطران أن هذه الأبيات آخر ما قاله البارودى على فراش المرض فى رمضان ١٣٢٢ (نوفمبر ١٩٠٤) وقد توفى فى ديسمبر ١٩٠٤ انظر الجوائب المصرية ١٩٠٤/١٢/١٤ .

أنـا فارس ، أنـا شـاعر
في كل ملحمـة ، ونادى
فـاذا ركبت فأننـى
زيد الفوارس في الجـلاد (١)
واذا نطقـت فأننـى
قس بن سـاعدة الأيادى (٢)
هـذا ، وذلـك ديـدنى
في كـل معضـلة تآد (٣)

وكأنه بآخر أبياته يعلن مقدرات نفسه وهو ذاهب الى الأبدية ، ثم يردف الحديث عن نفسه بحديث عن وطنه فيقول : لعواده المقربين اليه : « هل سمعتم بانسان شكر الله على العمى ؟ أنا ذلك الشاعر ، فقد جنبنى الله رؤية الاحتلال وقد ضرب بجرانه على بلادى . (٤) »

وفي أصيل يوم الاثنن الثانى عشر من ديسمبر ١٩٠٤ وقفت ربة الشعر حزينة كئيبة تعزف لحنها الجنائزى والبارودى يسلم روحه الى بارئها ، وودعته وداعها الأخير بعد رفقة دامت قرابة نصف قرن رد اليهـا الشباب والقوة ، ووصلها بالمجد القديم ورفعها الى مكانة أخواتها اللاتى عزفن لشعراء العربية المجيدين في عصورها الذهبية .

وتهتز مصر من الأسى والفجيعة وقد فقدت في البارودى ابنـا من أعز أبنائها ، ورائدا لنهضة أصيلة في الشعر وفنانا بعث الروح

---

(١) زيد الفوارس : هو ابن حصين بن ضرار الضبى ، فارس جاهلى مشهور يضرب به المثل في الشجاعة .
(٢) قس بن ساعدة الأيدى : من اشهر خطباء العرب في الجاهلية .
(٣) التآد : الداهية .
(٤) اللواء في ١٩٠٤/١٢/١٤ .

فى الأدب العربى كله ، ومجاهدا ثائرا حاول أن يخلص وطنه من ظلم الاستبداد ويمنحه الحرية والاستقلال فلما أخفق قدم من شبابه وحريته وماله ونور عينيه فداء على مذبح التضحية الوطنية ، وتنعى الصحافة (١) الى العالم العربى شاعره الكبير ، « وتشارك مصر فى أساها لفقده الأمة العربية كلها من الشام الى بغداد ، ومن الجزيرة الى تونس (٢) » . وكان أهل الأدب أكثر الجميع مصابا وألما « لأنهم يعرفون قدره ، وقد نسى مقامه السياسى عند من كان على رأيه ومن كان مخالفا له ، لأن علة المناصب عرض يطرأ فيكون له حكمه ، ويزول فيحمى رسمه ، ولا يذكره الانسان الا بصفاته وأعماله (٣) . »

وخرج مشهده فى الثانية من بعد ظهر الثلاثاء ١٩٠٤/١٢/١٣ من داره بباب الخلق وأم المصلين عليه الأستاذ الامام محمد عبده (٤) وجاء الناس من كل صوب وحدب يودعون البارودى الوداع الأخير ويشيعون جثمانه يتقدمهم عشاق فنه وشعره ، وعارفو فضله وجهاده الوطنى ، وتلاميذه ومريدوه من الشعراء (٥) ، ويصف خليل مطران هذا المشهد فيقول : « خرجنا نمشى وراء نعشه المحفوف بالاجلال ونحن ننظر ذات اليمين وذات الشمال ، فلا نرى بين الجمهور الا كل مهتز العطف للشعر ، متطلع النفس الى الحلال من السحر ، والجميع قد نسوا منه

---

(١) انظر : الجوائب المصرية ، اللواء ، المنار ، المؤيد ، المقطم ، والصاعقة من ١٩٠٤/١٢/١٣ الى ٢٠ فبراير ١٩٠٥ .

(٢) من رثاء الجوائب المصرية فى ١٩٠٤/١٢/١٥ .

(٣) من رثاء المنار فى ١٩٠٤/١٢/٢٣ .

(٤) المقطم والمؤيد ١٩٠٤/١٢/١٤ ، المنار ١٩٠٤/١٢/٢٣ ويقول صاحب المنار انه لم ير الشيخ محمد عبده صلى على ميت غيره الا مأموما .

(٥) لم يشيع شوقى جثمان البارودى مراعاة لشعور سيده الخديو .

الوزير رب الدولة ، والفارس صاحب الصولة ، وانما بكوا ذلك الخلق الجليل فى ذلك الخلق الجميل ، وذكروا الشاعر (١) . »

وأسلمه مشيعوه الى مثواه ، وتركوه من خلفهم الى لقاء قريب ، فقد تواعد الشعراء والأدباء وصحب البارودى ومريدوه على أن يجتمعوا على قبره فى « ذكرى الأربعين » ليرثيه الشعراء ويندبه الأدباء ويودعه مريدوه وعشاق فنه الوداع الأخير . « وفى صباح هـذا اليوم توافد جمهور كبير من الشعراء والأدباء على اختلاف الطبقات والمراتب عربا وأفرنجا الى مدفن البارودى بالامام الشافعى ، والتفوا حول الضريح نائبا بعضهم عن مصر وبعضهم عن الشام » وتقـدم الشعراء والخطباء تباعا يقدمون الى الجدث الطاهر تحية الفناء الى البقاء ، ونبهوا الأصداء النائمة حوله فى بهو السكون الخالد بتعديد مآثره وترديد ذكره ، « وقالوا للنسيان تنح قليلا ، وللسلوان لأحسنت اليوم وان كنت جميلا ، وكلهم على استحياء اليه بما يكون به شعره من الشعر ، وما هم بمتهجمين عليه فقد خلدت له أقواله جميل الذكر (٢) » . وأدى الشعراء والأدباء حق الوفاء للرائد الذى ذهب وأحيوا سنة لم تسبق الا لشاعر المعرة من شعراء العربية .

---

(١) الجوائب المصرية فى ١٩٠٤/١٢/١٥ .

(٢) تجد القصائد والخطب فى جريدة الجوائب المصرية عدد ١٩٠٥/١/٢٠ وما بعده وقد جمعها خليل مطران فى كتاب « مراثى الشعراء » ولم يحضر هذه الذكرى أحمد شوقى أو اسماعيل صبرى أو على الليثى ولم ينشر أحد منهم رثاءه فى الصحف وقد أشارت الصاعقة فى عددها ١٩٠٥/١/٢٣ الى أن شوقى نظم قصيدة فى رثاء البارودى لكنها لم تنشر سوى مطلعها وهو :

هـذا ثرى مصر فنم بسـلام
كم روعتـك حـوادث الأيام

ولم تنشر هذه القصيدة فى ديوان شوقى .

وعاد الراثون والمعزون ادراجهم الى الحياة وتركوا البارودى لقبره يمنحه ما لم تمنحه دنياه .. تلك التى صافته قليلا فصافح الثريا ، وعادته كثيرا فأضنته حتى أكل الشقاء أكثر عمره .... يمنحه الراحة الكبرى بعد طوال عذاب ، ويحنو عليه « فان كريما من تضم الصفائح » !! وانتهت دنيا البارودى وانفض ما كان يعانى من بوائق الغـدر والجحود ، وبقى للبارودى ما لم يبق لأمثـاله من رجال السيف والسياسة ... بقى له شعره المسطور على ضمير الزمن ، والشاعر الصادق فى عداد الخالدين .

فهرست

صفحة

صفحة

الفصل الثالث ــ فى المنفى :

الفصل الرابع ــ بعد المنفى :

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب		المؤلف
١ ـ محمد عبده	... ...	عباس العقاد
٢ ـ المعتمد بن عباد	... ...	على ادهم
٣ ـ جابر بن حيان	... ...	د . زكى نجيب محمود
٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون	...	د . على عبد الواحد وافى
٥ ـ ابن تيمية	... ...	د . محمد يوسف موسى
٦ ـ معاوية	... ...	ابراهيم الابيارى
٧ ـ سيد درويش	... ...	د . محمد أحمد الحفنى
٨ ـ عبد القاهر الجرجانى	... ...	د . أحمد بدوى
٩ ـ عبد الله النديم	... ...	د . على الحديدى
١٠ ـ عبد الملك بن مروان	... ...	د . ضياء الدين الريس
١١ ـ مالك	... ...	أمين الخولى
١٢ ـ القلقشندى	... ...	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ـ الطبرى	... ...	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ ـ الظاهر بيبرس	... .	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ـ ابن الفارض	... ...	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ـ المختار الثقفى	... ...	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ ـ الوليد بن عبد الملك	... ...	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ ـ الأصمعى	... ...	د . أحمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا أحمد	... ...	صبرى أبو المجد
٢٠ ـ قاسم أمين	... ...	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب أرسلان	... ...	أحمد الشرباصى
٢٢ ـ ابن قتيبة	... ...	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ أبو هريرة	... ...	محمد عجاج الخطيب
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	... ...	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	... ...	محمد جابر الحينى
٢٦ ـ الكندى	... ...	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ـ الصاحب بن عباد	... ...	د . بدوى طبانه
٢٨ ـ الناصر بن قلاوون	... ...	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ أحمد زكى	... ...	أنور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	... ...	د . سيد حنفى حسنين

اسم الكتاب	المؤلف
٣١ ـ المثنى بن حارثه الشيبانى ...	عقيد محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى ...	عبد القادر أحمد
٣٣ ـ رشيد رضا	د . ابراهيم أحمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصلى	د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ ـ أبو حيان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسى	د . أحمد كمال زكى
٣٧ ـ الزهاوى	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ ابو العلاء المعرى	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ احمد لطفى السيد	د . حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين ...	د . فوقية حسين
٤١ ـ صلاح الدين الايوبى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش	انور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيد القيروانى	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد عبد الملك الزيات ...	محمود خالد الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف	محمود غنيم
٤٨ ـ احمد بن طولون	د . سيدة اسماعيل الكاشف
٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى	احمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق	محمد عبد الغنى حسن
٥١ ـ المهدى العباسى	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ ـ الأشرف قانصوه الغورى ...	د . محمود رزق سليم
٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى	د . حسين فوزى النجار
٥٤ ـ زرياب	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ ـ الكندى « المؤرخ »	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس	د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد احمد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المأمون	د . محمد مصطفى هداره
٦٠ ـ المقرى	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الأفغانى	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ ـ الجاحظ	د . احمد كمال زكى
٦٣ ـ ابن ماجد	د . انور عبد العليم
٦٤ ـ محمد توفيق البكرى	د . ماهر حسن فهمى
٦٥ ـ محمود سامى البارودى ...	د . على محمد الحديدى

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة

تقدم فى ١٠ مايو ١٩٦٧
العدد السادس والثلاثين

أهم موضوعات العدد :

رئيسا التحرير :

على أدهم
الدكتور عبد الحميد يونس